الهروب إلى الجحيم

هيثم نافل والي

الكتاب : الهروب إلى الجحيم (مجموعة قصصية)

المؤلف : هيثم نافل والي

الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠١٤

رقم الإيداع : ٢١٠١/ ٢٠١٤

الترقيم الدولي : I.S.B.N: 978 - 977 - 493 - 174 - 1

الناشر

شمس للنشر والإعلام

٨٠٥٣ ش ٤٤ الهضبة الوسطى- المقطم- القاهرة

ت/فاكس: ٠٢٢٧٢٧٠٠٠٤(٢+) / ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥(٢+)

www.shams-group.net

تصميم الغلاف : إسلام الشماع



الهروب إلى الجحيم

مجموعة قصصية

هيثم نافل والي

إهـــداء

إلى المرأة التي مهما قُلتُ فيها

فلستُ حقها مُوفِّيها

تلك التي لها كبرياء أمّي ،وعنادها يفتت الحجر

فهي التي أحرقتْ بخورًا أصابعها ؛ من أجلي

وحطبًا أضلعها ؛ كي تدفئني

بدمعها عجنتْ خبزًا ؛ لتطعمني

لأسراريَ قبرٌ صدرُها

صديقة الدرب ، ومشوار الحياة

زوجتي التي اخترتها ، فأحسنتُ اختياري

إليها أُهدي مجموعتي القصصية الجديدة الثانية...

آيات حب تؤطِّرُها قبلاتي...

هيثم نافل والي

مقدمة

يتناول المتخصصون عادة أي عمل إبداعي بالدراسة والتحليل وفق منظورهم التخصصي لذلك العمل، من خلال مطابقته لذلك المنظور، باستيفائه الشروط التي وضعها أساتذة ذلك الفرع من العمل الأدبي والالتزام بها، ليقرروا على ضوء ذلك مدى نجاح ذلك العمل...

مع أنني لستُ متخصصًا في هذا المجال؛ لكن لي نظرتي الخاصة في الحكم على أيِّ عمل إبداعي في مجالات الأدب والفن بكل فروعهما، إذ أعتبر أن العمل الناجح هو الذي يدخل إلى عقل وقلب المتلقي دون حواجز أو اشتراطات؛ فكل عمل يسرُّ نفس المتلقي ويضيف له شيئًا من الارتياح والرضا، وينَّمي لديه الحصيلة الثقافية والذوقية ويثير فيه التفاعل الإيجابي تجاهه.. هو عمل إبداعي، بغض النظر عن الالتزام الصارم بما وضعه أساتذة ذلك الفرع من العمل الثقافي، مع كل احترامي لهم.

والحقيقة أن القصة القصيرة من أصعب النتاجات الأدبية في المجال القصصي، إذ أنها تختلف عن الرواية والقصة الاعتيادية (الطويلة) أو النصوص الأخرى؛ في كونها تكثِّف الأحداث وتَعرِّضها في حيز محدود من النشاطات الإنسانية، وتحولها إلى عمل أدبي مكتوب بحيث تجعل القارئ يحس بحركة أبطالها، ونشاطاتهم في ذلك الحيز المحدود من الوقت والعمل الإبداعي للكاتب..في حين أن

كاتب الرواية أو القصة الطويلة لديه الوقت وسعة الميدان مما يجعله يتصرف بحرية أكبر، وإدخال فاعليات ثانوية أو جانبية لسد بعض الفجوات في عمله الروائي، وهذا بالتأكيد يتوقف على قدرة الخّلق والإبداع وسعة الأفق لدى الأديب في كلتا الحالتين.

من المعروف أن كل مبدع في مجالي الأدب والفن يعكس تاريخ المرحلة التي يعيشها، وهذا يعني أنه مؤرِّخ لتلك المرحلة، ولهذا فكلما كان هذا الأديب أو الفنان قريبًا من حياة الفئة التي يحيا وسطها.. كان معبرًا بصدق عن آمالها وآلامها، وعن تطلعاتها نحو المستقبل، وكان مؤرِّخًا وموثِّقًا لحقيقة تلك المرحلة من التاريخ، وبالتأكيد فإن القدرات الذاتية للأديب والفنان، وامتلاكه أدوات الإبداع الذي يمارسه من ثقافة، ووعي، ولغة، وتحليل، واستنباط لبعض آفاق المستقبل.. يجعل نتاجه الأدبي أو الفني صورة حقيقية للمرحلة التي يعيشها، وترسم صورة أخرى لآفاق المستقبل الذي يتطلع إليه.

لقد كان المثقفون العراقيون - ولا يزالون - لصيقي الصلة بشعبهم، حاملين همومه وآماله؛ وهأنذا اليوم أرى الأديب هيثم نافل والي يحتل مكانه الطبيعي الواضح - وعن جدارة - بين جمهرة المثقفين العراقيين.

والحقيقة أنني لم أُتابع نتاجه الأدبي في ميدان القصة القصيرة قبل أن أقرأ قصته الجميلة " موقف " والتي شدَّتني لكتاباته الأخرى، فقد تعرَّفتُ من خلال هذا النص على كاتب متمكن، صاغ من حدث بسيط - التبرُّع بالدم لإسعاف مَنْ يحتاج إليه - نصًا أدبيًا جميلًا،

وصنع أجواءً قصصية متماسكة من خلال مشاعر ذلك المتبرِّع، ابتداءً من دخوله مركز التبرُّع حتى مغادرته، ومن يومها رحتُ أقرأ كل النصوص التي ينشرها هذا الأديب الصاعد الواعد، فرأيته مُعبرًا صادقًا عن حياة وظروف ومشاعر أبناء شعبه العراقي بصورة عامة، وأهله المندائيين بصورة خاصة.. وهم يواجهون ظروفًا غاية في التعقيد والصعوبة سواءً داخل وطنهم الأم "العراق" أو في ديار الغربة، بعد الهجرة القسرية التي فُرضتْ عليهم قبل وبعد عام ٢٠٠٣م حيث انتقلوا إلى أجواء غير أجوائهم، وحياة غير حياتهم، وعادات وتقاليد غير تلك التي ولدوا وترعرعوا وسطها؛ فقصة "الهروب إلى الجحيم" هي تعبير صادق ـ بهذا القدر أو ذاك ـ عما واجهته وتواجهه الكثير من العائلات العراقية المهاجرة في أرجاء المعمورة... وهكذا بقية قصص المجموعة التي تحمل عنوانها.

كما لفتت انتباهي جرأته في تناول موضوعات فلسفية ودينية، كما في النصين المعنونين "على ضفاف نهر الأردن" و"الضياء" حيث أجرى من خلالهما حوارًا صعبًا وحساسًا مع شخصية النبي "يحيى بن زكريا" عليه السلام؛ ليشكو له حال العراق وما آلتْ إليه من تردٍ ووضع أهله المندائيين بوجه خاص، إذ انتشروا في بقاع الأرض مجبرين حيث يواجهون ظروفًا غير ظروفهم في شتى مناحي الحياة.. المناخية، والثقافية، والحضارية، والقانونية والتي راحتْ تنعكس على علاقاتهم الداخلية، وحتى العائلية.

إن مجموعة "الهروب إلى الجحيم" تحمل همَّين كبيرين يعيشهما الكاتب: همُّ العراق بصورة عامة وهمُّ أهله المندائيين بصورة خاصة، بل أستطيع القول بأنها تحمل همَّ كل المهاجرين الذين غادروا أوطانهم طلبًا للسلامة والكرامة.

إن القاص هيثم والي، وهو يضيف إلى ثروته الحضارية الرافدينية الغنية ما يكتسبه من حضارات بلدان الغربة، وأجواء الحرية والديمقراطية فيها، واطلاعه على آدابها وثقافاتها.. سيكون علامة مضيئة في أدبنا العراقي والعربي.

أتمنى له كل الموفقية والنجاح.

همّام عبد الغني

شاعر وإعلامي/ أمريكا



الهروب إلى الجحيم

تجاوزتْ غادة سن الثامنة عشر قبل أيام.. فأصبحتْ في عُرفها وعُرف القانون إنسانة ناضجة ومسئولة عن قراراتها وأعمالها.. فصرختْ بعنف وتذمر وتأنيب؛ كالمجنونة؛ بأمها وأبيها، وعيناها تلمعان: اتركوني أرجوكم.. اعتقوني يرحمكم الله!!.. ثم بزفرة مخنوقة، وبآهة مسموعة وجسدها كان كلُّه يهتز، كلهب المشعل: أنا لا أريد منكم شيئًا، سوى مغادرتكم!!.. ما هذه الحياة التي أحياها في وسطكم؟، وتابعتْ باكيَّة، ضاحكة، متنهدة، مستهزئة: والله، نار جهنم أبرد وأمتع وألذ وأرحم منها!!...

أمها وأبوها ينظران لها بحيرة وألم، وقلباهما يتضرعان حرقةً من منظر ابنتهما الوحيدة التي ولدتْ في الغربة، فأصبحتْ لهما السبب والأمل في تعلقهما بالحياة، بل من أجلها كانا يفعلان كل شيء.. وها هي اليوم تصرخ أمامهما دون وجل، هازئة، متذمرة، شاكيَّة، وكأن الشيطان لبسها ففاقته شرًّا وجحودًا.. وتطلب منهما أن يوافقاها على جنونها، بأن تغادرهما لتحيا حياتها كما تريد وكما تشتهي!!، وهما يقفان قُبالتها صامتين، مهمومين بعد أن ركبتهما المفاجأة، فجلجل قلباهما اللينان، الوديعان، الحنونان، والمحبان بإخلاص ووفاء

منقطع النظير لابنتهما غادة (التي لم تعد غادة كما يعهدانها) تلك التي كانتْ تصرخ بهما نادبة في وجهيهماهم دون خجل تطلب مغادرتهما، وهما لا يريدان أن يفقها، وربما من الأفضل ألَّا يعلما !.

ولدتْ غادة في ظروف صعبة استثنائية، بالغة التعقيد، فقد اضطر أهلها إلى مغادرة العراق قهرًا، فلم يجنوا منه سوى الضيِّم والقهر والتراجع، وشهادات جامعية لا تنفع ولا تضر؛ حالها حال بقية الأشياء المعلقة على الجدران للزينة أو للذكرى!! في وطنهم الجديد - ألمانيا - التي يشهد لها التاريخ قبل الناس؛ بقوتها وتقدُّمها ونظامها وإصرار وعناد شعبها.

بعد ولادتها مباشرةً.. أُصيبتْ الأم بمرض خسرتْ جرَّاءه رحِمها، وهي تردد دون انقطاع وبصدق: كريم أنتَ يارب... رحمها الذي حملتْ فيه غادة تسعة أشهر، وهي تعيش مع أمها لحظة بلحظة.. تتغذى معها، تشاركها شُربها، فرحها، ألمها، تعبها، راحتها، وكل حياتها دون أن تشعر!!.. وهذه هي طبيعة الإنسان؛ يعيش قبل أن يولد، وعندما يولد يشعر بالحرمان ويجحد وهو جاهل لا يعلم من أمره شيئًا.

كانتْ ابنتهما فائقة الحُسن والجمال، كأميرة بابلية جعلتها تتندر فيه وتتباهى بنفسها كثيرًا حيثما تكون.. شعرها الذهبي الطويل، تقاسيم وخطوط وجهها الحادة الدقيقة الوسيمة التي رسمتْ ونسجتْ بعناية إلهية رائعة نادرة، عودها الرشيق، أنفها الدقيق، عينيها العسليتان اللتان لهما بريق يتكلَّم سحرًا، شفتاها الطريتان الشهيتان، نهداها النافران كثمرتين سندي ناضجتين.. ناهيك عن العناية والرعاية

والحب الذي خصها بها والداها.. لِمَ لا...؟!، وهي وحيدتهما وكل ما خرجا به من الحياة.

وها هي اليوم تصرخ بهما بتشنجٍ جاف، وتذمر حقيقي نابع من أعماقها، وهي ترفض العيش معهما وتنوي الرحيل؛ بحثًا عن حياة أخرى جديدة، ترى فيها نفسها - حسب ما كانتْ تقول وتدعي- وفق ما أشار لها فكرها التقي ونضجها النقي ووعيها الفقهي!!.

بكتْ أمها قُبالتها بتضرع، علا نحيبها، وارتفعتْ أصوات توسلاتها ورجائها، بأن تعدل ابنتها عمَّا قررته وما نوتْ فعله؛ في حين وقف أبوها منحنيًا، معقوفًا كقوس الرماية، ساهمًا، مصدومًا... فلم يأتِ بقول أو حركة، فظلَّ جامدًا كالصنم، وهو يتابع تشنجات زوجته وتضرعاتها ودموعها، ويسترق النظر إلى ابنته ويرنو بطرف خفي ساكن، تلك التي لم يسمع فيها نبضًا ولم يجد فيها سوى جسد ميت... فيا لقسوة الأبناء، ويا لرعونتهم وغبائهم المفرط أحيانًا!!.

لم ينفع معها دموع ولا توسل.. لقد حزمتْ أمرها وانتهى الأمر، فحاول الأب أن يأخذ زوجته باللين والعطف والرجاء، بأن تتركها وشأنها، لعلَّها تدرك أنها كانتْ من الخاطئين، فترجع لتكون من الصالحين.. لكن الأم وقلبها الحنون لا يفهم لغة الرجال في هذه الأحوال، فناحتْ به هائجة، متمردة، ساخطة، باكيَّة، وهي تقرع صدرها بقبضة يدها بقوة دون شعور: ما هذا الذي تقوله؟!.. لا يمكن لي أن أترك ابنتي الوحيدة ترحل هكذا... ثم رفعتْ درجة صوتها، بعد أن فقدتْ كل قوتها و مقاومتها ، وأجهشتْ في نحيب يقطع أوصال قلب كل مَنْ يراها، أو يسمعها إلا ابنتها الوحيدة،

ونوهتْ بإرادة متراخية: ماذا فعلنا كي نُعاقَب هكذا؟!.. نحن لم نقصِّر في شيء إطلاقًا، بل كنا نجوع لتأكل هي، نعطش لكي نوفر لها حقَّ الشراب.. نسهر، نتألم، نتلوى لكي تنام قريرة العين، هادئة، وديعة، ومطمئنة.. أين خطؤنا؟.. ما ذنبنا؟... ثم صرختْ بكل ما تملك من قوة: هل منكم مَنْ يجيب؟!.. ها...؟

لا جواب، وكأنها تخاطب نفسها كالمجنونة!، ومَنْ قال بأن عقلها أو قلبها ما زالا في تلك اللحظات الأليمة، القاسية على قيد الحياة؟!...

في هذه الأثناء تقدمتْ غادة بغباء نحو أمها وهمستْ قائلة: هذا ليس ذنبي!.. وتابعتْ ببرود قاتل: أعني... أنا لستُ بعربية أو عراقية؛ ولدتُ ـ هنا ـ في ألمانيا وهذا كل ما أعرفه.. إنه بلدي، وناسه ناسي، وطباعهم طباعي، ولغتهم لغتي، وأعرافهم عُرفي وميولهم تشبه ميولي.. أنا أختلف عنكم كثيرًا، ولا يمكن لي أن أكون يومًا مثلكم، ثم علا صوتها فجأة وهزَّ المكان، وفي عينيها يتقد الغضب نارًا: أنا لستُ مثلكم!!، ولا السبب في مجيئكم إلى هنا.. لماذا لا تريدون أن تفهموا هذا؟!... ثم تحركتْ وهي تبتسم بعبث وغموض وتزمتْ مريب، وبخطى واثقة نحو غرفتها الجميلة المؤثثة تأثيثًا فنيًا رائعًا، وبذوق عالي الإحساس بالأشياء... ذهبتْ لتلمَّ حاجاتها لترحل، وكأن ما يحدث مجرد مسرحية لا تحب أن تكمل مشاهدة فصولها!. بعد أن تحجرتْ عواطفها وقسى قلبها وربما مات وهم لا يدريان، وجلَّ اهتمامهما كان منصبًا على عنايتها ورعايتها وبطلباتها التي لا تنتهي، وفيها ملتهيان وما حولهما كان يدور وهم غير مدركين، وللنتائج غير متصورين أو مفقهين.

خرجتْ غادة من غرفتها والطلاء يعلو وجهها، وحقيبتها في يديها تسحبها بمهل وغنج ربما لتغيظهما أو تثيرهما، وتلوح بجواز سفرها عاليًا، وكأنها بسذاجة تقول: ها أنا أتحرر منكما أخيرًا!...

فزعتْ أمها لمنظرها، فلم تعد تحتمل الصبر أو التحمل، فركضتْ قافزة نحو الباب فأوصدته بإحكام، ووقفتْ حائلًا بينها وبين خروجها بعناد ووحشية (لم يكن هذا طبع في أمها من قبل، وكأنَّ الذي سيخرج من الدار روحها وليستْ ابنتها).. في حين بقي زوجها متسمرًا غائصًا في مكانه، وكأنه فارق الحياة!.. عندها صرختْ غادة الجميلة الحسناء المدللة في أمها باستهتار لا مثيل له: ماذا يا أمي؟.. هل تريدين تعويضًا لقاء تحرري؟... ثم أردفت بنشاز ووقاحة: سأبعث لكما كل ما دفعتما من مالٍ لأجلي.. فقط عندما أستقر وأعمل!... ونوهتْ متابعة باستخفاف غريب: كنتُ أعتقد أن كل الآباء والأمهات يفعلون ما فعلتما من أجل أولادهم وبناتهم دون أن ينتظروا مقابل (قالتْ لهم ذلك، وهي تضحك بسفاهة كالساحرة، ففاقتْ الشيطان في بشاعته)...

استمعتْ لها أمها وهي في شبه غيبوبة، وما زالتْ واقفة سدًّا تريد منعها من الخروج، ثم تحرك لسانها فجأة.. فصاحتْ، وهي ترنو لها من وراء دموعها: لقد خاب أملنا فيكِ يا ابنتي، كنتُ أفتخر بأننا ربيناكِ على خُلُق، وها أنتِ تردين حقَّنا صفعة... ثم أردفتْ وعيناها احمرتا وتوهجتا كالمشعل: وأيُّ صفعة؟!.. قاسية كالموت، أليمة كالحروق، ودامية كالجروح الملتهبة المتورمة... وسألتها مستأنفة، وصوتها يرنُّ في الدار عاصفًا: ماذا يا غادة؟.. ماذا يا وحيدة أمكِ

وأبيكِ؟.. أتريدين أن تُرجعي إلينا مالنا الذي دفعناه حقًا لتربيتك؟!... إذًا عليكِ أولاً: أن تُرجعي الزمن إلى الوراء، أن تعوضينا عن ثمانية عشر عامًا فائتة!.. عن أيام شبابنا وكفاحنا وعسرنا، وعن كل آلامنا وحسراتنا وبكائنا وسهرنا، وكل حياتنا التي وهبناها لكِ دون أن نطلب أو ننتظر منكِ شيئًا.. فقد كنا نريد رضاكِ ونحتفل بابتسامة من شفاكِ... ثم رُجَّ المكان بصوتها مجلجلاً: هيا يا ابنتي.. ماذا تنتظرين؟.. أعيدي لنا ما دفعناه كاملًا إذًا وارحلي حيثما تشائين!.

وبدلًا من أن تشفق عليها؛ حرَّكتْ يدها بهوس أرعن نحو كتف أمها ودفعتها جانبًا، وجعلتها تترنح وتتنحى من أمامها قسرًا، وخرجتْ وهي تبتسم بغموض واسترخاء عجيب مريض، وغادرتهما حيث تريد.

• • •

بعد عامين من خروجها.. حيث التشرُّد والذل والمهانة والفقر والحرمان الحقيقي.. عادتْ غادة نادمة، باكيَّة، قذرة ومتحسرة.. في ليلة شديدة الظلام، قاسية وقارسة البرودة... جلستْ أمام باب شقة أهلها بعد أنْ ذاقتْ ألوان المذلة والمهانة.. منهكة، جائعة، متعبة، وسخة وخائرة القوى، تتنهد وتئن، تطرق الباب دون رد أو جواب.. لا يفتح لها، وكأنَّ الأمل قد مات وأوصد بابه من دونها!، فبكتْ بذل وهياج وهي تزفر بتشنج، وتستعيد ذكرياتها بندم مجروح دامٍ.. يوم تركتْ هذا المنزل وهي تغلق الباب الذي تجلس الليلة أمامه والذي

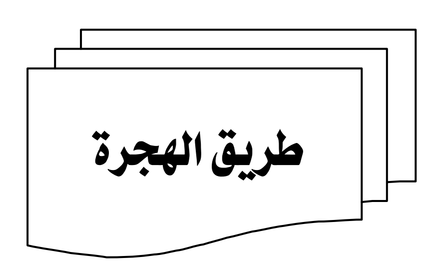
لا يريد أن يفتح لها، وكأنَّه لا تهون عليه نفسه؛ ليسامحها على فعلتها عندما أغلقته بقوة ووقاحة وغرور وتكبر أعمى، يوم خرجتْ وهي ترسم ابتسامة مريضة، غامضة على شفتيها، وكأنها تتشفى في أهلها!!، فظلَّ الباب مؤصدًا مغلقًا في وجهها.

وبعد أن تذكرتْ أحداث ذلك اليوم الرهيب، وبعد أن غمرتها وغسلتها دموعها.. نهضتْ وهي عارية القدمين، تمسك بالباب وهبَّت واقفة بغير قوة.. بدأتْ تطرقه وتدقه وهي تضحك بصوت لين فارقه الدلال منذ زمن بإصرار وعناد وداخلها متشبث بيقين، على أمل أنَّ أمها وأباها سيفتحان لها حتى ولو بعد حين.. ترى ماذا جنتْ من هروبها إلى الجحيم؟!...

في هذه اللحظة رفعتْ غادة يديها القذرتين أمام فمها، وبصقتْ فيهما كتعبير عن حنقها وغدرها وخيانتها وجحودها وقسوتها لأهلها، ثم سألتْ نفسها بعد أنْ بدأتْ تنتحب في ذل مجددًا أمام الباب المؤصد: ولكن أين هما الآن؟.. ولماذا يجعلانني أجلس أنتظر هنا كالشحاذة أمام منزلهما؟!... ثم صرختْ وهي تهذي وتجهش في بكاء عنيف وتدق رأسها بقبضة يدها وتردد: كم كنتُ متغطرسة، متكبرة، غبية ومعتوهه؟!.. كم...؟!، ثم واصلتْ من خلال دموعها وهي تشهق: أتقعد الأرض الآن كجرذ أجرب، نادمة، ساعية على أمل الباب يفتحان، وهمهمتْ تنتحب وتنوح بفعل لا إرادي وغفتْ.. وظهرها مستند على الباب المؤصد الذي لا يتأثر بما يسمع أو يرى... فزَّتْ بعد لحظات مقروصة من البرد، والجوع ينهش معدتها الخاوية، فرفعتْ بإصرار يدها المرتعشة وطرقتْ الباب بقوة متراخية

مرات، وهي تغمغم: أبي.. أمي.. أرجوكما، افتحا لي... أنا غادة، ابنتكما الوحيدة الحسناء.. هل نسيتماها هكذا بسرعة؟!...

ثم ضحكتْ بهبل وهي تهمس لنفسها قائلة: لأتذكر مرة أخرى ما حدث في ذلك اليوم المشئوم لحين أنْ يفتحا لي، فأنا متأكدة من حبهما بل سيسامحانني ما إن يرياني أو يسمعا صوتي.



جلس عامر في الطائرة- ولأول مرة في حياته - التي تقله من بغداد إلى بودابست بجانب شاب يدعى طه، فتعرفا أثناء الرحلة على بعضهما البعض...

- سأله طه، وابتسامة متواضعة ارتسمتْ على شفتيه وخديه: من الواضح أنك لم تسافر من قبل إلى أوروبا ؟

- تلفت عامر بريبة وبصوت منخفض، قال: نعم.. إنها المرة الأولى، وربما الأخيرة... لأنني لا أنوي العودة!

- كما فعلتْ أنا قبل عشرين عامًا تمامًا (أجابه طه وأردف) لكنني عدتُ وحنثتُ بوعدي الذي قطعته على نفسي.. إنها بغداد يا رجل، ستبقى في القلب والذاكرة، ثم قلب عينيه بعامر وسأله: ماذا تعرف عن حياة أوروبا؟.

- لا شيء، ثم ندم على تسرعه واغتصب ابتسامة على وجهه، وقال: بالتأكيد هم مثلنا كباقي البشر، بماذا سيختلفون عنا؟.

- أشياء كثيرة يا عزيزي، ثم استطرد بحماس حقيقي.. يقال، اجعل القلم يتكلَّم إذا كنت كاتبًا، لذلك فهم يحيون حياتهم كما يريدون،

يقولون ما يشاءون ويعبرون عمَّا يختلج به قلوبهم دون رهبة أو خوف.. ثم تراهم نادرًا ما يفكرون في غيرهم حتى أقرب الناس إليهم!، لقد صادفتُ مرة أحدهم يريد بيع داره، وقال أن له ابنة في العشرين، فسألته دون قصد.. لماذا لا تعطي الدار لابنتك؟.. انهار، امتعض، انفعل، تغيَّر لونه فجأة وزمجر محتجًا وصاح: ماذا؟.. أعطي داري لابنتي!.. وماذا تفعل هي؟ تنام مع صديقها فقط، وظل يصرخ كالمعتوه، فاعتذرتُ منه وقلتُ: لم أكن أقصد هذا.. سامحني على غبائي، وانتهى الموضوع بطردي في أدب مفتعل، وقال: لا دار أملك اذهب بعيدًا عني، ليس لدي ما أبيعه... تصور؟!، فهم لا يحبون العيش تحت الضغط، يكرهون كثيرًا التفكير في المستقبل، يعيشون لحظاتهم بكل ما يملكون من طاقة، لا يفكرون في التوفير مثلنا أو يدخرون لأبنائهم، فهم كما قلتُ: يحبون أنفسهم أكثر.. يقتنون السيارة قبل الدار، يسافرون كثيرًا، لا يطهون في بيوتهم إلا ما ندر وشذ، يحترمون الوقت ويقدرون قيمته البالغة في صنع حياتهم، يقرءون كثيرًا وفي كل مكان ليس لديهم وقت فراغ، لا يحبون السطحية مثلنا، مؤمنون ويعرفون الله، مثلي ومثلك وربما أكثر... قاطعه عامر معتذرًا: أرجوك، لم أعد أستطيع متابعتك، لقد أثرت فضولي.. هوسي وجنوني، فحياتهم ومن الظاهر ليستْ على ما يرام، مريضة أقصد!.... أجابه طه مستغربًا: وما هو الشيء غير الطبيعي الذي قلته؟!

ـ حديثك عن الوقت والعمل والكتاب.. يا رجل جعلت الواحد منهم آلة وليس من صنف البشر!، ثم حاول أن يغير من اتجاه الحديث.. فسأله بامتعاض وشيء من الاستهزاء: أين تقيم؟

ـ أعيش منذ حوالي عشرين عامًا كما قلتْ، في فينا عاصمة النمسا، ثم حاول المزح معه.. ألم تسمع بليالي الأنس في فينا؟، وتابع.. زرتُ بغداد.. رأيتُ أهلي وأصحابي، وسأذهب في رحلة للاستجمام في بودابست، ومن ثمَّ أرجع قافلًا إلى بلدي الثاني النمسا، وللعلم إن الشعب المجري يتحدث اللغة الألمانية.. هذا يعني أنني ربما سأفيدك بعض الشيء هناك، بل أعدك بأنني سأعرفك على فتاة لا تصمد أمامها سوى لحظة واحدة ومن ثمَّ تركع تحت قدميها تطلب وصالها... استمع له عامر بكل حواسه، وهتف دون وعي: فتاة!.. أركع لها وكأني أُصلي!، ثم صاح: مَنْ هذا الذي سيتركك يا طه؟.. أنا لا أعرف ـ هناك ـ أيَّ شخص، ولا أجيد أيَّ لغة أجنبية بالتأكيد سأحتاجك.. يا رجل، لقد بعثك الله لي من السماء، وكما ترى نحن نحلِّق في السماء، فهديته لم تذهب بعيدًا... ثم ضحكا ببراءة وهما يستمتعان بالحديث كيفما كان واتفق، وعامر يحترق وهو يحلم بالفتاة ويشتهيها بشبق محموم صارخ، حتى وصلا... وما إنْ وطأتْ قدما عامر أرض المجر حتى انبهر.. فغر فاه كالمسحور وهو يرى العجب... صاح بصديق هجرته طه كالسكران وكأنه القدر، وهو يبلع ريقه بصعوبة وعيناه زائغتان.. ترفضان التصديق: ما هذا الذي أراه أمامي؟.. إنه ولا في أغلى وأروع أحلام الشبق التي حلمت بها!!.. انظر إليهم.. هناك يا رجل.. ألَّا ترى؟ الفتيات في

أحضان الشباب، يُقبلون بعضهم البعض، كأنهم عائدين من سفر طويل!.. انظر.. تمتع، إنهم لا يكتفون بالتقبيل والمص والعض، بل تذهب أياديهم إلى أيِّ نقطة يريدونها، ثم هتف، الله وأكبر.. ما أروع هذه المناظر وما أحلاها!

- هون عليك يا صديقي.. فأنت لم ترَ شيئًا بعد، إنها مجرد مقبلات قبل الأكل.

- (همهم وصرخ والزبد يخرج من فمه).. كل هذا وتقول مقبلات؟!، ثم استدرك كمَنْ لا يؤمن بالله بعد ولا بالشيطان، إذًا.. ماذا سيكون الأكل والحال هكذا؟!، ثم هتف، عفا الله على ما سلف.

- قلتُ لك، اضبط أعصابك وحكم عقلك ولا تفضحنا، ونحن لم تمضِ على إقامتنا - هنا - سوى بضع دقائق، أرجوك.. اصبر، والصبر شيمة العربي!، ثم استدرك.. سأجعلك موفقًا، سعيدًا مع تلك الفتاة، ستفرج أمورك كلها بإذن الله.

- تمتم عامر، وقال: نعم.. أعدك سأهدأ، بل سأقتل رغبتي وأكبحها ما استطعتُ إلى ذلك سبيلًا (وهو يردد وقلبه يتلجلج حرقة، أقرع وبلا رموش).. يا إلهي ثبت لي عقلي، واجعلني من الفائزين.

- ماذا تقول؟!

- لا شيء يا صديقي، لنمضي... ولكن

- لا تقل شيئًا، امشِ وأنت ساكت.. انظر بلا كلام.. عقب بصمت.. تفرس في الوجوه فقط.. افعل ما يحلو لك كالآخرين، لكن لا تأتِ بحركة ولا تبعث صوتًا... أجابه عامر بحزن.. كمَنْ يخفي الحقيقة

تحت لسانه، سيكون لك ما تريد، ولكن ادع لي بالسلامة.. يا لطيف!، ثم سأله: أنا جائع يا طه!

ـ أعرف ـ هنا ـ مطعم يقدم الأكلات العربية.. سنذهب إليه حالًا، ثم أردف، وهناك أُعرفك على فتاتك... قأقأ عامر كما الدجاجة، وهتف بمرح: يا للروعة.. طعام وفتاة!! لتذهب إذًا حياة ومجون هارون الرشيد إلى الجحيم، لقد كنتُ أغار منه في بعض الأحيان لما سمعتُ عن حياة الفساد التي كان يعيشها، سحقًا له وليذهب إلى الشيطان ـ ابن القملة ذاك ـ هارون الرشيد.. قال: تبًا له ولحياة الشاذ السلطان عبد الحميد، ثم هتف، أوغاد لا أكثر.

ـ صاح به طه.. تذكر وعدك لي ستبقى هادئًا ومطيعًا، وستحصل على كل شيء كطفل في أول أيام العيد.. كل شيء وهو يتلذذ بغمزة ماكرة.

استقلا قطار المترو، وجلسا جنبًا إلى جنب.. همس عامر بإذن زميل الرحلة: انظر إليهم.. لا تستطيع أن تفرق رؤوسهم من كتبهم ـ سبحان الله ـ الكل يقرأ، ثم أضاف.. يا لهم من شعب غريب!.. إما أن يقرءون أو يقبلون وأياديهم اللعينة كالثعابين الحرة الطليقة تعبث كما تريد وتشتهي.. في كل صوب وناحية من أجسادهم وهم غارقون في التقبيل، ثم تابع.. المصيبة أنهم لا يخجلون! بل لا ينظر إليهم أحد أو ينهرهم أو يحاسبهم!!

رد عليه طه ببرود: هكذا هي الشعوب المتحضرة.. يعملون، يقرؤون، يفكرون، ويحبون.. هكذا هي الحياة في عرفهم، والموت في ناموسهم عندما تمضي أيامهم؛ لأنها يجب أن تمضي أقصد بلا

هدف أو إبداع، فذلك هو الموت الحقيقي في الحياة في شريعتهم.. والفرد منهم يعيش دون خجل ـ كما قلتْ تمامًا، وبعد وقفة قصيرة استطرد.. السبب يعود إلى أنهم لا يرون أنَّ ما يفعلونه عيبًا، بل يرونه أمرًا طبيعيًا جدًا، ومَنْ ينظر لهم بفضول هو الشخص المريض وليسوا هم.

ـ صدقت يا صاحبي.. فنحن في العراق حياتنا تختلف كثيرًا، نضحك على الشخص الذي يحمل كتابًا وهو يمشي.. نقول عنه: إنه معقد، بل يكون منبوذًا لا أصدقاء له، وكأنَّه يعاني من مرض مُعدٍ والعياذ بالله، فكيف الحال لو قَبَّل فتاة وحضنها ومد يده إلى ما لا أعلم أين...؟!

ـ هذا في العراق، لكننا ـ هنا ـ في بودابست عاصمة المجر العظيمة الأمر يختلف، ولو تقدمت أكثر نحو البلدان الأكثر حرية واستقرارًا وانفتاحًا واحترامًا لحقوق الإنسان.. لجننت إن لم تتفهم حياتهم وكيف يعيشون، ثم تابع بشغف مقصود.. هؤلاء الذين تراهم يقرؤون، إما أن يكونوا ذاهبين أو عائدين من عملهم.. يرفضون الفراغ.. يملؤنه بما هو مفيد، وإلا كيف تأتي الخبرة؟!، وكيف تبني ثقافتك؟!

ـ الثقافة!!

ـ نعم.. الثقافة، المعرفة، التطلع نحو الأفضل.. كلها أمور يجب أن يفكر بها المرء وهو لا يزال على قيد الحياة، ثم باغته بالسؤال، ترى.. ما الفرق بيننا وبين الحيوان إذًا؟.. إذا لم نفعل ذلك، إنهم على صواب يا عزيزي، وتعلم.. كيف تكون مثلهم؟، فإذا نجحت، ستكون

أمك بالتأكيد هي التي دعتْ لك وطلبتْ من الله أن تكون لك هذه النتيجة... الفوز العظيم، الحياة بأسرها!

- كلامك غريب يا طه، لم أسمع به من قبل.

- لم يعر لجملته أدنى اهتمام، وقال له بصيغة آمرة ومشفقة معًا: علينا أن نغادر قطار المترو في المحطة التالية.

في المطعم، قدمتْ الفتاة لهم الطعام وهي تتمايل في مشيتها كالموجه، تقربتْ من طه، وهمستْ في أُذنه كلمات باللغة العربية التي تجيدها: مَنْ هذا الذي معك؟!.. من الواضح أنه حديث العهد في أوروبا... أليس كذلك؟

أجابها بهمس: نعم.. ولكن كيف عرفتِ؟

ردتْ عليه بضحكة.. اهتز قلب عامر لها، واتجهتْ إلى عامر تسأله عمَّا يحب أن يأكل.

- قال عامر في سرِّه وهو يأكلها بنظراته: غفر الله لها.. عاهرة، ولا ترمز إلا للشيطان، ثم أشار إلى صديقه.. وقال،كمَنْ يستنجد: أحب أن أضاجع هذه البطة!!

- اصبر.

- لم أعد أتحمل، ثم أردف.. أنا لستُ بأيوب حتى تطلب منِّي هذا التأني، والمثل يقول: "آمن بالحجر تبرأ"!.. آه... يا طه يا عزيزي، لو كنتُ تعرف ما في أعماقي من آهات مكبوتة، من نداءات مشحونة.. لوعرفت نصفها فقط، لغفرت لي وربما بكيت بدل الدموع دمًا، ثم باغته بالسؤال غير المتوقع، هل رأيتها كيف

تمشي؟.. إنها تتغربل كالرمل والحصى في غربال، فهي ملفوفة باللحم!!، وصاح متناسيًا نفسه، يا رجل، قلتُ لك.. أريد مضاجعة هذه البطة، أريد أن أروي جوعها.. أن أشبعها، بل أكاد أجزم بأن هذه البطة الملفوفة باللحم لن ترتوي أبدًا، ثم مد لسانه ولحس شفتيه وما علق فيهما من لعاب وأرجعه إلى داخل فمه، وهو يصوب النظر إلى داخل قبو المطعم بحثًا عنها.

جاءتْ بأطباق الأكل... وبدأ طه يأكل، في حين سمرَّ عامر عينيه المحمومتين الملتهبتين عليها، وتصوَّر نفسه عاريًا، مستلقيًا على السرير كالملك وهو ينظر إلى جاريته، وهي ترمي قطع ثيابها الواحدة تلو الأخرى من على جسدها، وهي تتأرجح وتتموج في مشيتها الخالعة حتى تصل إليه وهي عارية كما ولدتها أمها.. تصوَّر كل ذلك وهو يحرقها بنظراته القاسية الجائعة والمشتعلة.. شعرتْ الفتاة بتلك النظرات (وربما أحستْ بحرقتها)، فأشارتْ لصديقه الذي لا يزال منشغلًا بالأكل.. ماذا عن صديقك هذا؟!

- ماذا به؟

- له نظرات قاذفة حارقة، وكأنها خارجة من فرن!!

- لا تقلقي، هذا شأن عامر دائمًا خاصة عندما يرى فتاة بجمالك.. سرعان ما يفور دمه، ويكاد ينفجر مرجله!!

- لكنه لا يأكل!!.. مكتفي بالتحديق والنظر.. انظر إليه إنه لا يسمعنا كالمسحور.

- لقد سحر بجمالك كما قلتْ، فهذه نوبة وتعدي!.. لا تخافي، ومن ثمَّ هو يتمنى أن يأكل منكِ، قبل أن يأكل من طبقك!

- ولماذا لا يفصح؟

- لأنه لا يجرؤ.

- ثم انتبه عامر على نفسه، وصاح: ماذا قالتْ هذه البطة؟

أجابه طه مبتسمًا: تريدك أن تفصح بنفسك وعمَّا يخالج قلبك.. هيا قلْ لها بفصيح العبارة، إنك تريد أن تضاجعها، أن تأكل لحمها الطري الأبيض كما قلت لي بالضبط.. فهي تنتظر منك هذا القول الصريح، هيا.. قل لها، ماذا تنتظر؟!.. لقد فلقتنا بكلماتك العنترية منذ لحظات، فها هي أمامك وأنت ساكن صامت، نائم كالحجر... رفع عامر رأسه نحوها وسألها بعدم احترام: كم تطلبين؟

- دوت صفعة على خده، فاحمر وجهه وازرق، وصاح.. ماذا؟ تصفعينني وأنا الرجل!!

- أُكرر الصفعة، إن كررت قولك (قالت الفتاة ذلك بكبرياء صادق لم يتوقعه عامر، وغادرتهما) في حين استمر طه في أكله وكأنَّ شيئًا لم يكن، فصاح به عامر.. ماذا عنك يا طه؟.. يا لك من رجل بارد!، ثم أردف.. لم أتوقع أن تكون ردة فعلك هكذا...

- وماذا تريدني أن أفعل؟، ثم تابع ببرود.. لقد أسأت إليها، وهي أخذت حقَّها منك، دون تأخير... أقول لها برافو أحسنتِ صنعًا، لقد أدبتْ رجلًا شرقيًا طازجًا، لم يعرف بعد.. كيف يتعامل مع المرأة

بشكل حضاري راقي، وهذا هو ردي يا عزيزي، والآن دعني أُكمل طعامي بهدوء، أرجوك.

- وماذا عن النقود؟.. ما الذي أثارها؟.. أنا لم أنوِ شتمها أو الإساءة إليها، كما تدعي أنت.. أبدًا لم يكن هذا في بالي مطلقًا.

- توقف طه عن الأكل.. بسط ذراعيه على الطاولة، وقال: عزيزي عامر.. عندما ترغب الفتاة - هنا - بمضاجعة مَنْ تريد أو مَنْ تحب، لا يكون في حسابها أن هذا بغاء ولن تتقبل ذلك، لو قلتها في وجهها، هي لم تنوِ البغاء ولا تقوم به بقدر تحقيق رغبتها، أن تصل إلى لذتها التي تراها من حقِّها.. هكذا تُفسر الأمور هنا، فهي بالتالي ليستْ غانية كما توهم لك، تمامًا كما تأكل الطعام عندما تشتهي وتجوع، وتشرب الماء عندما تعطش، وفي نفس الوقت هم ليسوا قططًا، أقصد لا يضاجعون في حياتهم كل مَنْ هبَّ ودبَّ، بل هناك أحاسيس ومشاعر قوية صادقة في كثير من الأحيان، هي التي تدفعهم لفعل ذلك.. هل فهمت الآن يا صاحبي؟!

- وماذا علي أن أفعل الآن؟

- أن تعتذر منها، وبصدق لا أكثر.. فالمرء - هنا - متسامح كثيرًا، وينسى بسرعة؛ لأنهم مشغولون بهموم وأشياء أكبر من هذه الأشياء أو تلك التي تدور في بالنا نحن - الشرقيين.

غادرا المطعم مسرورين بعد أنْ شبعا، وبإنجازهما الذي انتهى بموعد لعامر معها بعد أن سامحته عن طيب خاطر ووافقتْ بأن يُقبلها بصدق، ونستْ ما حصل، ووعدته بأن تزوره في غرفته بالفندق المقيم فيه غدًا عند الظهيرة.

وزع صديقه بطريقة شرقية بحته وجعله يخرج من الغرفة، وهو يقول له: كلك نظر يا صاحبي، ولا تأتي إلي قافلًا إلا بعد ثلاث ساعات من الآن!، ثم جهز عامر نفسه جيدًا.. استحم، وتعطر، وسرح بأفكاره وهو يخاطب نفسه: يا لها من فتاة!.. نهدان بارزان، بحلمتين تكاد تشقان قميصها وتخرج نافرة متوثبة، آه... كم يعجبني هكذا نهد عامر ويحمل اسمي، ثم ابتسم لوصفه وحالة التشبيه التي توصل لها، ثم أدرك أنها بالتأكيد تحب وتشتهي التقبيل كثيرًا، كأولاد جلدتها، وكما رأيتُ بعيني.. لم يقل لي أحد ذلك، لقد شاهدتهم بنفسي، سأجعل جسدها أزرق، سأعضه وآكل من لحمه، وصرخ.. آه.. من ضحكتها المستفزة التي تشبه صرير السلاسل الحديدة عندما تتحرك بسرعة متصلة!، ثم صاح.. كم أتوق لأكل لحمها!!، وعاد فسأل نفسه جادًا، لو طلبتْ منِّي الزواج.. ماذا أقول لها؟.. وماذا عن دينها؟، لكنني على استعداد للزواج منها وفي الحال، إن أرادت!!، ثم تجلتْ في ناظريه وهي آتية كالسحابة البيضاء عارية، وهي تردد بشبق: ضمني إليك، أُحضني بقوة، اصهر عظامي، اجعلها تطقطق، اهرشها، اطحنها لا تبالي..فأنا لا أشعر بالحب إلا بهرس الجسد.. وظل هائجًا، سابحًا في تصوُّراته وتناسى نفسه والوقت يمضي وهو ينتظر... تجاوزتْ الساعة التي حددتها للقائه ولم تحضر، فشعر بخوف وارتباك قليلًا من عدم مجيئها، لكنه كان جازمًا متأكدًا من حضورها؛ حدَّق بجدران الغرفة، فوجدها عارية تعكس وحشة خرساء، حزَّ منظرها قلبه وثار الرعب فيه... أدار

ظهره بجهد، تقدم قليلًا وجلس محاذيًا للنافذة التي تطلُّ على الشارع والوقت يمرُّ، وهو يترقب بحذر وقلق شديد...

طرق باب غرفته بهدوءٍ وتأنٍ.. توقف الطرق والنقر على الباب قليلًا، ثم عاد.. ولكن بسرعة متناغمة وبصوت أعلى... فتح عامر الباب وهو في حالة خمول ونعاس، وكأنَّه استفاق لتوه من نوم عميق، ثم تراجع إلى الوراء.. وإذا بـ طه يسأله بحرص وفضول: ها... هل مشى الحال؟!

- لم يرفع عامر رأسه نحو صديقه، وظل يحدق في الأرض وكأنَّه يبحث عن شيء ما فقده، وقال باسترخاء: لم يحدث شيء من هذا الذي تقصده!!

- ماذا؟.. لم يمشِ الحال؟!

- لا، الموضوع ليس هكذا (رد عليه وهو مازال يبحث في الأرض).

- لماذا تتحدث معي بهذا البرود؟.. قل لي.. ما الذي حصل؟.. هل أكلتها أم لا؟!

- لم آكلها ولم تأكلني... هل ترضى بهذه الإجابة؟!، ثم التفت إليه بإحباط وانكسار.. وأردف.. لم تحضر اللعينة تلك بنت الفقمة السمينة!!، وبعد انتظار قاس، مرير، صعب عندها يئستُ من حضورها، فقررتُ حينها بعد أن لم يكن لي فرصة في مضاجعتها، أن أضاجع نفسي بيدي ونمتُ، وكما ترى.. حزين النفس، مهدود الجسد.

صدرتْ من طه ضحكة مقتضبة، رآها عامر واضحة، وفهمها على أنها لؤم، فعبس، ثم همهم طه بالكلام، وقال: لقد كنتُ أعرف أنها سوف لن تأتي.

- ندت عن عامر شهقة مريبة، حادة، وقال: ماذا؟.. كنتُ تعرف! إذًا اتفقتما للضحك علي.

- لا الموضوع ليس كما تقول، ثم استطرد بهدوء.. أقصد توقعتُ بأنها لن تحضر، وهذا كان مجرد ظن لا أكثر.

- ولماذا لم تشرح لي ظنونك هذه من قبل؟.. تنورني، تقول لي.. لا تغلب، لا تنتظر، احذر إنها مراوغة، وربما ليستْ سهلة كما توقعتْ أو صدقتْ، أو أن تقول أيَّ شيء يطمئنني، لا أن تذهب وتتركني هنا، كالتيس الذي ينتظر نحره!

- عزيزي الغالي عامر.. يا صديقي.. عليك أن تعلم جيدًا أن المرأة الأوروبية، ورغم كل ما قلته عن رغبتها ولذتها واندفاعها وإرادتها، فهي تبقى محافظة كراهبة إذا أرادت، ونقية وصافية ومخلصة إن أحبت، لذلك توقعتْ بأنها والحال هذا، لا تحضر ولن تأتي.. لقد أرادتْ أن تعطيك درسًا وتفهمك أنها ليستْ غانية كما توهم لك، لقد كانتْ تشعر بنظراتك الملتهبة نحوها، وبثقافتها وحدسها بلغها ذلك الشعور الذي يقول: إنك تريدها جسدًا فقط.. تريد أن تتغذى بها.. تأكلها كما قلت، حتى أنك سرحت ووصفتها على أنها بطة، ولم تقل إنسانة.. فهمتْ هي ذلك، فقررتْ ألَّا تلعب معك لعبتك.. هذا يبقى تفسيري، وربما لها تفسيرها الخاص.. كل شيء جائز، لكن المهم أنها لم تحضر.. وكان توقعي وظني صحيحًا، ولا

تنسَ بأنك وبفعلتك هذه تبيَّن لها ولي أيضًا.. أنك قبلت التعاقد مع الشيطان لأجل أن تخون أفكارك!!

استمع عامر إلى الخطبة بانتباه شديد، ثم هب واقفًا، وقال بصوت مجروح، مهتاج مخاطبًا نفسه: تبًا لهذا الطريق الوعر الحقير الذي يغرق فيه صاحبه حتى قمة رأسه، ثم تمَّ كلامه الذي كان أشبه بالدعاء.. متى يا رب تنتهي معاناتنا؟، فهذا ليس طريقنا.. والمجر أو غيرها ليس بلدنا، ثم أنهى صرخته بقوله: لتنزل عليهم ومَنْ كان وراء هجرتنا لعنة فرعون.. ثم هدأ، كشبق حقق ذاته، أو كموجة كانتْ تشتهي الصخر؛ لتتفتت لتستريح.. ارتاح عامر لما قاله.. استسلم وهو يشعر بالخذلان والقهر.. عندها لملم أغراضه وحوائجه، ووضعها في حقيبته ومن ثمَّ ودع صديقه قائلًا: سأكمل طريق هجرتي، سأتوجه إلى بلدك الثاني لكني لن أستقر فيه، سأمر به مرورًا سريعًا، قاصدًا ألمانيا.. وهناك سأستقر وأقيم، ثم خرج وأغلق الباب من ورائه بقوة وكأنَّ إغلاقه بهذه الصورة.. تعبير عن عدم رضاه لما حصل، أو أنها صفحة من حياته لا يحب أن يفتحها ثانيةً، أغمض عينيه وهزَّ رأسه أسفًا، ثم سار منسلًا وكأنَّ أحدهم يطارده، وهو يتابع طريق هجرته.



فَضَّ هديل الرسالة التي بين يديه بخفة كالمتلهف المحروم، فتوهجتْ الذكريات في رأسه سريعًا كالحريق، وقرأ...

فاض القلب ولم يعد يتسع، وهل اختار الصمت والقلب من مكانه ينخلع؟!.. لا أعرف من أين أبدأ؛ فصديقي هديل لم يكن مسلمًا مثلي، لكنه كأخي وأكثر... كانتْ له حكاية عجيبة، وكأنها معجزة لا تتكرر بسهولة.

لم أكن صديقه الوحيد.. لكنني المفضل لديه! لا أعتقد لأنني أملك مميزات لا يملكها غيري، بل لكوني أفهمه جيدًا، فهو بالنسبة لي رجل مكشوف كالزجاج، لا يستطيع خداعي أو تمويه الحقائق معي، فالحقيقة أجدها فيه وأستخرجها من داخله دون عناء أو كلام، ولا أحتاج إلا للنظر في عينيه الهادئتين اللتين لهما لون اللوز.. عندها أحزر ما يخبئه دون جهد، وهذا الأمر أظنه هو الذي جعله يتخذني صديقًا مفضلًا ومقربًا.. وهل هناك أفضل من المرايا تعكس النظر؟، فكنتُ له تلك المرايا في فرحه وحزنه، سعادته وألمه، انكساره وفوزه حتى حصل الذي حصل.. فانعكستْ تطلعاتي التي كنتُ أتباهى بها أمامه، فواجهتُ نفسي عندها واعترفتُ بجهلي

وغبائي على أنني لم أكن فعلًا ذلك الصديق الذي يمكن له كشف أسرار صديقه من خلال النظر فقط، وفهمتُ حينها أن الإنسان مهما عرفته تبقى جاهلًا طبعه.. بعيدًا عن أعماق نفسه، وهذا ما حصل معه في ذلك اليوم الحزين الذي أكتب ذكرياته الآن، وكأنَّها شهادة وسأرسلها له حيث يعيش هو الآن.

كنتُ أفديه بروحي إن طلب؛ فأنا لا أفكر بشكل رجعي أو عنصري.. دخلتُ داره، وأكلتُ من زاده... كانتْ ثقافته العريضة تبهرني، بل ترعبني أحيانًا.. فهو رسام أصيل بالفطرة، وكاتب قصة قصيرة بارع، له أُذن موسيقية رائعة.. ناهيك عن حديثه العذب الذي يأسر القلب ويخطف نور البصر ولب العقول.. كان هديل من ملة الصابئة المندائيين، شاب ليس ككل الشباب.. شهامة وصدق وكرم ونخوة وتواضع شديد قلَّ مَنْ تجمعتْ فيه كل تلك الصفات.

بدأتْ علاقتنا منذ أيام الدراسة في المرحلة المتوسطة.. كان ينحدر من عائلة متوسطة الدخل، تمتهن الصياغة حرفة لها.. في حين كنتُ فقيرًا معدمًا أحسب نفسي من الأموات عندما كنتُ في عهد المراهقة، ولكن بذكاء هديل وثقافته المبكرة.. استطعتُ الخروج من عنق زجاجة الحزن والكآبة التي كنتُ غارقًا فيها (والفضل كان يعود له)، ثم لازمته بعد ذلك وحتى خروجه من العراق.. بعد تلك الحادثة الرهيبة التي حلَّتْ عليه فجأة كالصاعقة.

شاء القدر ألَّا يفرقنا، فمَنَّ الله علينا بأن نكون قريبين من بعض ونحن نشقُّ طريقنا في دراستنا حيث قُبِلنا معًا في كلية التربية

بجامعة المستنصرية دون موعد أو تحضير، أنا أدرس الكيمياء وهو الرياضيات وعندما كنا في أول سنة في الكلية، افتتحنا متجرًا صغيرًا كالكهف أو كغرفة كاهن الاعتراف؛ لنعيش منه ولنثبت ذاتنا على أننا وفي ذلك العمر نستطيع أن نعتمد على أنفسنا كالكبار، ونجحنا في ذلك كثيرًا.. بعد أن علمني أسرار مهنته التي يجيدها في فن الصياغة، لكنني لم أتعلم منها سوى قشورها الخارجية؛ لصعوبتها ولدقتها.. كنا فرحين وسعداء كالأطفال في أيام العيد، ونحن نرى نجاحاتنا تتحقق يومًا بعد الآخر.. لحين وقعتْ الواقعة، فتغير كل شيء وانقلب الوضع بالنسبة لنا رأسًا على عقب.. إنها ربما تكون إرادة الله العادلة!

في ذلك المساء البغدادي الأصيل، سألته بصدق: غدًا يكون يوم ميلادك... فكيف ستقضيه؟!

نظر لي بحزن كعادته، وقال مقتضبًا: أراك تنتظر منِّي الفرح!

- ولما لا؟!.. فعيد ميلادك كعيد ميلادي.. أفرح به وأطرب.

- أجاب بنبرة كالتهديد: اطرب كما تريد، لكن بعيدًا عني!

- لماذا كل هذا التشاؤم يا هديل؟ (قال ذلك بصوت منخفض، وكأنَّه يفشي سرًا)

- هل أصابك العمى.. وأنا لا أدري؟ انظر حولك.. جرِّب أن تفهمني، تُرى.. هل نعيش نحن في العراق كباقي البشر؟؛ لتحسب علينا ولادتنا يوم ميلاد حقيقي نفرح به ونحتفل، ثم سأله ممتعضًا.. أجاهل أنت يا صديقي أم تدعي الجهل؟!، واستدرك بجزع.. كما

ترى والحمد لله نعيش ـ هنا ـ في عزلة تامة، كالعناكب في بيوتها، بل يبدو لي أحيانًا أن الشيطان قد أضلنا، ولو تُبنا لشك الناس في توبتنا!!

- وطني يبقى وطني.. حتى وإن حلَّتْ به الأزمات وتشقق جداره بسبب العبث والفساد، ثم استطرد بحماس.. أنا كالجمرة يا هديل، إن فارقتْ موقدها خمدتْ بردتْ، لم تعد تصلح لشيء.. فوطني موقدي، رغم حرارته التي تصهر الفولاذ، وليس الناس فقط!! (أجابه جبار وهو مختلج النفس، ملتهب المشاعر)، ثم سأله مباغتًا: لم تقل.. ماذا أنت غدًا فاعل؟

- لا أخفيك سرًا... ليس لي مزاج السكران!، سأبحث عن مأتم أبكي فيه.. هل تصدق ذلك؟، وتابع قائلًا: احتفظ بحبك للوطن لنفسك، ودع لي طموحاتي وأفكاري التي تجعلني أنظر إلى خارج أسوار وطنك، ثم أردف بحزن.. تمتع بوقتك يا صاحبي، لكنني لن أبقى هنا طويلًا، ثم تابع بحماس.. سأذهب وأنا مالك لفؤادي؛ لأنني أعرف قدري، وسوف لن أقسم دون داعٍ.

جاء الغد راكضًا وهو يزف لنا البشرى، وأيُّ بشرى؟!.. إذ لم تعد ذكرى يوم ميلاد هديل شيئًا سعيدًا في حياتنا؛ فالحادثة التي وقعتْ، قسمتْ ظهرنا وخلعتْ قلوبنا من مكانها دون اعتبار، أو رحمة، أو حتى نسمة عطف علينا.. لقد كان الخبر ظالمًا وقاسيًا.. ليس فقط على صديقي وأخي هديل، بل علي أنا أيضًا.

فيما كنتُ في متجرنا مساءً حتى ظهر لي أحدهم، وهو يسأل عن هديل قائلًا بارتباك والقلق يركبه: أين هديل؟.. لقد سألتْ عنه..

وقالوا لي: إنه يعمل معك هنا.. أين أجده؟.. أرجوك الموضوع لا يحتمل الصبر أو الانتظار.

- تفضل بالجلوس، وأفهمني ما حصل.. لقد أقلقتني كثيرًا ولم أعد أستطيع السيطرة على نفسي، ما المشكلة؟

همَ بالوقوف وهو ينوي مغادرة المتجر، وكأنَّه لم يسمع ندائي.. وما إن أصبح في الخارج حتى ذهبتُ وراءه وأنا أصيح.. يا رجل انتظر قليلًا، هديل سيأتي حالًا سوف لن يتأخر.. لكنه كان مرتبكًا، منهارًا ومترددًا، وهمَ راكضًا لا يلوي على شيء.. تركني أُصارع حيرتي التي غزتني وتغلغلتْ إلى أعماقي كطعنة خنجر.

ومن بعيد رأيتُ هديل وهو يتوجه قادمًا إلى المتجر.. غادرتُ المتجر وأنا كالمجنون، وصحتُ صارخًا به دون وعي: ما الذي حصل؟.. ماذا يجري هناك؟، وأنا مازلتُ أتحدث معه، وهو ينظر لي باستغراب وامتعاض شديدين، ولا يعرف عن ماذا أتحدث؟.. ولماذا أوجِّه له كل تلك الأسئلة الغبية دفعة واحدة؟ وبنفس شبه مقطوع!!.. حتى ظهر الرجل الغريب، بوجهه الصارم العنيد الأسمر الذي لفحته الشمس طويلًا فبدا كالجلد المدبوغ.. وهو يسحب هديل من كتفه بقوة ويسقط في أُذنه كلامًا مقتضبًا، فتغيَّرتْ ملامح صديقي فجأة، ازرق وجهه وأصبح كوجه الميت.. وركضا معًا دون أن ينتبها لوجودي، أو يضعا اعتبارًا لوقوفي معهما، واختفا سريعًا، كما يختفي دخان شمعة أُطفأتْ للحين... حاولتُ الاتصال بهديل هاتفيًا ولم أفلح، فقررتُ زيارته بعد أن أغلقتُ

المتجر وأنا أردِّد: يذهب المتجر والبيع والشراء والمال إلى الجحيم.. وهذا ما فعلتُ، ويا ليتني لم أفعل!!

لقد بدا المنظر مرعبًا في دار هديل، لا يطاق ولا يحتمل، فالصراخ والبكاء والعويل يعلو الزقاق ويشقُّ الآفاق، والنساء يلطمن الخدود والرجال يبكون كالنساء، وأنا في حالة لا يعلم بها إلا الله.. من اليأس والخوف والقنوط.. بحثتُ عن هديل ولم أجده، حاولتُ أن أسأل أحدهم ولم أستطع، فالجو كان عامرًا بالنواح والصراخ، وتفوح منه رائحة الموت الزؤام.. علمتُ فيما بعد أن هديلًا كان قد فقد الوعي تمامًا، بعد أن عرف بالمصيبة.. بالكارثة التي حلَّتْ بهم، فما إن دخل دارهم مرعوبًا منهارًا مع ذلك الرجل مدبوغ الجلد.. حتى ضحك ضحكة شيطانية مهزوزة.. مريضة مجنونة، ولا تعود إلى عالم الإنسان في موقف كهذا!!، ثم لم تعد ساقاه تستطيعان حمله وكأنَّهما من إسفنج، فخرَّ ساقطًا على الأرض فاقدًا لوعيه، وكأنَّه لا يريد أن يحضر الواقعة.. في اليوم التالي، وفي صمت جنائزي رهيب، التقيتُ هديلًا على انفراد.. وجدته مقرفصًا، كبوذي متعبد، عند قدم جدار أحد الغرف في الطابق الثاني من دارهم، لم يكن هناك أحدًا سوانا.. تقربتُ منه بحذر، مسدتُ شعر رأسه برقة، كأب وهو يرى ابنه منهارًا كئيبًا من الحزن في نهايته... سألته بصوت منخفض: ماذا دهاك يا صاحبي؟.. هكذا هي الحياة، وهذه هي الأقدار تغدر دون أن تراعي شعورًا أو ظروفًا تشجع قليلًا تماسك، ثم أردفتُ بعطف ملائكي.. كنت دائمًا أنت الذي تعظني وتنصحني وترشدني.. ماذا جرى لك؟.. عجبًا!.. زم شفتيه، ضيق ما بين عينيه

ولم يرفع رأسه نحوي.. تحاشى النظر.. بقي صامتًا كالتمثال، شعرتُ حينها أنه لا يحب الحياة التي أتحدث عنها معه، يمقتُ الأقدار وجبروتها، بل أحسستُ بإحساس غريب قاس، وقد صدق حدسي فيما بعد، لقد شكك بعدالة السماء!!.. ربما له الحق فيما ذهب إليه.

في ليلة ميلاد هديل، يوم خروجه إلى الحياة صارخًا يريد الحياة، في هذه الليلة بالذات وليستْ غيرها.. القدر لا يحب المزح إلا على كيفه، كان مزحهُ ثقيلًا لا يستوعبه عقل البشر أحيانًا!!.. الموت لم يختر يومًا آخر، بل أثبت عناده الصارم كالصخرة التي لا تتزحزح من مكانها، بعد أن أزمع.. أنَّه يريد يوم ميلاده ذكرى، تاريخًا لا ينسى...

في يوم ولادته، انفرط عقد عائلته، نهب الموت أحد خرزها الثمينة.. سعد، ذلك الشاب النقي، الشهم الذي لا يقبل أقل من الحقِّ نصابًا، خطفه القدر، أبعده عن أسرته وزوجته وأولاده وهو مازال في مقتبل العمر كزهرة لم تورد بعد.. فيا لظلم الزمان وغباءه!.. حتى تراءى لنا في لحظة يائسة بائسة أن الحجر بات أفضل منا؛ لأنه لا يحس أو يسمع أو يرى أو يتأثر!... لم تمضِ على وفاة أخيه سوى أشهر قليلة، حتى فاجأنا هديل بقرار سفره يريد أن يهرب، أن يعطي ظهره للذي نهب أخيه دون رحمة.. دون أن يسألهم.. دون أن يقدر ظروف أسرة أخيه الفتية وأطفاله الصغار الذين تيتموا وهم مازالوا في طور الرضاعة.. تغيَّرتْ ملامح صديقي بسرعة عجيبة، أصبح أكثر تجهمًا ونفورًا من الأشياء التي تحيطه والناس،

تفهم قليلًا عظمة الأقدار وسخف الموت وقسوته في نفس الوقت، فالإنسان لا يشعر بتلك الأحاسيس الدقيقة إلا حينما يقرص وتدميه بمخالبها.. قلَّل شكوكه تجاه عدالة السماء، اقتنع بالواقع وسلَّم بجبروت الموت الأرعن الذي لا يفرق كثيرًا بين طفلٍ أو شابٍ، بين كافرٍ أو مؤمنٍ.. تُرى أعزرائيل أعمى.. لا يستطيع أن يميز بين الفرد الطالح من الصالح.. أم إنه لا يقدر على الأوباش واللصوص وقطاع الطرق؟!، وفي النهاية قرر.. أخذ الأمور على علتها وتركنا مع مصائرنا، نتصارع مع أقدارنا مع مأساتنا التي كبرتْ وأصبحتْ كالجبال لا يمكن زحزحتها، قهرها أو التغلب عليها في بلدنا، في عراقنا.. تركنا ورحل دون رجعة.

طوى هديل الرسالة بهدوء دون أن يطرف، وقال محدثًا نفسه: يا لها من رسالة.. لها رائحة الشمع المحروق ونكهة القهر وغدر القدر!.. غير مبالغ فيها بل أكاد أجزم بأنها الحقيقة العارية من الكذب أو الرياء، وصلتني ـ هنا ـ في غربتي بعد أن بعد الزمن فيما بيننا وكاد يقارب العشرين عامًا.. قرأتُ هذه الشهادة ولم أتأثر كثيرًا.. أستغرب من تصرفه الشنيع غير المبرر!!.. قرأها بهدوء وكسل لا يتفقان ومحتوى الرسالة، كاد يجنُّ وهو يشعر ببرود قاتل لا يحرق داخله أو يلهمه.. قفز من مكانه كمَنْ قرصه عقرب فجأة وصاح: لأتصل بجبار وأساله عما يحدث لي.. وما الذي غيرني إلى هذه الحدود المريضة؟.. رفع سماعة الهاتف، وسأل: عذرًا، أنا هديل صديق جبار، أتحدث معكم من بلدي الجديد الذي اسمه غربة.. هل لي أن أتكلم معه؟

- سكون كصمت القبور، لا جواب سوى لهاث عميق طويل، حزين كالبكاء الأخرس...

- سأل مرة أخرى وبأعصاب متوترة مشدودة: مَنْ تكون أنت؟ أرجوك رد علي...

- ترددتْ، ثم همستْ بصوت نسائي مبحوح رقيق وتوقفتْ، لم تتابع مناجاتها، ربما فتحتْ جرحها الذي لم يندمل بعد، دون علم!، ثم سمعتُ حشرجة كلام غير مفهوم، لقد كانتْ تئن تنوح بصمت، بل لاذتْ بالصمت خجلة وهي تختنق بالعبرات، لا تريد الكلام.. ثم بعد وقفة انطلقتْ بعواء صارخ، وبكاء جاف.. بدائي.

- هوني عليك يا أختي، ردي عليَّ بهدوء دون توتر، مَنْ تكونين؟.. وأين جبار؟

- أنا زوجته، لقد تزوجنا قبل ثلاثة أشهر فقط.. ثم عاودها السكوت، وكأنَّه طبعٌ فيها!

حاول أن يكسر حالة الرهبة أو الصمت لديها، فقال: نعم.. وماذا بعد؟.. تكلمي أرجوكِ، فقد وصلتني رسالة منه للحين، قرأتها.. وأردتُ أن أتحدث معه قليلًا... وأشكره...

- أجابته بصرخة قاطعة كالسيف، برنَّة قاسية أليمة، زلزلتْ قلبه من مكانه، بذعر حقيقي بعد أن أبتْ الكلمات أن تفصح عن ذاتها قبل قليل، كانتْ قد انتحرتْ في فمها بل على لسانها... ثم تركتْ لنفسها حرية التمرُّد كما يحلو لها كرقصة مذبوح، فناحت قائلة: لم تعد تستطيع التحدث معه!!، لقد رحل جبار بعيدًا عني وعنك وعن

وطنه أيضًا، ثم أردفت من خلال دموعها (لقد شعر بدموعها وهي تنهمر).. لن يرى ابنه الجنين الذي زرعه في أحشائي قبل رحيله، لقد مات جبار ولم يعد له من وجود سوى ذكراه، كأشيائه.



حانة العمِّ مرزوق

لم يعرف العمُّ مرزوق في مقتبل حياته سوى الخمر والنساء، ذلك الرجل الذي لسانه تبرأ منه منذ زمنٍ طويل، لا ينفك عن القدح والذم والتهريج كبائع متجول!، وهو المميز بعلامة فارقة لا يمكن تجاهلها عندما تنظر إليه، فهو ولد بعين واحدة سليمة يرى العالم من خلالها، وعندما تغرّبَ مبكرًا لم يجد أمامه إلا أن يفتح حانة؛ ليمارس ما كان أصلًا قائمًا في حياته في العراق قبل غربته (التي يقول عنها تعسفية) إلى تركيا، وهناك مارس عمله الذي هو كل حياته ولا يعرف سواه، الخمر، لكن هذه المرة دون النساء.. بعدما هرِّم الرجل وهدَّه المرض والعرق.

افتتح حانته في المنطقة العربية المكتظة بالبضائع والسكان العرب وضجيجهم الذي لا ينقطع في مدينة اسطنبول القديمة.. تجدها مدفونة بين بيوت الحي، تقع على ناصية شارع فرعي يؤدي بدوره إلى شارع رئيسي ينتهي إلى مركز المدينة.. علق لوحة على واجهة الحانة وكتب عليها بكل فخر (حانة العم مرزوق) وبخط يد منحوس مخربش، وبالكاد كان يقرأ.. أبقى على جدرانها العارية الصماء التي تعكس وحشة خرساء مذبوحة أو مغتصبة.. عتيقة الطلاء، بعد

أن أبى تجديد دهانها.. أحضر بعض الطاولات الخشبية المستعملة مع ما يناسبها في القدم من كراسي، وظلتْ الأرض عارية من أيِّ غطاء سوى الخشب الذي ما إن تطأه الأقدام حتى يصرخ مهتاجًا وكأنَّه يتألم.. جعل الحانة محل لعمله ومكان لإقامته وسكنه، فلم يكن يغادرها إلا فيما ندُّر أو شذ أو في الحالات التي يحتاج فيها إلى شراء بعض ما يلزم من خمر أو(مزات) لإدامة عمله، الذي يقول عنه: مسل بائس ولعين في نفس الوقت، خاصة عندما تقوم بعض المناوشات الكلامية وتتطاير في الهواء الكلمات النابية الفاحشة بين جمهور الشاربين بعد أن يستولى الخمر على ما تبقى من عقولهم التائهة أصلًا.. وهو الذي يسقي زبائنه ويشاركهم الشرب.. عادة، رغبة، إدمانًا، إرضاءً ومجاملة في بعض الأحيان، وما إن يستمر بالشرب حتى يزداد لينًا، انشراحًا وتألقًا، فيصبح مزهوًا معتدًا بنفسه، وهو يردد مقولته التي يفتخر بها، نعم.. أنا أشرب العرق، لكني لا أسمح للعرق بشربي!؛ لذلك أبقى واعيًا ولا يتسرب الخدر إلى خلايا جسدي، ومهما أُكثر من شربه، لا يصل إلى حدود السُّكر الحمراء أبدًا.

طلع القمر في بهائه الساطع، والحانة من تحته تستحم بضيائه الناصع.. تقدَّم المساء المخترق للسكينة بسبب الأصوات العالية والمتداخلة خارج الحانة، واللغط والقهقهات التي تصدر من الداخل.. بعد أن اكتظتْ بالشاربين كالعادة، وبدأتْ الروائح الزنخة المختلطة بالعرق المتصبب من الأجساد والذي ينضح تحت الآباط

بشكل مفضوح وكريه، ودخان السجائر المتصاعدة تملؤ سماء الحانة الداكن، الغائم الكئيب...

فتح أحدهم باب الحانة الهزاز غير الطويل، ذا الطلاء الرمادي الغامق المتعفر، المتشقق والمقشر بسبب العتق والاستعمال وفعل السنين.. دخل بتثاقل وهو يغرز نظراته في الجالسين بفضول مبهم غريب، ثم التفت نحو إحدى زوايا الحانة المقابلة إلى ذلك الباب، الذي لا يعجز عن إطلاق الأصوات المتشنجة المقززة في كل مرة يفتح ويغلق فيها.. وهناك اتخذ مجلسًا من إحدى الطاولات الشاغرة، المحشورة في أحد الأركان حشرًا.. وجلس صامتًا وهو يترقب بحذر شديد وكأنَّه بانتظار إشارة أو أحد... كانتْ ملامح القادم الجديد الذي دخل لتوه مريبة بعض الشيء، إذ كان يتمتع برأس صغير، وأنف حاد، تنطق عيناه بنظرات ثابتة، قصير الشعر، غليظ الشارب، وملابسه لم تكن تدل على أنه من الميسورين أبدًا؛ وعندما طلب خمرًا يحتسيه.. كانتْ نبرته نبرة المجنون للعاقل، بعد أن تحير والتمع الدمع في عينيه ولم ينزلق، فظل محبوسًا في الأحداق... رفع الكأس وأخذ رشفة طويلة منه، ثم مسح شاربه الغليظ بظهر كفه وصاح بتجهُّم: ما هذا؟، وأردف مجيبًا مشفقًا على تساؤله، إنَّه ماء جهنم ـ وحق الشيطان ومن خلقه ـ ثم قهقهة، كمَنْ يستخف بمأساته وصمت؛ ليبدو وهو جالس كالمتشرِّد النائم على رصيف... بعد برهة من ذلك الصمت الأخرس، أفاق إلى نفسه وصاح بصوت جميل عذب وشجي بحيث يجلب الانتباه، وهو يصيح بعم مرزوق: أرقدش (كلمة تركية، تعني أخي بالعربية)..

هل لك أن تخبرني عن رحيم؟.. أين أجده؟.. ألم ترَه؟.. ألم يحضر إلى هنا؟، ثم تابع برجاء حقيقي وتوسل.. أنا بحاجه إليه كثيرًا، لم أعد أحتمل الصبر والحياة من دونه.. لقد تركني بعد أن تخاصمنا على مبدأ حياة الغربة وهرب.. ولا أعلم إلى أين؟!

- أجابه عم مرزوق وهو يقترب منه، حاملًا كأس العرق بيده اليمنى، ويركز النظر فيه جانبيًا لكونه أعور، وهتف: لطف الله، الرحمة واجب.. من أين لي أن أعرف رحيمك هذا؟!.. يا أخي، ومن ثمَّ أنا لم أتشرف بعد بمعرفته.. فكيف أستدل عليه؟.. ها.. السؤال الآن موجه لك، ومن حقِّك أن تمتنع عن الإجابة، ثم ضحك بتهكم!، ثم سحب كرسيًا مقابلًا له وجلس.

- ركز بنظره، وكأنَّه ينظر له من ثقب باب وبعد وقفة قصيرة، استعاد فيها هدوءه قليلًا، قال باستياء: يا إلهي، أمرٌ لا يصدق!.. كيف لا تعرف رحيم؟.. أنا أستغرب ذلك كثيرًا!!

- ومَنْ يكون؟!، ثم نبر.. بالتأكيد أحد الصعاليك الذين نراهم هنا وهناك يتسكعون في غربتهم بتركيا.

- صرخ به باستنكار كالمعتوه، وبصوت هادر مخيف وشجي في نفس الوقت: يا رحمة الله، أرجوك، سوس أولان (كلمة تركية تعني اسكت هذا عيب بالعربية).. لا تقل مثل هذا الكلام عن رحيم، ثم أردف بتماسك.. إنه فنان أصيل.. أقصد فنان بالفطرة مطربًا كبيرًا، يتمتع بحنجرة لم تصقلها الدراسة، إنها الموهبة الربانية التي قلَّ أن تجدها في شخص آخر.. ثم سعل قليلًا واستطرد مشفقًا على محدثه، خيبتْ آمالنا، أطال الله في عمرك يا... (ولم يقل اسمه)، وتابع دون

مبالاة.. كان رحيم مطربًا مشهورًا في العراق، وله معجبون كُثر لكنه كان صريحًا، ولا يحب التشوف أو المباهاة الفارغة، ولا التنازل؛ لذلك ظل بعيدًا عن الأضواء تلك التي تعرفها.. ثم واصل.. إنك صاحب حانة وتعرف ما أعني، أليس كذلك؟!

- رد عليه متحذلقًا وبلسان ثقيل قليلًا، بعد أن جرع ما تبقى من كأسه الخامس لهذه الليلة: نعم.. نعم أعرف كل هذا (قال العم مرزوق)، ثم سأله بتأنيب.. لكنك لم تقل لي بعد.. لماذا هجرك؟، وأنت تقول إنه أعز أصدقاؤك، وإنه شخص لا يهادن أو يهاب!!

- هذا هو السؤال الذي أنتظره، ثم باغته بقوله: جدد لي كأس العرق أولًا... وأنا أقول لك!، بل أنا لم آتِ إلا لأقول وأبحث وأجد رحيمًا...

ذهب صاحب الحانة لملء كأسه.. فسمع صياح جليسه ومن مكانه الذي تركه فيه، برعونة غير متوقعة من بقية الجالسين وبنفس الرنَّة الهادرة السابقة دون تردد: تلك هي المشكلة.. أقصد الغربة، الطقوس التي نمارسها دون احترام لذاتنا، ولأننا في غربة.. اختلفتْ أخلاقنا، كَثر كذبنا ورياؤنا، وأصبح مَنْ كان في العراق زبالٌ.. هنا طبيبٌ!، ثم هتف.. كيف لا نعلم؟!.. هكذا هي أخلاق الغربة، هراء لا تصدق كل ما يقال، ثم توقف عن الخطابة بعد أن بادرته نوبة سُّعال حادة استسلم لها، وفي هذه الأثناء حضر عم مرزوق وبيده كأسين ممتلئين بالعرق، واتخذ مجلسه أمامه.. في حين عاود صاحبنا الهتاف والتنديد قائلًا: إرادتي (أرقدش) اغتالها اليأس، بينما رحيم لم يستسلم فتركني.. ثم خفق ناطقًا أسيفًا.. تلك هي المشكلة..

أقصد أننا لم نتفق، فتركني وهو ملاك، وأصبحتُ أنا في نظره في شريعته وفي قانونه وعُرفه.. نذلًا، نزقًا أُعاني الأمرين بعد أن اختلطتْ عليَّ الأشياء وباتت كلها بلونٍ واحد.. وما كنتُ أراه صائبًا أصبح كفرًا، والحمامة التي كانتْ في حضني سلامًا تحولتْ فجأة إلى غراب ودون علم منِّي، بل تحولتْ إلى فسق زندقة وعدوان على نفسي والآخرين!!، ثم ناح.. وكما ترى بنفسك أُجالسك، أسكر معك، وكأنني أطلب التوبة على يديك!!

- ردَّ عليه عم مرزوق بعدم اكتراث وهو يدق كأسه بكأس جليسه نخبًا: أنا أتفهم وضعك يا أخي، ولكن لا تعذب نفسك هكذا!.. تجمل بالصبر، والغائب عذره معه ـ كما يقال، لا تيأس.. أرجوك، فاليأس هو الابن الشرعي للموت.. أليس كذلك؟، وتابع بحيوية نشطة (لا تعود إلى شخص شارب).. وأنا لا أراك إلا ابنًا للحياة.. اشرب، استمتع، تذكر كما يحلو لك، انسَ إذا أردت، ارقص إن شئت، غنِ إن أحببت، ولكن لا تيأس.. ثم دعا كمؤمن ـ قرب الله لقاءك بمَنْ تحب ـآمين رب العالمين (قال ذلك وهو يفتح ويغلق عينه اليتيمة بسرعة غريبة نزقة).

- أشكر لك عواطفك الصادقة (أرقدش)، ولكن- وهو يتلفتُ ويزر الآخرين بتلك النظرة الثاقبة المعتادة- ما هذه السهرة غير الماتعة، المعتعته الباردة التي لا تريد أن تنتهي.. ثم أضاف، ألَّا تجعل من العقل سلطانًا يذوب وهو يعاقر الخمر؟!

رد عليه أحدهم بصوت مقهور وقح، وكأنَّه مخذول من شيءٍ ما: ستنتهي وحياة أمك (ضجتْ الحانة بموجة ضحك متهتك)، ثم نبر

بلؤم.. ولكن بعد أن تجد صاحبك.. أقصد رفيق عمرك هذا الذي أصدعت رؤوسنا به، من كثرة ما رددته على مسامعنا، ثم ناح.. لقد أفسدت علينا طقوس ليلتنا ـ أفسد الله عليك لياليك جميعها- كُفْ وأعدل عن فكرة البحث على القليل هذه الليلة ، ثم شارك الآخرين الضحك، ها... ها... ها.

ـ أجابه صاحبنا منفعلًا مغتاظًا، وهو يلوح بيده بعد أن التمع ماء النشوة والغضب الزجاجي في عينيه: يا عدو الله، أنت... يا وجه الشيطان، يا سليط اللسان، أنت.. طائش، أرعن ولا يفرق بين الديك والدجاجة!، ثم أضاف.. جنوني أفضل من عقلك، وغروري أسمى من فعلك، وتفاهتي أجمل من فنونك، ضنفوس (كلمة تركية تعني خنزير بالعربية) زنديق، لا يعرف نفسه حتى وإن ظل ينظر بالمرآة عامًا كاملًا.. ثم تابع، أنتم يا أولاد السحالي.. أراكم تشربون الخمر كما تشربون الماء؛ كي تسكروا نشدًا للنسيان، وهذا يخالف وجهتي في الشرب تمامًا، فأنا أشرب كي أتذكر!! (ورجتْ الحانة بالضحك الصاخب من جديد)... فجاءه صوت قبيح من إحدى الزوايا التي لم يتعرف عليها: سلام يا نسيان، ثم أردف.. أنت قوَّاد وابن قحبه، والكل ـ هنا ـ يشهد...

ـ مرحبًا.. شهود سكتر (كلمة تركية فاحشة)، ثم عقب.. أتقصد هؤلاء السكارى شهود؟!.. ما شفاك الله من ورطتك اللعينة هذه إذًا!، وتابع.. أنت يا مسلولًا.. يا صلّا.. يا جسم فانيا، الموت سيكون نهايتك السعيدة ـ بإذن الله!، ثم همس في أُذن عم مرزوق وكأنَّه يسرُّ

ذاته.. أنا أرعن وأستحقُّ كل هذا العذاب.. أتعلم ذلك؟!، ثم سكت كراهب بوذي يتعمد في وحدته.

- أجابه صاحب الحانة مستدرجًا متملقًا، وهو يتظاهر بالعفو ويصطنع الكلمة والغفران: أوغلوم (كلمة تركية وتعني ابني بالعربية).. التاريخ يعيد نفسه، صالوما الداهية هي التي أدتْ بيوحنا إلى التهلُّكة!، والزمن عبرة، والماضي لا فائدة منه، ورحيمك هذا لن يظهر بسهولة خلافًا لما توقعتْ!؛ لذلك أقول: لا تتألم، اترك الأمر لصاحب الأمر (وبعد جرعة من كأسه)، تابع بحماس.. يا حفيظ جرب أن تصدقني، أو على الأقل أن تأخذ بنصيحتي، فالحزن كالابتسامة لا يمكن وصفهما بسهولة.. أعني ليس بالشيء الهين أن ترسم الحزن أو الابتسامة على الوجوه حتى وإن كنت رسامًا بارعًا، لذلك أراك تتعذب أمامي وتسكر، والذكرى - هنا - زمن فائت - كما قلتْ.. غير موجود، ونحن - هنا - لا نتعامل مع الأشباح إلا عندما نسكر!!

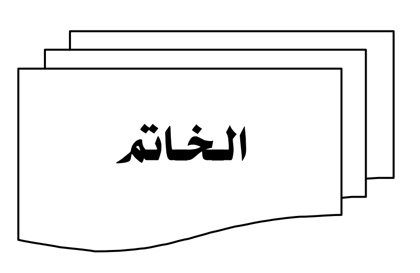
- رفع صاحبنا رأسه وصوب نظراته التي لا تخطئ كالسهم الموثوق منه.. حرك لسانه، وقال: جبر الله بخاطرك (أرقدش)، وما تقوله صحيح، ولكن.. كيف أشرح لك؟.. أقصد أن الغربة في جدال مع التناقض والأخلاق هي محور الحوار، والشخص الغريب في الغربة هو الخائن الخسران وإننا لا نعيش - هنا - على سجيتنا، بل نتصنع نموه ونميل إلى الخداع والتشويه والتحريف، ناهيك عن قسوة ومعاناة البعد والتشرُّد الذي نعانيه؛ لذلك أقول أن منطق الغربة في جدال أو صراع مع التناقض!، ثم صاح بحنجرته

العريضة الواسعة.. أتفهم ما أقول؟!، والدموع كانتْ قد غزتْ عينيه بسخاء لا حدود له وفجأة ودون إرادة منه.. راح يدندن بنغم شجي مؤثر رائع حميم أبهر الجالسين وهو يردد:

(حتى لو يجرحني حجيك بالفؤاد.. وحتى لو وشحنِّي حبك بالسواد.. وحتى لو ذاك الوفه وياك ما فاد.. أظل أشتاق إليك، مثل: العراقي الشغوف بغداد...)(*)، ثم جرع ما كان باقيًا من كأسه في جوفه دفعة واحدة، وناح.. رحيم، أين أنت الآن؟!.. أين؟، وصديقك مازال يسكر وفي مكانه يدور، وظل يدندن بذات الصوت الحزين العذب... في هذه الأثناء... دخل زبون جديد إلى الحانة، فزعق الباب الهزاز باستهتار صارخ بأن أحدهم شقها من الوسط!!.. نظر إلى الجالسين وهو يعاين المكان، وكأنَّه ينوي شراءه حتى عثر على صاحبنا الباكي الشاكي الذي كان غارقًا بالغناء... فصرخ القادم الجديد به فرحًا، غير مصدق: مَنْ هناك؟.. سلطان الطرب!، وأخيرًا وجدتك.. يا رحيم يا فنان يا ملهم، يا أصيل... توقف لحظة، بلع ريقه، لوح بيده وكأنَّه يرحب بالجالسين وصاح هاتفًا.. يا رجل لقد أتعبتنا، فمنذ الصباح ونحن نبحث عنك في كل مكان.. تقرب منه وهو يدعوه مبتسمًا.. هيا انهض معي ولا تجعلنا نتأخر أكثر، فالفرقة الموسيقية تنتظرك والمدعوون كذلك، وأنت هنا!، ثم استدرك ـ لا حول الله يا رب ـ ماذا أقول، ولمَنْ أشتكي؟!... توقف رحيم عن الغناء، اعتصم بالصمت ولاذ به كأنَّما يمثل طبع الحجر،

(*) مقطع من قصيدة.. للشاعر العراقي قيس كامل جودة السهيلي

الذي لا يعرف الشعور أو التأثر أو النظر، وينظر بالقادم وفي حال شبه غائب عن الوعي بسبب كثرة الكئوس التي جرعها، وهو يشعر بالذل والخيبة والهوان و عدم الانتماء؛ الانتماء الذي هو علاج لكثير من الأمراض في غربته القسرية التي لا تريد أن تحيه أو تميته، وهذا ما كان ينقصه.. فمرض بعد أن تخلى ضميره الحي الناطق الصادق عنه، وهو في أمس الحاجة لنقد الذات في سويعاته المقهورة الحزينة تلك.



في إحدى ليالي الشتاء الآسيوي، نهض العروسان ليرقصا رقصة جميلة تعبر عن فرحتهما في يوم زفافهما؛ كانتْ خطاهما محسوبة بدقة تمامًا كمشية الزرافة، انتصفَ الليل والجميع كانوا سعداء، الضحكات تدوي في أرجاء القاعة كما الصخب وبكاء الأطفال، المصور ينتقلُ جاهدًا؛ ليسجل ذكرى هنا وهناك، أما الأم فهي الوحيدة التي كانتْ ترابط كرسي العريس متمسكة بخشبه بقوة، كالبصير الذي يمسك عصاه، لكنَّ ابنها عادل كان ينظرُ لها بقلبٍ باكٍ، ويعطيها الحقَّ، فهو الوحيد الذي بقي على قيد الحياة مع أمه بعدَ أنْ تعرضَ منزلهم لقصف الطائرات أثناء الحرب، وبعدَ أنْ ابتلعتْ النيران التي أماتتْ زوجها وابنتها، فلم يبقَ لها في الحياة سوى هذا الأمل.. وها هو اليوم أمامها ينوي الرحيل الذي لا مفرَ منه، بعدَ أن حاولتْ جاهدة ثنيه عن ذلك وبعد أنْ باءتْ توسولاتها وذرف دموعها بالفشل، فقد كانا قد اتفقا على الرحيل بعدَ إتمام مراسيم الزفاف مباشرةً من أجل حياة جديدة في عالم أوسع، غير تلك التي تعودا عليها وعايشوها طوال تلك السنين.

هكذا كانتْ أحلامهم، وهكذا انكسرتْ الأم أمامهم، تدعو وتصلي تارةً، وترجو وتنتحبُ تارةً أخرى، وهي تدرك تمامًا أنَّ فراقه يعني الموت البطيء لها، ولكن حبها له جعلها تُخدر أعصابها ومشاعرها وتصبر نفسها بأوهام غير مرئية كأشباح ترقصُ في مخيلتها؛ لتجعلها تنسى، أو تتسلى؛ كي تتغلب على مآسي محنتها القاسية... نزعتْ خاتمها من يدها وهي ترتعش كحمامة مبللة، بعد أنْ تغلبتْ بصعوبة على ترددها وحزنها، وقالتْ لابنها هامسة والعبرة تخنقها:

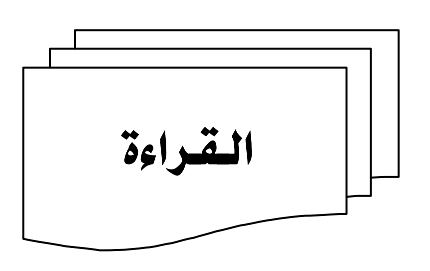
خذ هذا الخاتم الذي هو هدية من أبيك، لعلَّه يذكرك بي دائمًا في غربتك...

أخذَ عادل يدها وقبلها كما يقبل المرء كتابه المقدس، فشعرتْ بحرارة الشوق الذي سينخرُّ قلبها ورغبة عارمة في البكاء، ولكنها تماسكتْ.. فالوقت غير مناسب، فهمسَ بأُذنها، كرفة جناح فراشة، قائلًا في حب: أُمي يا فجرًا يطلُّ على ساحل بحري، يا لغزًا في قوافي الشعر، يا لحنًا سرمديًا.. إنكِ عظيمة، ثم قبلَ يدها بعد أنْ خانته دموعه التي انهمرتْ على خديه، وكأنَّه يريد أن يمسح الضيق من صدره.

كلُّ شيءٍ كان على ما يرام، فبدتْ الساعات الأولى عبر نافذة الطائرة التي يستقلها ـ لأول مرة في حياته ـ كأنها لقلق يحلِّق في رحاب السماء، لا تعرف سوى السلام والصفاء والنقاء.

نظرَ إلى الخاتم، فرأى لمعانًا غريبًا يشع منه،إنه طيف لصورة أمه تطلُّ عليه وتبتسم له، فقبله، وكأنه يقبلها.. ليسمع خفقات صوتها تناديه وتقول: اعتنِ بنفسك وبزوجتك، فأنا لن أعيشَ لكم إلى الأبد...

بعدَ عشر سنوات من الغربة حيث كان يتتبع أخبار بلده الذي تركه ومازال يسوده الظلام.. بل يزدادُ فقرًا وجهلًا، وفي زحمة أفكاره تلك اتصل بأمه، ولكن هذه المرة لم يسمع صوتها، رد عليه أحد الجيران، الذي اشترى منزلهم قبل وفاتها بثلاثة أشهر، بعد أن تركها تسكن معهم وفاءً للعلاقة التي كانتْ تربطهم منذُ سنوات؛ لحين رحيلها الذي جاء بعدَ أنْ جفتْ ينابيع الأمل في روحها... ترك سماعة الهاتف تهوي على الأرض، كالحجر.. وارتمى في حضن زوجته، وأخفى رأسه وسط صدرها وهو يردد بأسى: الأسطورة الخالدة.. معاني الأمومة.. ملامح الطبيعة كلها احترقتْ وأصبحتْ رمادًا باردًا.. تصوَّري فعنوان قاتلي وقاتلها هو نفسه لم يتغير (قال ذلك وكأنَّه يستجدي الطمأنينة)... همستْ الزوجة الأمينة بصدق وهي تتفحصه بنظرة ثاقبة حزينة ومشفقة: هون على نفسك ولا تقتل أحلامك، فوالدتك مازالتْ تعيش معك، ألم ترَ الخاتم المستقرَّ في إصبعك، إنَّه رمز لذكرى خالدة إلى الأبد.



القراءة

بدا شاكر شابًا لا يريد أن يكبر أبدًا، فهو كعادته مرح ومتفائل، وتعلو شفتيه المرسومتين بدقة رسام ماهر ابتسامة ساحرة وكأنها لنبي.. في صوته رقة ونعومة النساء وعذوبتهُنَّ، أصبح مع الوقت وبتقدُّم الزمن محط حسد أقرانه وجيرانه.

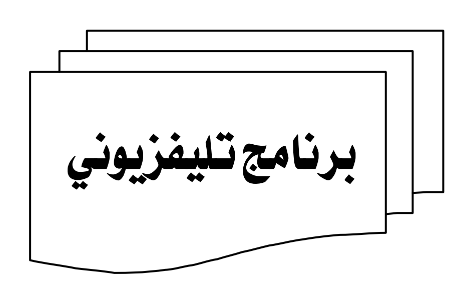
في إحدى الأيام مرَّ من دربهم وهو يمشي برصانة خارقة.. كأنه قائد لجيش منضبط، وإذا بهم يستوقفونه بلطف مصطنع، وهم يسألونه بكل جرأة: ما السر يا شاكر؟، فإنك كعهدنا بك منذ سنوات.. لم يتغير فيك شيئًا ألبتة، ونحن نكبر ونعجز ونشيخ وأنت لا يبدو عليك سوى نضارة الشباب وحيويتهم ونشاطهم ولا تملك سوى روح المرح وخفة الدم بشكل يلفت النظر والريبة!.

ألقى إليهم نظرة دافئة وكأنها آتية من قرص الشمس، وهو يجيبهم فقال: إنها القراءة!

فتسمرتْ العيون، وهي شاخصة نحوه باستغراب ودهشة وكأنَّ آذانهم ترفض التصديق.

شَعُرَ بهم وبما يجول في خاطرهم، فاستطرد بكل ثقة كالفيلسوف قائلًا: القراءة تجعل الإنسان منا يعرف الحياة.. وما يحيط بها..

أسرارها، تكوينها، غموضها، حزنها، فرحها وغايتها... ثم أردف بوقار: بمعرفتكم لها ستجدون أجوبة صريحة لا تقبل الشك أو الريبة لأشياءكم التي تجهلونها، عندها تنظرون إلى خبايا نفوسهم من خلال عيون الآخرين، ستحبون أعداءكم كأصدقائكم.. ستصنع أياديكم ما عجزتْ عن صنعه، وأنتم حاسدين شامتين لا تنظرون إلا إلى الآخرين، لقد عطلتم النبوغ الذي تمتلكونه.. وهو هبة من الله.. دون علم، واكتفيتم بالمراقبة ورصد حركات الناس ونسيتم أنفسكم!، ثم مرَّ سريعًا دون أن يلتفت وراءه؛ لأنه لا يحب النظر إلى الماضي أبدًا.



في بلد الحرية والسلام واحترام حقوق الإنسان، وجعل الأخير هو الغاية الأسمى في الحياة.. أُعلن عن مسابقة تليفزيونية ومنذُ اللحظة الأولى وجرس الهاتف لا يتوقف عن الصراخ! .. هناك الكثير ممن يريدون المشاركة في البرنامج، إنه خاص بتعارف الشباب فيما بينهم، مع تهيئة كل المستلزمات المطلوبة للنقل.. إلى ما شابه ذلك؛ ليكون عندها لقاء بين فتاة وشاب، وبعد نهار طويل من العمل المتواصل استقرَ رأي مُعدُ البرنامج على فتاة شقراء اسمها لويزا وشاب أسمر اسمه لويس، بعد أن اتفق الجميع على موعد يتمُّ فيه اللقاء في نهاية الأسبوع القادم عند الساعة العاشرة صباحًا، وينتهي بالذهاب إلى الاستوديو ليكون هناك حوار وإعلان النتائج... عند صباح السبت وفي تمام الساعة العاشرة صباحًا التقى كل من لويزا ولويس وحسب الاتفاق المعد سابقًا لهم.

يحيها باسمًا: صباح الخير.. يدنو منها ويقبلها سريعًا، ثم يبتعد قليلًا وينتظر.

ـ تغطي وجهها براحة يديها وكأنها تغسلهُ، وهي تخفض بصرها نحوَ الأرض بخجل، فتقول: صباح النور، ثم تبتسم وكأنها تريد إقناعه.

ـ ما رأيك لو نذهب إلى ساحل البحر في رحلة، فأنا منذُ مدة لم أذهب هناك؟

ـ تجيبهُ قائلةً: يسرني هذا جدًا.. بينما تتشجع قليلًا، فتسأله بغنج العذراء: ما هو عملك؟

ـ بوجه ضاحك وكأنه يريد أن يبوح لها بنكتة، قال: رسام كاريكاتير، ويردف.. وأنتِ؟

ـ بائعة ورد.

ـ يبادرها القول بخبث الرجال.. لذلك تفوح منكِ رائحة زكية تسحر كل مَنْ يقترب منكِ!

ـ هذا يعني أنني الآن ساحرتك (ترد عليه لويزا وتستطرد) لا تبالغ، فالورد نشمه للحظة وبعدها لا يبقى عبقهُ متعلقًا، ولا تحاول خداعي بكلماتك اللذيذة هذه!

ـ ينظر لها بوجل، وهو يسألها: هل تحبين شرب الكحول؟

ـ أبدًا إني أمقته أكرهه، بل ألعن الذين يشربونه (تقول ذلك بينما يحمر وجهها دون شعور وكأنَّها تقول الصدق من أعماق قلبها).

ـ هل تحبين الرقص مع شرب الكحول؟

ـ لقد أجبتك عن الكحول.. فلماذا تكرر السؤال؟، ثم تشرع.. قلتُ لكَ لا أحبه، أما الرقص فأعشقه ولكن لكل مناسبة وقتها.. تتحدث معهُ

وهي تمسك يده بقوة، وكأنها لا تريد أن تفقده!، ثم توجه له سؤالًا لم يتوقعه.. ماذا يعجبكَ في المرأة؟

- هدوؤها، جمالها، مكرها، وحسن تدبيرها للأشياء، ثم صدقها(قال كل ذلك ببراءة شديدة كتلك التي يتمتع بها الأطفال دون سواهم).

ـ تقاطعه متسائلة باستغراب.. ماذا تعني بالمكر هنا؟

ـ يجيبها برصانة كوزير في دولة: المكر هو الاحتياط من الغدر، التفتح قبل البلوغ، الرؤيا في الظلام، الذكاء والفطنة.. ثم تابع بجد وكأنه يريد أن يوقع عقدًا مهمًا بعد أن شمَّر عن ساعديه... وقد يكون سر جمال المرأة وما يميزها عن الرجل.

- بعيون واسعة مفتوحة.. تسأله مجددًا: وما هو سر الجمال في عُرفك؟

- الوضوح، احترام الذات، وقد يكون الإيمان بالرب (يجيبها بتمهُّل شديد وكأنه يقصد إثارتها).

ـ تردُ عليه بذهول، وهي تردد أنا لم أسمع من قبل أنَّ للجمال مواصفات كهذه!!.. ثم واصلتْ، إني أستغرب حقًّا من كلامك ومن تعريفاتك هذه الغريبة.

- ماذا تريدين أن تقولي؟.. يسألها بحزم.. هل إني شيطان أم ملاك؟

- ملاك... لا، والشيطان كذلك... لا، بل أنتَ مزيج منهما.

ـ يهاجمها بالكلام سريعًا وكأنَّه يريدُ إحراجها.. فصاح، الإيمان هو سر نجاح الإنسان وعطاؤه، أما فيما يتعلق بذات الإنسان وعلاقتها بالكون فإنها أمور ارتجالية يمكن ابتكارها أو تحويرها أو حتى

اكتسابها كالوراثة، فمثلًا: الثقة أو لأقل الصدق.. فهو كالماء، ثم يسترسل في شرح نظريته كالعالم، فيقول موضحًا: دون الصدق تكون الأرض كالغابة المتروكة، شائكة لا يمكن السير فيها بأمان، وتابع بعد أنْ خففَ من لهجته الجادة وكأنه شعرَ بأنه قد قسى عليها، فقال: حتى الصدق يبقى شيئًا نسبيًا وليس مطلقًا، لكنه يبقى أساسيًا في حياتنا، ثم يباغتها وكأنه محاور في ندوة.. تصوَّري أنَّه لا وجود للصدق.. فهل يمكن لنا الآن أن نتحدث أو حتى نلتقي؟، فلولا وجود الصدق لما أنجبنا أولادًا أو كونا أُسرًا ومجتمعات، ويكمل بصدق.. هناك حدث معروف شرع به علي بن أبي طالب لشخص غير صادق ومشهور بكذبه: " إذا استطعتْ لليلة واحدة أن تفعل كل ما ترغب، وأن تأتي بكل فاحشة، ولكن نراكَ غدًا وسط الناس ونسألك عمَّا قمتْ به وما اقترفتْ يداك، وما عليك إلا أن تجيب بالصدق.. ذهب الرجل وهو يحاول أن يفعل كل ما هو غريب وشائن، لكنه لم يستطع أنْ يفعل أيَّ شيئًا فاسق؛ لأنه سيسأل غدًا أمام الجميع وعليه أن يقول الصدق، فلم يزنِ ولم يسرق ولم يشهد زورًا وطبق كل الوصايا التي أتت بها الأديان دون أن يعلم"، ثم يستمر بالحديث دون أن يأخذ نفسًا، فيقول: انظري، لقد عاشَ الرجل ليلة شريفة؛ لأنه لم يستطع أن يكذب!!

- بذهول... أنتَ دائمًا تذهب بعيدًا بتصوُّراتك، وأعتقد سبب ذلك كثرة قراءاتك، أليس كذلك؟

- (بخبث).. تقصدين ـ هنا ـ إهانتي أم تهنئتي؟

تجيبهُ ضاحكة وهي تضع يدها على فمها وكأنَّها تحاول أن تخفي شيئًا، وتقول: لا... لا أقصد مما تقول والله، ثم أردفتْ بلطف .. كل ما في الأمر هو أني أردتُ القول: أنَّ الإنسان جاء بطبعه مخربًا، متذمرًا، مراوغًا، حقودًا ومذنبًا، فلا يمكن لكَ إقناعي بعكس ذلك، بادعاء الصدق والإيمان والرحمة.

ـ أنا لا أنكر أنَّ الإنسان جاء وجلب معه عداءً مخيفًا كبيرًا وكثيرًا، ولكل ما يحيطه أو يتعايش معه، ولكن بجانب ذلك كلَّه كان هناك نصف ما وصفتيه هو جانب الخير والجمال والحكمة والتقوى.. فلكل عملة وجهان، وبعد كل ليل نهار، ولكل جسم ظل وهكذا.. فلا يمكن لنا أن نقول: أنَّ في الطبيعة فقط اللون الأسود، لا يمكن أن نسلم بذلك أبدًا ونحن نعرف مسبقًا أنَّ للطبيعة سبعة ألوان أساسية، وبخلطها يمكن أن ننتج عشرات الألوان المختلفة منها... في هذه الأثناء كانا يقتربان من ساحل البحر.. الجو كان دافئًا، لطيفًا، مريحًا ومنعشًا، والرياح تسامر الشعر وتلعب معه حتى يتخيل للمرء أنَّ الأجواء الجميلة، كانتْ على استعداد أنْ تعطي للوجه لونه، وللابتسامة صورتها، وللضحكة صوتها!... نزلا إلى البحر بملابسهما، حيثَ حاولا معًا ألَّا يكون هناك عائق دون تحقيق رغبتهما في التعارف الذي قد يأتي بنتائج إيجابية على حياتهم لاحقًا، ثم أبدى لويس رأيًا بأن يذهبا إلى مرقص صغير يطلُّ على البحر ليحتسيا الشاي أو القهوة أو العصير... أبدتْ لويزا موافقتها، فاتجها إلى مرقص الخيمة الذي اعتاد لويس الذهاب إليه حينما يشعر بحاجته إلى الانعتاق أو الخروج من الروتين اليومي... جلسا

ثم طلب لنفسه كأسًا من النبيذ ولها كأسًا من العصير، ثم قاما ليرقصا، وبعد فترة من الزمن.. قالتْ لويزا: أنا أشعر بالتعب قليلًا، وأرغب في الجلوس... (لويس وهو مندمج معَ الموسيقى والرقص) أجاب منتشيًا: أريد الاستمرار، فأنا أحسُ بسعادة كبيرة تجعلني أواصل الرقص برغبة واغتباط، ثم نظر حوله فرأى تارا لوحدها، إنه يعرفها منذُ أيام الجامعة... فرحبَ بها ودعاها للرقص، ثم ظلا هكذا وكأنَّهم في حفلة زفافهم... إلى أن خرجا (لويس ولويزا من المرقص) .

حان وقت الحضور إلى الاستوديو...رحب معد ومنتج البرنامج بهما، ثم سأل لويزا عن شعورها أو انطباعها عن لويس... رفعتْ رأسها وكأنها تريد أن تنادي أحدًا، وقالتْ: إنه شاب ظريف، مريح، هادئ ولديه تصوُّرات خاصة عن الحياة وعن الكون وعن الإنسان بشكل خاص(توقفتْ برهة)، ثم أردفتْ.. لديه جرأة بسيطة، ويعيد السؤال الذي يدور برأسه مرتين كالصدى؛ ليتأكد من الجواب أو ليؤكدهُ لنفسه!.. أي بمعنى آخر يريد أن يعرف إن مَنْ حوله جادًا، ويعمل ما يطلب منه.. باختصار إنه شاب لديه رؤيا متحضرة عن الأشياء التي تحيطنا، وإذا سألتني عن مدى إعجابي بذلك، أقول: إني متفائلة، حذرة وأسعى إلى الوصول إلى هدف قد يكون وهمي، لكنه يبدو حتمي.. بعد أنْ استدارتْ نحو لويس وهي تزر عينيها له وكأنها تغازله... فاتجه مقدِّم البرنامج نحو لويس وسأله مازحًا وهو يبتسم: ها... ما رأيك أنت يا بطل؟... (يعلو على وجه لويس تعبير طفولي وهو يجيب) أنا أحبُ الرقص وقليلًا من شرب الكحول،

وهي لا تحبُ ذلك وهذا عكس رغبتي وليس في حساباتي الارتباط بفتاة لها طبيعة كهذه، ولكن ورغم ذلك فإني أقبلها؛ لأني أبحث عن الشخص الآخر الذي ينقصني، الذي يذكرني بأخطائي عندما أخطئ، الذي يجعلني طفلًا حينما أريد، ورجلًا حينما ينبغي ويجب، ثم صرح بفرحة عارمة كالثمل: أنا أحبها، وأرغب بالعيش بسلام معها تحت سقفٍ واحد.

وقف جميع الحاضرين، وقامتْ لويزا وعانقته وسط ضجة عارمة من التصفيق... وفي هذه الأثناء فتحتْ سالي الباب على زوجها طوني، لتجده مازال ساهدًا يكتب، فبادرته بالسؤال سريعًا كالرصاصة.. ماذا هناك شيءٌ جديد؟!

رفع بصره وكأنَّه يدعو الله، وقال: خذي هذه الأوراق.

بدأتْ زوجته تقرأ بنهم كالجائع.. قصة قصيرة بعنوان / برنامج تليفزيوني.. بينما جلس طوني صامتًا بعد أن بدا عليه التعب والإرهاق والساعة قد قاربتْ الثانية عشر، منتصف الليل، ثم سألته:

لنذهب الآن للنوم فالوقت قد تأخر، وغدًا سأعطيك رأيي بما كتبتْ.

- قال لها صارخًا وكأنَّه لدغ من نحلة: ماذا... غدًا؟!

- بحزم وبخبث، كعادة النساء في مثل هذه الأوقات، همستْ: أطفئ الأنوار وتعالَ بجانبي، أريد أن أحسب دقات قلبك كي أغفو...

وكان لها.



على ضفاف نهر الأردن

قتلتُ في المقهى، نصف النهار بجلستي المعتادة شبه اليومية.. مع صديقي الذي يلازمني أينما أكون (الكتاب) وقهوتي التي بردتْ بعد أن نسيتها بذهن شارد، وبلب مأخوذ، وبلون مخطوف، شاحب كلون الكستناء، وأنا أتأمل الحياة والكون صامتًا سارحًا كالمسحور في عالم قديم، يعود إلى زمن يوحنا المعمدان، الذي التقيته بعد أن سألتُ عنه بعض المارة وقسمًا من الكهنة الذين رأيتهم في الطريق بالصدفة.. فأشاروا لي حيث يكون موجودًا، على ضفاف نهر الأردن وهو يعمد التائبين ويطهر قلوب الحاسدين، الخاطئين فرادى وجماعات.

كان الهواء حارًا، ممزوجًا بنسيم لطيف رطب.. ابتعد بنا النهار قليلًا، اقتربتُ منه رويدًا، كما يتقدم ميل الدقائق في الساعة، مترددًا وخائفًا.. لم أتمالك نفسي، فهيئته كانتْ تدل على الصرامة والوقار، انظر إليه بذهول وانبهار.. في صوته رخامة، وفي حركته وسامة ورزانة، وفي طلعته صورة حمامة... له عينان ناطقتان تشعان رحمة، تخاطب الجموع بلا لغة أو إيماءه، تزران وكأنهما تتحدثان، فتعطيانك شعورًا بالأمان دون سؤال أو حرمان... قوي البنية،

مفتول العضلات، عريض الصدر، فارع الطول، ولحيته التي غزاها الشيب الفضي البراق سريعًا رغم عمره الذي لم يتجاوز الثلاثين بعد، يرتدي اللباس الأبيض الناصع كالثلج، وهو يردد بصوت مسموع هادر أحيانًا، وهامس في أحيان أخرى وكأنه يخاطب الجموع بصوت جهوري حينًا ويسر نفسه حينًا آخر، والناس من حوله فرحين، مغتبطين وكأنهم غير مصدقين أنهم في حضرة يوحنا المعمدان، وإذا أردتُ أن أصفه بدقة أكثر، سأقول دون رياء أو مبالغة، رأيته خليط من طبع (فينوس) مانحة الحب والحياة، وبين (أبلولون) مانح الفن والفكر (الآلهة الإغريقية القديمة)... رغم ضخامته وقوته كان يتحرك بخفة الهواء، ورقة النسيم في حين تنطلق منه رائحة زكية فيها عبق الشذا، وعصير الريحان، أرهفتُ السمع، فوصلني صوته الملائكي، وكأنَّه لحن موسيقي عذب.. وهو يردد بين جموعه المتجمعة وهو مازال غائصًا حتى ركبتيه في الماء، سأقطع جذع الشجرة، إن كانتْ لا تدر ثمرًا وأرميها إلى الأتون دون رحمة، واستطرد.. حاجة الجاهل إلى الحكمة، كحاجة الأعمى إلى المرآة!!، وأطلب منكم ألَّا تهادنوا أو تتمهلوا في الحقِّ أو على حسابه رغم وعورته، وصعوبة ارتقاء ناصيته، وطريقه العالي الطويل، وألَّا تفعلوا ما يأمرونكم به أولئك من أبناء الأفاعي.. احرصوا على وعدكم الذي على أنفسكم قطعتموه، إياكم والكذب، فالكذب رأس المعاصي كلها، وهو سيِّد الشياطين.. ثم انتبه إلى وجودي، فاستغرب من هيئتي وهندامي الغريب عليهم، وربما لمح خوفي وتجهمي وترددي.. فالتفت نحوي

وسألني مباغتًا: أشعر بأنك من قومي وعلى ديني، أليس كذلك؟!... أذهلتني فراسته، سرحتُ قليلًا، ثم قلتُ وأنا بالكاد أستطيع أن أجد الألفاظ: كيف عرفت؟

- دمك الذي أراه يسري في شرايينك، ولون سحنتك، هما اللذان أوحيا لي بذلك!!

- قلتُ بتفاخر حميم: صدقتْ.

- ارتسمتْ على وجهه، ابتسامة عذبة ساحرة، وكأنها تعود إلى الشمس!.. وسألني بجد: هل جئت كي أعمدك؟

- ليس قبل أن أتحدث معك قليلًا.

- عن ماذا؟ (قال ذلك وهو يهم بالخروج من ضفة النهر، بعد أن أنهى تعميد كل مَنْ حضر)

- باندفاع أجبته: عن ما تفعله.. وسأحدثك بدوري عمَّا آلتْ إليه الأمور من بعدك!!

- بوقار وصدق همس: اتفقنا، ثم أردف.. فأنا أتوق لمعرفة أخبار أبناء جلدتي وما هم بفاعلين!!، وتابع بتواضع عجيب.. انتظر برهة هنا، وسأكون جاهزًا بعد حين (واختفى بين الأحراش والأعشاب التي كانتْ تضلّل ضفة النهر)... ظهر ثانية، بنشاط وهمة وحيوية، كأنما لم يدخل الماء من قبل، ولم يعمد كل هؤلاء ممن حضروا للتطهير والتعميد على يده المقدسة الرحيمة.. وهو يسير بوقار وهيبة وبخطى رشيقة وئيدة، وكأنَّه ظل الله على الأرض، أو قبس منه.

جلستُ على الرمل المستوي الناعم، الذي تلألأتْ حباته نتيجة سقوط أشعة الشمس المنكسرة عليه فبدا كالزجاج.. ارتقى يوحنا صخرة كبيرة نائمة، مطمور نصفها في الرمل، تلك التي نحسدها لأنها لا تتأثر، ولا تهمها حياة أو موت! قُبالتي، وقال برنَّة فيها خشوع وهيبة: سل، ما جئت من أجله!

- ركبني الارتباك، وعقد الخوف والتردد لساني، ثم كسرتُ حاجز الخجل والرهبة بدافع العلم، وقلتُ سائلًا: لماذا أنت هكذا؟.. لا تجامل أو تهادن، تعشق الصرامة، وتكره السلطة، تحب الحركة وتنبذ الرتابة، لا تسكت على الباطل، ولا تدافع إلا عن الحقِّ.. وأضفتُ، ألا تخشى البطش؟!.. أقصد الموت على يد الملك هيرود، مثلًا!!

- ضحك بفرح مسحور، وأجاب: أراك صافي النفس، كماء النبع.. ثم استدرك.. الخوف والموت يولدان مع الإنسان ويكبران معه، وما من قوة على الأرض تستطيع أن تفصل الإنسان عن هذين الماردين أبدًا.. وتابع بعد وقفة.. يا أخي، يا أحد أبناء جلدتي الطيبين، تُرى.. لماذا الخوف من الموت؟!.. أليس هو الجزء الآخر من الحياة؟!.. أعني الجزء المكمل للحياة، فلماذا نهابه أو نحسب له حسابه؟، وتابع بعد لحظة سكون: مَنْ ذا يستطيع أن يتلافى الموت أو يدفعه عنه، إذا أتى؟!.. فموعده موقوت، وحينه محسوب ومقدر، وكل شيء في أوانه جميل!، رغم اعتراضنا غير المقبول وغير المبرر عليه في بعض الأحيان؛ لمجيئه المفاجئ والذي لا يروق لنا نحن - البشر الفاني - ولكن هذه هي فلسفة الحياة والموت وسر عظمة

الكون وإرادة الله التي لا تقهر، ثم أضاف بزهو، والموت من أجل قضية ما عادلة، يكون الحياة بأسرها لا تعادل تلك الوقفة أمام الظالم، القاتل، وهو يعلم بأنه سيقتل ورأسه منتصبًا وقلبه لا يخفق إلا بالحقِّ والاعتداد والسمو؛ لأن التاريخ سيخلد مَنْ سار على هذا الطريق الوعر.. وأمثلتي على ذلك كثيرة، وبالتأكيد قد قرأتْ عنها أو سمعتْ بها، ثم فاجأني بسؤله: ألم تقل بأنك جئتْ من المستقبل لتراني؟!.. إذًا أنت تعرف الآن أكثر أسراري.

- أجبته سائلًا بذهول (نظرًا للغة التي كان يتحدث بها، والطلاقة التي كان يتمتع فيها) : اختلفت الروايات بذكر شخصك وشأن حياتك، كما أن هناك ملل وطوائف (توقفتُ للحظة)، ثم أردفتُ.. لأكون صادقًا صريحًا معك، هناك ديانات تقول بأنك رجلهم!!.. وتمادوا حتى باتوا يقيمون احتفالات سنوية لذكراكم!

- زرني بنظرات عميقة أطرق قليلًا، وقال برقة ظهر فيها الجد والاعتداد سيدًا: هذا ليس بصحيح.. فأنا لي تلاميذي الذين عمدتهم، وأخذوا عني الحكمة والفلسفة التي سيزرعونها في أجيالهم من بعدي، وهم لا خوف عليهم ولا أنا بحزين، ثم استطرد بخفة وسلاسة.. الدين رسالة، والرسالة لا تموت.. وتلامذتي هم الذين سيحملون رسالتي من بعدي، ويؤمنون بتعاليمي خلقٌ كثير، وسيتوقف التبشير فيما بعد، ولكن سيأتي اليوم الذي يبدأ فيه الكسب من جديد، ولكن بشروط قاسية، وربما تكون موجهة فقد إلى الذين ضلوا طريقهم وانسلخوا، ولكننا سنحميهم ونرجع إليهم أبصارهم

من بعد عمى وضلال، وإننا من ذلك لمتأكدين، وستعلم ذلك في حينها وتقول: كنا من الصادقين.

- اعذرني على أسئلتي المحرجة، ولكني لم آتِ إلى هنا وأسأل عنك وأتحمل عناء وشقاء السفر، إلا لكي أعلم وأحصل على المعرفة التي تجعلني أتسلح بها وأُواجه فيها أعدائي، ثم تابعتُ بسريرة متعبة متشنجة مهزوزة، مختلطة بين شعور من التفاؤل والشك وبين إحساس مر سقيم من السخط والإهمال، نحن اليوم في حيرة من أمرنا، كمَنْ أضاع الطريق في مجاهل الأرجاء دون رجاء، ولا نعلم عن ماهيتك الكثير، حتى أسرتك، بما فيهم أولادك نجهلهم تمام الجهل، كما هو مولدك وسيرة حياتك.. كلها أمور نشقى من أجلها ونتعذب بسبب غيابها عن معارفنا وإدراكنا!!

- رد بصوت، ارتجفتْ له أوصالي، واهتز قلبي من مكانه: لا تقل مثل هذا الكلام، فديننا الصابئ المندائي حي قيوم، خالد لا يفنى أو يزول، تعاليمه صريحة، ووقعها على النفس مريحة، لا تحب التأويل وتدعو إلى السلام وتتأمل الطبيعة وتحترمها كما تقدر صدق ونقاء سريرة الإنسان؛ ما فيها نشاز أو ظلم أو هوان.. ثم أطرق ورأسه يتجه إلى السماء وأردف.. ولكن حياتي وسيرتي هي ثوابت عليكم أن تعلموها، فلماذا هذا التخوف أو التهاون في شأنها؟!.. إذ ما من رسول أو نبي لا تعرف سيرته، وتحكي بطولاته ومعجزاته للأجيال من بعده، ناهيك عن حكمته وفلسفته.. إذ يجب ألَّا تصمت الألسن من ترديد اسمه.. فكيف هذا الذي تقوله؟ إني مستغربٌ حقًّا!!، ثم عدل من جلسته وهندامه وهو مازال يعتلي الصخرة

النائمة الغائصة في الرمل حتى منتصفها دون أن تنزعج من حديثنا الناري هذا، وأردف منزعجًا.. عجبًا، أليس هناك سيرة حقيقية واقعية تجسد حياتي وتتحدث عن أعمالي؟!

- حسب علمي، كلا.. قلتُ له باستحياء وخجل، واستطردتُ بذات الشعور.. وإن وجدت، فقشرها خيال ولبها أسطورة!!

- سرح في رحاب ليس لي علم بها، ثم حول رأسه نحوي وسألني مستدرجًا، بانكسار وضيق وهمٍّ: أنا أستغرب حقًّا لما أسمع، إنه أمر لا يصدق مخز، لا يستسيغه العقل ولا يرضى به الناموس، ثم تابع:

هل هذا هو قدري؟.. وما كتب الله علي أن أحيا محاربًا وأموت فينسى أهلي قصتي وحياتي وتضحيتي!، وخفض رأسه وأماله على كتفه، مغمومًا وكأنه يريد النوم أو الاسترخاء.. فهو لم يتعب ولم يجهد عندما عمد العشرات قبل قليل.. لكنه أحس بالهوان والعذاب، عندما صدم بمعرفة الحقيقة المخجلة التي نعيشها نحن أبناءه من بعده، الذين نجهل أبجدية سيرته الخالصة الدقيقة العارية من المبالغة، فآلمه ذلك أشد الألم.

- شعرتُ بأنني قد قسوتُ عليه حتى أصبته في نخاع العظم بمأساتنا المريضة المستفحلة!، فواسيته بكلمات لم أجد لها معنى عميقًا لكن الموقف كان صعبًا، والحديث فيما بيننا قد تطور حتى الشعور بالحزن والألم، وهذا لم يكن في حسابي، ولم أذهب بشأنه، فصرحتُ له عن وجداني بشكل مكشوف مفضوح، وقلتُ: أنا أذكر لك فقط، ما نحيا وما آلتْ إليه نفوسنا من بعدك، أرجو ألَّا تتضايق مما تسمعه منِّي، فأنا لم آتِ إلا من أجل المعرفة والعلم بالشيء، بعد

أن صعبتْ وضاقتْ بي سبل الحصول على المعلومة الصحيحة، ولو وجدتها في حياتي وأرضي التي أحيا فيها، ما كنتُ قد فكرتُ بإزعاجك لأفرض عليك الاستماع لفضولي، وربما لتفاهتي!

- بوجل وتعاسة سألني: وماذا بعد؟، ثم أضاف بعد أن بان القهر على محياه، حدثني قليلًا عن حياتكم.. هل مازلتم تحبون بعضكم البعض؟.. هل مازالتْ الطقوس والمراسيم تتبع؟.. هل هناك قيادة رشيدة حكيمة تجمعكم؟.. هل تسكنون في بقعة واحدة من الأرض؟.. أم هناك أمور لا تحب أن تحدثني بها؛ لأنك ربما تشعر بأنها ستضايقني، وتجعلني غير سعيد حتى بعد مماتي!

- ماذا أقول؟!.. ترددتُ وأنا أشعر بالعجز، حيال مثل هذه الأسئلة.. ففضلتُ الصمت والسكوت.

- لماذا لم تجبني؟، ثم أضاف.. لقد أقلقتني عليكم حقًّا!!.. أرجوك قل كل ما يدور في عقلك هذا المتفتح الذي أراه مثالًا للصدق والوفاء، فأنت وكما قلتْ لم تشقَ في المجيء إلا من أجل المعرفة، وهذا بحد ذاته أمرٌ هام خطير الشأن، له دلالات عميقة ووقع عظيم في نفسي، ثم نبر.. قل ولا تخف.

- غمغمتُ ساهمًا خجلًا: في الحقيقة.. أقصد أمورنا تسر ولا تسر!! تفرقنا في أرض الله الواسعة غير أرض أجدادنا سعيًا لحياة كريمة، حيث السلام والحرية واللقمة النظيفة.. ولكن زاد النفاق وطغى على السطح بشكل بشع، كشيطان مخيف بمخالب نسر شرس جائع، قلَّ التسامح فيما بيننا، وتكدرتْ الألفة وبات الحب يختنق بالعبرات وهو يودع نفوسنا... ولم أنبس بعدها بكلمة أخرى، بعد أن شعرتُ

بأن قلبي يعتصر وروحي تحتضر، ففضلتُ الصمت عن النطق والتبحر، وامتنعتُ عن الحديث مرة أخرى حبًا لشخصه الكريم العزيز، وخوفًا عليه من الضيق والكدر.

- همس يرجوني لمواصلة الحديث، وهو يقول: يا بني، ما ستقوله لي الآن سأفكر في أمره، وربما أُعطيك نصيحة أو أقول لك ما ستفعله وتنشره بين أخواتك وإخوتك في العهد.. ثم أردف.. قل ولا تجعلني أكرر طلبي أكثر من مرة.

- خرج الكلام من فمي منتشرًا كرذاذ الذي يعطس، فقلتُ: تبعثرنا، وتقطعتْ فينا سبل التواصل والاندماج، إلا بشقِّ الأنفس.. اختلفتْ لغاتنا، وبات أولادنا يرطنون بلغات عدة، ليس هناك سبيل من توحيدها.

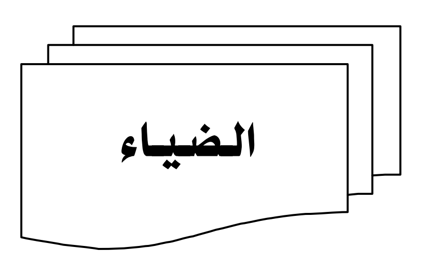
- قال كالمخاطب نفسه: سوف لن تتوحدوا إلا باستقراركم في أرض محددة محايدة واحدة كوطن أم آمن، عندها فقط تستطيعون أن تزرعون في أبنائكم مع يصعب عليكم زرعه وأنتم متفرقون هكذا، كشعب طرد من دياره!!.. ثم حدقني بنظرة متسائلة، حادة وأردف: ما المانع من هذا التجمع؟.. أليس لكم قيادة تقوم بعمل ذلك؟! على الرغم من صعوبة الموقف وكما فهمتْ، لكن ليس هناك شيء مستحيل، والمحاولة لابد منها خاصة عندما يتعلق الموضوع بأبنائنا، حملة راياتنا وعصارة فكرنا، والأجيال هي الجسر الذي يعبر من خلاله الدين إلى ما شاء الله له أن يحيا.

- أجبته بجد وصدق: لنا قيادة حكيمة رشيدة.. وما تقوله عين الحقِّ والصواب، ولكن صعوبة الأمر، وتشتت أبنائنا زاد من الأمر

سوءًا، ثم ملأتُ عيني من رؤيته وأنا أطوف بسماء محياه، واستطردتُ بحماس منفعل: المشكلة هي الرعاية الموجهة المفقودة، أقصد عدم وجود المؤسسات التي ترعى الأدب المندائي، وتدعم البحوث التي تنور الناس بثقافة هذا الدين المعرفي العظيم، وعدم وجود دور ترعى الثقافة والفن والفنانين المندائيين الذي يتوجب احتضانهم ورعايتهم.. كأن تكون هناك دور للنشر، أو مطابع تتابع الحركة الفنية والثقافية، وكل ما يغني الفرد المندائي ويزيد من وعيه وإحساسه وشعوره بنبض الحياة وهي تدق في قلبه.. كي يشعر بانتمائه، ويعتز ويفتخر بدينه وقومه.. ثم نوهتُ حزينًا، قائلًا: لكنني سأوصل لهم توصياتك هذه بحذافيرها لعلهم يدركون، فيعملون ما نحن بحاجة ماسة له.

- أرجوك قل لهم ذلك.. خوفي لن يكون عليهم فقط، بل التهديد الأعظم في الجيل الثاني، وليس جيلكم أنتم!!، تُرى.. ماذا ستفعلون عندها.. بعد أن يفتقدوا إلى لغة التفاهم فيما بينهم؟!، ثم استغفر ربه متألمًا مطرقًا حزينًا وهمَ واقفًا، والشمس قد زحفتْ وانحسرتْ تريد توديعنا؛ لتذهب إلى العالم الآخر من جهة الغرب، لتوزع عليهم بسماتها التي لا تنضب.. فرأيتُ جمرتها الكبيرة وهي تسقط على سطح النهر الصافي الوديع، وهو يتوهج حمرة خجلًا؛ لاحتضانه تلك الجمرة المتقدة، وهو يشعر بسرور وخيلاء لهذه اللحظة التي لا تغني عنها كل كنوز الأرض، في حين توهج الأفق وبدا حريقًا هائلًا يتسلّق هامته والشمس فرحة جزلًا بهذه الطقوس المقدسة التي تحييها كل يوم، دون أن تشعرنا بضجيج أو صخب... نزل يوحنا

من على الصخرة، وهو يهمس لي بطيبة: حان وقت رحيلي، سأتمُّ طقسي في ضفة النهر التي تلمع، كالذهب وأذهب... وقبل أن يختفي، قال: وصل لأبنائي سلامي وأمنياتي لهم بالنجاح والسعادة الخالصة، وقل لهم بأنني معكم في كل الأوقات، ولا تفعلوا إلا ما أوصيتكم به، وألَّا تتركوا الذين انسلخوا ضلالًا، وأن تحاولوا معهم مرارًا.. أن تستقطبوهم مجددًا، فهم قلة لكنهم كثرة، وأبناؤهم مسئوليتكم، والعقد يجب أن لا يتفرق؛ فالمندائي عقد خرزه من ماس.. ثم سار برفق ورشاقة وهيبة حتى اختفى كما يختفي الدخان.. ولم أتعمد!!؛ لأنني وفي تلك اللحظة فقط، وعيتُ على نفسي، وأنا مازلتُ جالسًا في المقهى غارقًا شاردًا في عالم.. كم تمنيتُ أن أزوره.. وكتابي المفتوح أمامي ينظر لي بفضول واستغراب، وكأنه يسألني: أين كنتْ؟.. ومع مَنْ كنتُ تتحدث؟.. وقهوتي التي جف ماؤها الأسود وهي مستقرة في فنجانها الزجاجي العتيق، الذي لامستْ حافته من قبل الكثير من الشفاه قبل أن تلامسه شفتاي.. فهمستُ في سري مودعًا النبي الذي أحببتُ، وبه الذي اعتقدتُ وصدقتُ وآمنتُ.



الضياء

▪ تنويه:

أحداث جسام حدثتْ، بعد أن كتبتُ قصتي القصيرة بعنوان (على ضفاف نهر الأردن) ونشرها، وما ألتْ إليه آراء الناس.. جعلتني أفكر جديًا بلقاء يوحنا المعمدان مجددًا، وهذا ما حاولتُ أن أسجله دون أمل، ولم يحالفني سوى الفشل!!... فالمرء منا، ما إن يتمنى.. حتى تختفي من أمام عينيه كل الصور التي يود ويحلم بلقائها، فجأة!! في حين كانتْ قبل لحظات قليلة تجلس معه وتسامره... عجبًا.. كيف لا ترنو الصور التي نشتهي رؤيتها متى ما نريد؟!.. إنها حقُّنا في الحلم والتمني، وإلا فما نفع التأمل والخيال عند الإنسان؟!

جلستُ في المقهى، حاولتُ أن أستعيد المناظر التي كانتْ قد حصلتْ بلقائي الأول مع يوحنا، دون نجاح.. لم ينفع جلوسي ولا حالة السرحان ولا حتى خمسة فناجين بمائها الأسود المر المغلي من البن، وقد آلمني ذلك كثيرًا وجعلني أشعر بالإحباط.. في الليل،

وبعد أن أجهدتُ نفسي مرتبكًا متمنيًا حائرًا، وأنا أحاول أن أصل إلى عالم يوحنا دون فائدة تذكر، وعندما كنتُ نائمًا من غير عمق وبقلق، وأنا أستذكر شريط الرسائل التي وصلتني بعد نشري لتلك القصة بعواطف جياشة مبهمة الغاية.. استوقفتني رسالة كتبها الدكتور(ع)... جاء فيها:

" نحن قوم معرفيون، أذكياء، أمة راقية زاهية في تراثها، نقية في دينها وتعاليمها وطقوسها.. ولا ينقصنا سوى التوعية الدينية، كي نتسلح بها ونحمي أولادنا من حالات الصراع أو الضياع "

في حين آلمتني رسالة أخرى.. حررها الشاعر(ق) رقيق الشعور، مرهف الإحساس وهو يسطر في ثناياها وجدًا لا حدود له، وشجون طافحة بالألم والحسرة.. وصاحبها يعاتبني؛ لأنني أوجزتُ حديثي مع يوحنا، ولم أقل أو أنقل له كل ما نعانيه وما وصلتْ وتجلتْ حياتنا من بعده!... ووسط هذه الذكرى والقراءات والتأمل المشحون بالحسرة والرجاء، ومن بين الأوراق والتمرُّد والإحباط والأشواق.. في تلك الليلة بالذات ودون تحضير مسبق أو استنباط، حدثتْ المعجزة التي كنتُ أنتظرها ولم أتوقع حدوثها بهذا الشكل أو التوقيت المفاجئ... حاصرنا الظلام، بعد أن هبط الليل علينا كعادته.. ذلك الفضاء الأسود العميق الكبير الكثيف الذي يكشف لنا روعة وجمال ومحاسن الطبيعة، وكأن لا وجود لها في النور؟ بهيبة وإتقان وسحر لا يملكها سوى واجده!!.. في الليل تهدأ العواطف وهي ثملى، وترتاح الأجساد بعد تعب وجهد وضجيج النهار، وفي أحيان يلتقي الأحباب عبر الأحلام في المنام... وهذا ما

حصل لي عندما كنتُ نائمًا في غرفتي كالمستيقظ الحالم، بعد أن تسللتْ إلى جسدي حمى، كما يسري المخدر في الجسم سببتْ لي رعشة غير متوقعة، فالتهبتُ أهذي على غير عادتي... في تلك الليلة بالذات، كان القمر فيها سيِّد الكون ببهائه الساطع متربع السماء، وهو يكشف لنا سر جماله البارع، شاركته النجوم الإمعة فرحة لزهائه، وهي تغمز إليه بإغراء العاشقة الحبيبة بين لحظة وأخرى.. في حين بقي شلال نور القمر الفضي الناصع الساطع البهي يتلصص محتجًا بضيق ومشقة، بسبب عتمة وسُمك نسيج الستائر، تلك الواقفة خلف شبابيك الغرفة وكأنها تحرسها، ولكن عناد تلك الأشعة الفضية وإصرارها على النفاذ إلى الداخل من خلال بعض الشقوق والفتحات التي كانتْ موجودة بين ثنايا الستائر، جعلها تفوز بقدر ما تستطيع لأنها تريد!!... فجأة حطتْ يد خفية خفيفة، لكنها ثقيلة الوقع على كتفي، وانتشر فجأة وهج من الضياء وهالة من الخيال في الغرفة التي كنتُ نائمًا فيها، فلم يعد الظلام يحاصرني بعد أن سطع ضياء الطيف منيرًا في المكان، وكأنَّ القمر تنازل عن علوه ليحلَّ ضيفًا يشاركنا الحديث والاستماع!، ثم تسمرتْ أوصالي وأنا أسمع صوت ألهاني عمَّا كنتُ غارقًا فيه في بحر مناجاتي وهيامي.. كان صوته هامسًا يسألني بعطف اتسم بالكمال، وهو يتفحصني بنظراته العميقة التي لها جذوة النار المتقدة في قوتها وهيبتها وعظمتها، تفحصًا أقلقني: هل كنتُ تنتظر قدومي؟!

- بخشوع ووجوم ورهبة: سبحان الله... يوحنا المعمدان؟! (همستُ وأنا هائم في أطواء الماضي الغائر، وأبلع ريقي اليابس بصعوبة بالغة، غير مصدق في شبه غيبوبة)

- رنَّ صوت يوحنا بإباء محكم العذوبة: لقد قلتُ لكم.. أنا معكم، دائمًا وفي كل الأوقات... لم يكن واقفًا على الأرض ولا طائرًا، فالوهج والضياء المنبعث منه حيث كان قائمًا، كأنَّه الفجر حين يستيقظ.. جعلني أهيم مذهولًا في عالم ليس لي علم بأجوائه أو أسراره.. لكنني استطعتُ من خلال التركيز الحاد المثار برغبة جامحة وفضول نابع من نفس مضطربة تسعى إلى المعرفة تمييز ثيابه تلك التي لم تتغير، كما رأيتها في المرة الأولى.. بيضاء بلون القطن، عينيه اللوزيتين اللون والمتناهيتين في الصفاء تشع بريقًا صافيًا ساحرًا، وكأنَّه آتٍ من شق في السماء، فتضيف إلى وجهه الدائري العريض جاذبية وفتنه خاصة، تشعرك بأنها تحمل في تلافيفها أسرار الماضي السحيق.. شعره الطويل الثائر الذي لا يفتأ أن يعابث وجهه السمح بالإلحاح كلما تحرك.. ملامحه الحادة الجادة التي لا ترمز إلا للعمل الثوري الصارم الشاق الصعب الحاسم، فيوحي لك بعد برهة أنك أمام قوة مصنوعة من صخر التمثال بعظمة وجمال وهيبة وجلال، وهيئته وصوته ورسمه..كله صفاء ونقاء وبهاء.. له جذوة لا يمكن لي وصفها، لكنني شعرتُ أن لتلك الجذوة قوة يستطيع أن يسيطر من خلالها على الأحياء والأموات.. قوة.. لها هيبة الله، وجبروت وعظمة الخلود دون طغيان، وقوة وذكاء الإنسان.. له طلعة ترتاح لها النفس وتطيب وهي مرحة..

ناهيك عن جاذبيته الساحرة في النطق والصورة والمظهر، المتسمة بالاتزان والثقة والاعتداد والجمال الفريد.. ما جعلني لا أملك أن ألتفتُ ببصري عنه بعد أن استبدتْ مشاعر مخلوطة من الحب والإعجاب والتأثر بأعماق قلبي، وأنا أشعر بتقهقر، دمدمتُ هامسًا أحدث نفسي بيقين: يا إلهي.. كم أنت عادل وحكيم!، ثم طفرتْ دمعة من عيني حارة وصادقة دون إرادة، وأنا أهمُ بالوقوف إجلالًا وإكرامًا له.. وسألته وأنا أشعر بأن ضربات قلبي بدأتْ تزعجني من قوتها.. مستفسرًا في ارتياع وذهول، بعد أن نهضتُ وأصبحتُ قُبالته واقفًا مشدوهًا: كيف عرفت بأنني كنتُ أبحث عنك، ولم أوفق؟!

- التمعت ابتسامة على شفتيه، دلتْ على طيبة عريقة فيه، وبرزانة ولين وإيحاء فلسفي أنشد، وكأنَّه يتلو تراتيل ممتزجة بالبخور:

قل لأبناء جلدتي أن يطلبوني عندما لا يكونوا بحاجة لي!

أن يسعوا لي عندما يشعرون بالفرح لا فقد بالترح!

أن يصغوا لي حين يكونون منتشيين ولا وقت لهم!

أن يتحدثوا معي عندما يأبون الكلام!

عندها ليتمنوا، فسألبي.. لأنني لا أمنح حبي وعطفي وحكمتي إلا لمَنْ يعرف القناعة، وينبذ الوضاعة، ثم خفق والابتسامة مازالتْ لم تفارق محياه بتجل رائع، وهو يقول متابعًا بزهو وادع:

ألَّا يفكرون يومًا، في أن يكونوا محل إمبراطورًا في نهاية حكمه المنحل!!

ألَّا يمجدوا الغفران على حساب العدالة!!؛ لأن بفعلتهم تلك يكونون كمَنْ يرفع سقف المنازل، ليرى ما بداخلها وما يفعله الناس، وفي هذا جرم لا نقبله نحن ـ المسالمين المعرفيين.

ألَّا يعطوا الذي يطلب كل شيء، كوجبة من الطعام الممضوغ الجاهز، فهو يجعل الطالب فريسة سهلة للملل والبطر والخمول.. ثم أضاف مختصرًا:

وأنت لا أراك من فئة هؤلاء؛ لذلك جئتك عن قناعة تامة وبقلب صادق متفتح كقلب طفل، بعد أن عرفتُ ما يجول في سريرتك وما تضمره روحك... ثم سألني (وهو يتـأملني بعمق، وكأنَّه يراني لأول مرة) بجد حازم والنور يتلألأ على وجهه، كمرآة انعكس عليها ضوء ساطع، فانتشر: هيا.. سل ما كنت تصبوا إليه وحدثني عن كل ما كان يؤرقك؟

بهرتني كلماته القاصفة العاصفة اللاذعة الجزلة الرصينة والحكيمة، فأجبته مستغيثًا وأعماق نفسي تتلوى أنينًا:

لله درُّك يا يوحنا، لقد نشرتُ كلماتك التي قلتها لي في قصة، وراعني ما وصلني.. فأبناء جلدتك مذهولون، مبهورون وبحبك وإجلالك منصهرون، وهم يرفعون الصلاة والسلام لشخصك الكريم العزيز مأخوذين.. حتى بكى أحدهم وهو منهمك بقراءة كلماتك التي نشرتها.. ثم نوهتُ له بحزن وألم قائلًا: لقد ورد احتجاج عربي على قصتي تلك التي كتبتها بعد لقائي بك، فأوقفوا عضويتي واعتبروني خائنًا، وربما جاهلاً! (وبعد وقفة قصيرة، سحبتُ فيها نفسًا عميقًا من داخلي المتوثب المقهور).. سألته

مستعجلًا، مرتبكًا، مباغتا، وكأني أحرص على كل لحظة من لحظات هذا اللقاء: تُرى.. هل سماع صوتك، ورؤية رسمك، والهيبة التي نقشوها في أذهانهم عنك، وحبهم لديانتهم ونبيهم، هي وراء كل هذا الحب والشغف بسيرتك ومتابعتها من خلال كلماتك التي نشرتها في القصة؟!، ثم أردفتُ مكملًا مبهوتًا: أتعلم بكل هذا الحب وما يضمره لك أبناء جلدتك؟!.. وهل تعلم بكره الآخرين الذين لا يؤمنون بما تقوله وما تنشره من حكمة وتعاليم؟ ربما خوفًا منك وهيبة من شخصك.

- محتدًا: ما هذا الذي أسمعه؟ (قال ذلك وعيناه البراقتين التمعتْ فيهما الحيرة)، ثم تابع بجزل بليغ وبلسان طليق عذب وبنفحة ثقة لا تقارن أو توصف: يوبخونك ويحجبون عنك النشر؛ لأنك كتبتُ عني؟!، والله أشعر بأنهم وبفعلتهم غير المفهومة وغير المنطقية تلك والتي لا تعبر إلا عن عقل مغلق تمامًا، عقل لا يكره في حياته شيئًا أكثر من النور والمعرفة... وأردف مواصلًا حديثه بجرأة: أنا لا أرى إلا أنهم اليوم يدخلون مرحلة الانحلال والتفسخ والتي ستنتهي بالتأكيد إلى انقراضهم لا محالة، إن أصرُّوا على نهجهم هذا غير الواعي وغير المسئول، ثم استطرد بحماس وهمة بعد أن ارتسم السرور مجددًا على وجهه: قل وأوصِ أبناء جلدتي الطيبين، هؤلاء الذين يكنون لي الحبَّ والإجلال والتقدير: أن يتسلحوا بالمعرفة، فهي كالماء الجاري ونوعًا من التطهير.. ألَّا يكونوا غرباء على عصرهم، فلكل عصر لغته وثقافته التي هي عماد الحياة وسقف الآخرة، أرجو وأدعو لهم أن ينجحوا ويفوزوا وألَّا

يكونوا من الخاسرين، أمثال هؤلاء الذين لا يعلمون بأنهم سيكونون من النادمين... (لم يكن يهتم بالأسئلة المباشرة كثيرًا.. هذا ما لاحظته من إجاباته، فقد كان منشغلًا بما هو أهم)؛ لذلك استطرد قائلًا كما توقعتُ، بفكر ناسك نير، تقدُّمي، حضاري متفتح لا مجال لمقارنته مع أي فكر فلسفي من الذي أعرفه: كن إيجابيًا، سترى الأشياء التي من حولك كلها كذلك!، وأنت وأبنائي من هذا النوع، وأنا أعلم بذلك بل فخور بهم (صرح بهذا ورائحته قد انتشرتْ في الغرفة التي كنتُ نائمًا فيها، كعطر ورد الرازقي في الليل)، وتابع برصانة وثقة، كما عهدته في المرة الأولى: لا تجبر أحدًا على فعل ما، بل اقترح عليه أن يفعل ذلك، أخبره أن ذلك واجب، لكن إياك أن تضع نفسك حاجبًا، وأنا لا أحب المتسلطين!، ثم أردف برنَّة ساحرة، جعلتني أتقعد الأرض تبجيلًا: فكروا قبل أن تقولوا، وقولوا عندما تشعرون بأنكم راضين ولستم مقهورين؛ فالظلم لا يأتي أو يقع إلا في حالة الغضب والسفاهة!.. عيشوا يومكم وكأنكم لا تملكون إلا اللحظة، ولكن ألَّا تكونوا إلا جادين، صادقين، مبدعين، مفكرين وعاملين عندها تبرق لكم السعادة، كالشهب سريعًا وقويًا ومؤثرًا.

- سألته مشفقًا على حالي، كالحالم الذي استيقظ دون أن يكمل حلمه فجأة، وأنا مسحور بحديثه حتى نسيتُ الكثير مما كان يجول في خاطري، وما خططتُ لقوله: حدثني عن النفس، أرجوك (بلهفة قلتُ ذلك وعلامات الاستفهام تلمع في عيني)

- أجاب باسترخاء دون توتر أو تفكير، وكأنَّه يعرف بما سأسأله وبماذا يجيب، فقال: كن نفسك وليس شبحًا لها.

لا تقبلوا يومًا أن تكونوا ظلًا، فالظلال خرساء رغم تعبيرها، عمياء رغم حركاتها التي تأتي بها!!

لا تمثلوا دور الإنسان، بل كونوا الأصل دائمًا.

لا تلبسوا الأقنعة وأنتم تتحدثون أو تعملون، ثم بإصرار نوه مركزًا: إياكم ولبس الأقنعة فهي لُعبة الشيطان التي يتغنى بها!!

- ماذا عن العقل؟ (سألته منبهرًا بشغف)

- بين العقل والشهوة خيط رفيع، إذا انقطع اضطربتْ النفس وهاجتْ الروح وطاب الشيطان أمرها، ولكن كل منا خالق على وجه من الوجوه.. وتابع وهو يغرس نظراته الصارمة، غير الزائغة فيّ: إذا أراد العقل أن يبدأ، فليبدأ بالنقطة التي توقف عندها المبدعين السابقين.

عليه أن يعلم بألَّا يغوص إلى الأعماق، فقط لكونه يجيد السباحة.

ألَّا يساوم أو يطلب من البخيل الرد.

ألَّا يطالب الآخرين الانتظار وصبره فقاعة.

ألَّا يرفض أو يرفع صوته وهو يعلم بأنه خائن أو ظالم.

ألّا يسمح للمصلحة الذاتية أن تكون هي الحق، ثم نادى ورأسه نحو السماء مرفوعة: إياكم وخلق الشر، فهذا يفرح الشيطان ويجعله يرقص طربًا، هذا الذي يسميه المعروف!!

ـ برجاء وبصوت هامس، قلتُ له وأنا أعطس عطسة خفيفة: حدثني عن الجمال والقيمة؟، ثم أردفتُ.. فأنا لي رغبة لا تقهر لمعرفة حكمتك في كيفية الحكم عليهما!.

ـ هناك علاقة وطيدة ثابتة ومتبادلة بين خالق منتج وآخر متلقٍ؛ بمعنى.. أنَّ خالق الجمال يحتاج إلى خالق آخر يؤثر فيه، ومن ثمَّ يُظهر هذا الآخر تأثيره بشكل يكون هو في هذا الموقف، كخالق جديد يدعم الخلق الذي أنتجه الخالق الأول.. فقيمة الخلق الثاني تساوي وتوازي تمامًا قيمة الخلق الأول، وهذا كله يكون نتيجة تأثير العقل وفراسته وذكاءه على عمل الإنسان.

هممتُ بسؤاله... فقاطعني بنباهة، بعد أن شعر بما يجول في خاطري، وقال مستأنفًا شارحًا متماسكًا، عليمًا بما في النفوس وما تفكر به العقول: تريد أن تسألني عن الإنسان كإرادة، كمخلوق خلق بأحسن صورة، ومع ذلك نرى فيه الشرور والنفاق والحسد والكره والإجرام.. أليس كذلك؟!، ثم رنَّ صوته في أرجاء الغرفة وكأنَّه في واد: عليك أن تبدأ بذاكرتك، وأن تعمل لا للعمل ذاته، فمَنْ يعمل للعمل ذاته.. تأكد بأنه عاطل عن العمل!!، وهكذا شخص يكون ذهنه مشتتًا، وكأنَّه شِعب من التناقضات، كذلك لا تردد فقط ما يقوله العظماء، بل قل ما تراه أنتَ، وتذكر صعوبة النجاح وقسوة الارتقاء، وفي نفس الوقت لا تنسَ سهولة وسرعة الانحدار.. وألَّا تبيع بضاعتك إلا لمَنْ يرغب في شرائها؛ لأنك إذا فعلت عكس ذلك، تكون كالشحاذ الذي يستجدي المشاعر قبل المال!، ثم باغتني مجيبًا، مكملًا حديثه بقوله: لا تجعلوا الجمال مرادفًا للترف،

فالحطب يضيء عندما يشتعل لكنه يأتي على كل شيء، وأول ما يبدأ به هو حرق نفسه!!.. إذًا ابتعدوا عن الترف والتبذير والإسراف، وألَّا تخزنوا الذهب والفضة، فإن وزنهما ثقيل، ووزرهما أثقل وحسابكم عند الله أشد وأعسر!!... لا تجعلوا أرواحكم من ثلج ولا من نار، بل من خليط الحب والأفكار... امنعوا عواطفكم الطيبة من أن تقرر لكم، فهي لا تنفع للتقرير وحسم المصير!!... إياكم وتقليد الأمراء في استهتارهم، فهم إن مشوا سحقوا، وإن قاموا كفروا.. وهم لا يعوون ولا نراهم يندمون.

همستُ أخاطب نفسي مبهورًا، وأنا أرتجف محمومًا كلهب الشمعة: سبحان الله ـ له أسلوب جذاب في الحديث يسحر، ووصفه دقيق يبهر، كلماته قوية، لكنها عذبة الوقع على السامع، تأسر القلب، والعين تدمع، يترجم مشاعر الإنسان وأحاسيسه بلغة فلسفية راقية، ذات بعد إنساني عميق، تتجلى قدرته فيها وهو يسمو في رحاب عالية، محلقة في فضاء غير مرئي، كهالة من الضباب، فيجعلك تشعر بها وتحسها، وكأنها تعبر عن ألمك الخاص، يا لها من قدرة فذة على تحليل وتفسير خلجات النفس الإنسانية وما تضمره وما تخفي من أسرار.. قلما وجدتُ أو قرأتُ هذا في شخص آخر، مهما كانتْ مكانته الدينية أو الأدبية أو الفلسفية، ثم بتخاذل حقيقي مفضوح، معبرًا عن حسرة متورمة، قلتُ بصوت مسموع متنهدًا: للأسف، انتظارنا حدث يحتضر، وزمننا لا يسعى إلا إلى الجري، والصبر في عُرفنا الحاضر همس لا يسمع له صوت!.. كلماتنا باتت ليستْ من صنعنا، والمتكلِّم أصبح لا يسمع إلا صوته، اختلفنا

وآراؤنا تعددتْ وتشابكتْ وأصبحتْ أكثر تعقيدًا من إيجاد الحلول لها!

علا صوته في المكان مجلجلًا، فجأة: ما هذا الذي تقوله؟.. إنكم تعذبونني بأعمالكم المشينة هذه... ثم أدرك: أنا أستغرب حقًّا من تصرفات البعض، فأراهم ما إن يتعلموا مبادئ الكتابة حتى يكتبوا عن ذات الله ورسله وأنبيائه!!.. إنه جهل وليس معرفة، كفر وجرم وليس تنوير أو تحرر، وهذا لا نرضى به نحن ـ الموحدين (وبعد وقفة صمت قاتم، شعرتُ بأنه تألم لاستدراكي كثيرًا)،وتابع بصوت منخفض وبرنَّة حزن: عليكم إذًا بتربية إرادتكم أولًا، وأن تتعمقوا في قراءة كنزكم الثمين، كتابكم العظيم... ألَّا تنشدوا الحقيقة المجردة وأنتم تغوصون حيث الأعماق وتشدون في رقابكم أحجارًا، كما أن الفرد منكم يجب أن يحسب ويعد ممتلكاته على قدر الجهد المبذول، فكلما كان الجهد كبيرًا ومبدعًا وخلاقًا، كانتْ ممتلكاته كثيرة وأرزاقه وفيرة، ثم ردد محذرًا: احذروا في تعاملكم مع الحبِّ، فأحيانًا يولد للحبِّ بنت تدعى كراهية!!... وألَّا تهابوا الموت بل الحياة، تلك التي فيها تعملون وتبدعون وفيها الخطايا ترتكبون!!، وألَّا تكونوا كالأصداف الفارغة، تلك التي لا تأوي في داخلها سوى الرمل!!

سحقتني كلماته، والحكمة التي ينطق بها، فقلتُ وأنا أداري جهلي: بماذا تنصحنا إذًا؟

ـ جاء صوته هادرًا، كالصوت التي تطلقه الموجة المتذمرة، الحانقة: لا تهربوا من الحقيقة إلى جهة الظلام.

لا تنظروا إلى الجانب القريب من الأشياء دون البعيد منها.

لا تنتزعوا من الحياة قيمتها، وذلك بتذكركم الموت فيها!

لا تتسلحوا بأسلحة الحيلة، فتلك الأسلحة صدئة مكشوفة عارية، وتخجل منها الأخلاق!

لا تتنصلوا من التبعة وأنتم تحت نير المضطهدين.

لا تكونوا مستبدين، مستلبين، متسلطين.. فأنا لا أحب الوصوليين والمتكبرين الطغاة، وما هم إلا فارغون هواة، وبجهلهم لا يعلمون، وبالباطل ينطقون، وهم في الحقيقة خرس لا يفقهون.

ألَّا تقولوا بأن المرء فيكم حر حتى وهو في قيده.. فذاك كفر لا يقبله المصلحون، ثم ختم كلامه قائلًا: المتمرد غير الثائر، فالمتمرد يحتج وفي نفسه منفعة، بينما يثور الثائر وهو يطالب بالتغيير، ساعيًا لمصلحة عامة عليا، فلا تكونوا إلا ثائرين، لا متمردين.. أنقذكم الله من إغواء النفس والشيطان.

- أجبته سائلًا متشنجًا من جديد، وكأن أسئلتي لا تقبل إلا التحديد: ماذا عن الدجل؟.. وكيف نتعامل مع الدجالين والمحتالين؟، فهم كالسحرة.. مرة بالدين مؤمن، وأخرى في السياسة مدمن!!

- رد بسلاسة وذوق سليم معافى بالحيوية والحكمة، وشعرتُ بأن في طوية نفسه اغتباطًا، وصدق حدسيًا، فابتسم عن ثغر بديع الجمال ونوه: أراك تسألني بكلمات منتقاة بحذر لها جمالية ووقع على الروح، كما تطيب النفس بشم العطر (فابتسمتُ مطمئنًا لإطرائه)، ثم أردف بجد بعد أن حزم أمره في الرد: لا تمسكوا

العصا إلا من طرفها، فالدجال هو الوحيد الذي يسعى إلى وسطها؛ لأنه يحب الدنيا وعيناه على الآخرة يرقبها!!، كمَنْ يريد صداقة الصديق والعدو في آنٍ واحد، وهذا خلق غير أخلاقي، ولكن هذه هي فلسفة الدجال المبنية على أساس واحد فقط.. إنه يعلم لكنه لا يريد!، وقراره لا يحزم أمره، وهو يردد دون حياء: إن ما أفعله.. إلا من أجل الله والآخرين!، وفي هذا مواربة وغش وحيلة ومهادنة غشيمة، يجب ألَّا تنطلي عليكم، وهم يفعلون كل ذلك بضمير مرتاح، ونفس مطمئنة، وروح مستقرة، ويتبجحون بنبل عواطفهم، ورقة مشاعرهم، وحرقة دموعهم، وبكائهم ونحيبهم، وهم لا يستحقون.. وأنا لا أمقت في حياتي أكثر من هؤلاء؛ لأنهم بلاء دون نصح أو آراء أو حالة بناء ـ أبعدهم الله عن حسناته وجناته.

- لي سؤال نقله لي صديق وفي جدًا ومخلص، يقول: لماذا لا أنجب؟.. لماذا لا يكون الحكم الإلهي عادلًا أحيانًا؟.. لماذا يسعد المجرمون والسارقون والمتحذلقون بأوقاتهم، ونحن نقاسي ونتألم.. رغم إننا نحيا ونحن ـ مؤمنين ـ وللوصايا العشر مفقهون ومقتنعون؟

- إنها حكمة الله التي لا مفر منها ولا اعتراض، ولكن أشعر بأن صديقك الوفي هذا، له قلب أبيض من لون الحليب يتمناه الكثيرون، وهذه هبة لا يعطيها الله إلا إلى الأنبياء والأتقياء والصالحين.. إذًا قل له؛ ليفرح بذلك ويغتبط وألَّا يحزن، فهؤلاء الذين ذكرهم هم الذين يحزنون وهم لصفاء قلبه، لحاسدون... ثم عدل من وقفته،

وسرح شعر لحيته بيده، وأشار لي سائلًا: أحب أن أعرف المزيد عن أبناء جلدتي.. هلا حدثتني عنهم قليلًا؟

هذا ما كنتُ أخاف منه.. فالحديث سيجعله يتألم، وقد جربتُ في المرة الأولى أن أذكر له جزءًا يسيرًا عمَّا نعانيه، لكنني ندمتُ بعد ذلك كثيرًا وشعرتُ بأنني قد قسوتُ عليه.. تُرى.. ماذا أقول؟!، ثم أزعمتُ الأمر بيني وبين نفسي هامسًا، وكأنني أُسِرُّها: سأحدثه عن وضعنا الحالي بشكل عام، وسأترك التفاصيل والجزئيات.. وارتحتُ لهذا الحل، ورفعتُ رأسي نحوه (وهو يتابع حركاتي وسرحاني مع ذاتي، ويتأملني بدقة متناهية وكأنَّه يرسمني)، وقلتُ بعد أن حزمت أمري مرغمًا، بهدوء يشوبه الحذر: حياتنا في ظل المندائية أصبحتْ للأسف مُرة المذاق في أحيان كثيرة، ولأسباب عديدة منها جوهرية، ومنها بلا هوية!، ثم أجبته تهربًا من الاسترسال، سائلًا: تُرى.. لماذا هذا الذي يحصل لنا؟!

- أيمكن لهم أن يعتقدوا بأن الكون خلق من أجلهم فقط؟! وفي هذا مفارقة كبيرة إن صح قولي، وإيماء بعيد عن الفطنة والذكاء، وربما بسبب الغرور، فالغرور نوع من أنواع الجهل، وصورة للتخلف المغلف؛ لأن الجاهل يعتقد بأن له شأن كبير خارق كشأن الله أو أحد ملائكته!!، وهذا كفر وإشراك بالله لا نقبله نحن - الموحدين - ثم أكمل حديثه: وعندما يشتد مرض الغرور عند هؤلاء، يشعرون بأنهم يحومون فوق التاريخ، وهذا أيضًا لا يجوز، فالمرء منا جزء منخرط في التاريخ، ولا شيء غير ذلك؛ ثم استغفر ربه متألمًا، متحسرًا ونادى: ما هذه الثقافة الهزيلة التي يتمتع بها البعض؟،

وسألني مستفسرًا.. كأنني أعرف الجواب!.. تُرى.. مَنْ هو معلمهم؟!، ومَنْ هو الذي أشار لهم بتلك الحكمة الغريبة على أخلاقنا وناموسنا؟!، ثم نوه بقسوة، تُرى.. ماذا يفعلون رجال الدين حيال تلك الدعاوي؟.. هل لهم دور تنويري، تثقيفي، تعبوي وتعليمي إزاء هكذا مشاكل جوهرية لا يفرح بها سوى الشيطان؟!، وتابع بعد وقفة.. هل هناك صفوف أو مدارس أو ندوات تقام كي يحاولون تصحيح المسار، ويبثون فيها الوعي الديني القويم الذي جئنا به؟!.. عندها خفض بصره نحو الأرض مخذولًا مقهورًا، وصاح لأول مرة من أعماقه: حاربتُ من أجل هذا الدين، وسأدفع حياتي- وأنا أعلم بذلك – لأجله ولأجل إعلاء كلمة الحقِّ، وليكن أبنائي من بعدي على فهم ووعي قويم.. أسألهم أنا من ـ هنا ـ تُرى.. لماذا يفعلون كل ذلك؟.. ولمصلحة مَنْ؟، فحريتكم مرتبطة بحرية الآخرين، وإن خاطبتم أحدًا فخاطبوا الضمير، ابتعدوا عن تملُّق عواطف الناس، وألَّا تصرخون يومًا بأنكم من العقلاء، ففي كل إنسان منا قسط من الجنون، وإلا ماذا نسمي الغضب؟.. أليس هو نوعًا من حالات الجنون؟!.. لا تكونوا متناقضين متقاطعين مع أنفسكم؛ لأنكم بذلك ستقعون في اضطراب يجعلكم غير قادرين على العطاء بصدق، فالصدق مع النفس أولًا ومن ثمَّ مع الآخرين، وهذا أرفع مراتب الإيمان في ديننا الصابئي.. كن صادقًا تكن طاهرًا وتقيًا، وعقد الديانة الصابئية يتكون من حبات متساوية، فلتكونوا أنتم أيضًا بحدود حرية متساوية ولكل الأفراد؛ لأنكم من قالب واحد ومن مادة واحدة، وأن تقوموا بتحقيق الذات من خلال التعاون

والاتحاد وبتكاتف كل السواعد دون فرق أو تمييز... ثم حدق فيَّ بعين ذات بريق خاطف كوهج مشعل، وأردف: عندما تنوون قول رأيكم، فليكن صادرًا من أعمق أعماقكم؛ لأن العدل المحض لذاته كلمة غامضة، وقد يقارن أحيانًا بالظلم لو فهمناه دون تفعيل أو موقف خاص نتخذه... ثم سألني مباغتًا إياي، وهو يعلم بأنه لا يحتاج أو ينتظر منِّي جوابًا: تُرى لو هادنتُ الملك هيرود في فساده.. هل يمكن لي أن أصبح أو أكون رمزًا خالدًا لكم؟!، فالخلود إذًا إزاء موقف حاسم لابد لنا أن نواجهه يكون ثمنه غاليًا كحياتنا، لابد من دفعه كي نستحقَّ الكرامة ومن ثمَّ الخلود.. ولن أُزيد قولًا سوى اتقوا الله فيما تفعلون، وأنا يحيى بن زكريا كما تعلمون.

- حدثني عن الفن والإنسان.. وكيف نحيا أو نكون بأحسن حال؟!

(قلتُ له ذلك، محاولًا تغيير الموضوع الذي شعرتُ أنَّه أجهده وضايقه)... اقترب منِّي قليلًا، فشعرتُ بأني أغوص في هالة من الضباب بسبب الضياء الصادر المتوهج منه، وهمس بعذوبة قائلًا: الفجر على الأبواب، سأحدثك عن الفن والتاريخ والإنسان، وأنقل كلماتي لأبناء جلدتي بأمان عندها سأغادرك، وأنا مرتاح النفس مطمئن، ولا أشعر بعدها بعذاب أو حُزن.. واستدرك: الفن الخالص لذاته، والذي لا يحاكي إلا نفسه، والفن الفارغ شيء واحد؛ لأن الفن يجب أن يكون نقيض الحياة، أن يعريها ومن ثمَّ يبحث عن كيفية تغيرها، لا أن يركن إلى متعة ولغو الفن للفن ذاته كالشعر الذي يعني أسطورة، في حين يكون النثر صورة، والشاعر ـ هنا ـ ليس بصامت ولا بمتحدث، في حين يكون الناثر عاملًا أبدًا موجهًا دائمًا

ويطمح نحو التغيير في كل فكرة يجسدها من خلال الكتابة النثرية.. ثم سرح قليلاً في فضاء وخيال ليس لي علم بحدوده -قربه أو بعده- واستطرد بعد لحظة التأمل تلك قائلًا: عمل الفنان يجب أن يكون من صنعه من ذاته عندها سيشعر بأنَّه خالقه ومصدره عكس الصانع الذي يأتي به ضمن قياسات مُعدة له سابقًا، عندها سيشعر بأنها غريبة عليه.. والمخلوق له مواصفات الخالق وعلى قدر، والأقدار تختلف وهذه هي مشيئة الله سبحانه، فلا حكم عليه أو قضاء، كما المتكلِّم الذي لا يسمع إلا صوته، في حين يختلف ذلك عند المتلقي.. فالمتلقي هو الذي يجد ما هو جديد فيما يسمعه، وهو الذي يعطي صفة الوجود للكلمة التي يسمعها، وعليه فجهد المتلقي يعادل جهد الذي يُلقي.. وهذا عكس طبع الذي يلقي، فهو لا يجد ما هو جديد فيما يلقيه أو يتليه... وهذه إحدى سمات الخالق وأقصد - هنا - طبعًا الفنان، وكلما ارتقى الإنسان في سموه.. كلما وصل إلى مرتبة الفنان.. وكلما صبر الفنان على عمله.. كلما أتقنه وأوصله إلى درجة العبقرية، التي لا تأتي إلا في حلقة الإنجاز بعد أن يتجلى وعيهم في حدود عصرهم الذي يحيون فيه، فالتاريخ عبرة، والحاضر تجربة، والمستقبل هو الإنجاز، ولكن بشرط أن يعي الأخير بأن لا حياد في الحياة، ولا حياد في الفن.. والأبيض هو لون الكفن.. والأسود لون العزاء والدفن، وعليهم ألَّا يتخذوا الحياد نهجًا لهم، وأن يختاروا الحقَّ طريقًا، وإلا ستكون روح الشيطان ذاتهم، وشكله وجههم وأخلاقه طبعهم!!، وألَّا يتملقوا عواطف المتلقين حين يتحدثوا، ولا يستملوا أهوائهم عندما يقصدون، وإن خاطبوا

أحدهم ألَّا يفكروا في استعباده وأن يقولوا ما يريدون، ويتركون له حرية الاعتقاد وحق القرار، وألَّا يقولوا لأنفسهم أنهم مبدعون؛ لأنهم إذا قالوا ذلك، فإنهم قد فشلوا بشكل بارع!، وألَّا يحكموا على أعمالهم بأنفسهم، فإن فعلوا يكونوا كالقضاة الذين يحكمون على قانون كتبوه بأنفسهم!، وعليهم أن يتذكروا دائمًا أن هناك مَنْ هو أذكى، وأتقى، وأعلم منهم، وألَّا يجعلوا أنفسهم مثالًا وألَّا يتحدثوا عن أعمالهم؛ لأنهم يعرفونها، والفنان المبدع هو مَنْ يرى أعماله أقل إبداعًا مما هي عليه، وأن يقبل الحكم عليها بعيون الآخرين، وألَّا يقول يومًا أنا، فالأنا عيب إن عبرَّتْ عن ذاتها، فلا تقبلوا العيب على أنفسكم، والصمت ـ هنا ـ أرحم وأكرم؛ لأن الصمت في هذه الحالة صلاة المؤمن.. طقس في معبد، وأن يتكلموا متى ما شعروا أنَّ كلماتهم حادة كنصل السيف، قاطعة كالفأس، وثقيلة كالحجر.. عندها يأتون بالمعنى والدلالة، وهنا لا خوف عليهم ولا يحزنون...ثم عدل من هندامه وهمَّ مودعًا، وهو يقول:

لا تتكهنوا في دينكم، فالتكهُّن يأتي بالصراع ويؤدي إلى الضياع.

لا تظلموا، كي لا يظلمكم الآخرون.

اعطوا تأخذوا، آمنوا تؤمنوا.

اطلبوا الخير، تجدوه.

أجحفوا، تكرهوا.

لا تفكروا في الموت كثيرًا؛ كي لا تجدوه أمامكم.

اعتقدوا بالحياة ستكون لكم في كل طلعة شمس ولحظة غروب، باسمة، مفعمة بالفرح والأمل.

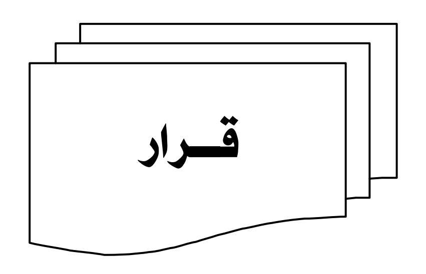
السعادة، هي قمة هرم الحياة، كافحوا تصلوا، وتذكروا دائمًا أن النبوغ هو التجاوز على حدود الذات في الإنتاج والإنجاز، وكلما تخطيتم وابتعدتم عن تلك الحدود، كلما اقتربتم من العبقرية.

احرصوا على أولادكم، فهم امتدادكم وبهم يبقى الدين ويدوم إلى ما شاء الله له أن يحيا ويكون.

الإلهام، لغة عنوانها الصمت، وأسلوبها التأمل، وعملها الاكتشاف بصبر وروية دون تذمر.

وإذا أردتم أن تكونوا من ذوي الشأن، فابحثوا في ملكات أنفسكم أولًا وابدؤوا بها، فهي الغاية والغايات تأتي بالمعجزات، والجمال دون قيمة ذاتية لا يسمى جمالًا بل جمادًا، والعمل كالجمال لابد من اقترانه بغاية، وإلا كان العمل عاطلًا.. وأنا لا أحب العاطلين... ثم أردف جملته الفذة التي تعبر عن مدى سموه ورفعته، وحبه الكبير في المساواة بين الرجل والمرأة: الأهم ألَّا تجعلوا مجتمعكم ذكوريًا وكأنَّ المرأة فيه حصة من الميراث!، وميدان الجهل واسع.. وأنا لا أحب الجهلة المعتدين.

ثم شعرتُ أنَّ الصبح بدأ يتنفس، ويوحنا يبتعد رويدًا، وبخطى خفيفة غير واضحة كالظل بلا معالم، بلا صوت.. في حين ظلَّ صوته الوحيد هو الذي يرنُّ في الغرفة بهمس خافت، كالصدى ويخفق مرددًا: حتى وإن أصبح هذا اللقاء ذكرى، فالذكرى باقية بقاء الروح في الجسد. ثم اختفى كما أتى... وصدى كلماته الأخيرة ترنُّ في أذني وفي الغرفة... الذكرى باقية بقاء الروح في الجسد!!.



رنَّ جرس الهاتف بشكل مزعج ومتواصل، فلوَّث الهدوء الذي كنتُ أنعم به، وانتهك السكون من حولي، وأنا بجلستي المدللة المعتادة مع الكتاب.. وقبل أن أرفع سماعة الهاتف همستُ في سري: اللعنة على هذا الجهاز وعلى مَنْ يحاول الاتصال في مثل هذا الوقت العزيز!، ثم رفعتُ السماعة وقلتُ بعدم اكتراث وبلا مبالاة: نعم.

- أنا أياد، صديقك.. ألم تعرفني؟!

- عرفتك، إبليس عندما يلهو ويصطاد (أجبته بشيء من الاستفزاز)

- سامحك الله، ولكن لي عتب عليك! (وقفة قصيرة)، ثم أضاف بقسوة ليستْ من طبعه.. إما الرضوخ أو الرفض!

- اللهم اجعله خيرًا!!

- نبر مستدرجًا: لقد كتبتُ عني حكاية، وقد ذكرتُ اسمي فيها بشكل صريح دون إذنٍ منِّي!، وهذا لا أقبله ثم سكت وكأنَّه يجس وقع كلماته عليَّ وينتظر رد فعلي!

- قلتُ: وماذا في ذلك؟ (وأنا أتكلف الابتسام)

- صرخ، كمَنْ مسه شيطان: كيف؟، وماذا في ذلك؟، ثم أردف بإصرار.. هل أنت واثق مما تقول؟!

- كل الثقة يا صديقي، وأضفتُ.. لأنني كتبتُ عن أشياء وأمور كثيرة دون أن آخذ إذنًا أو أمرًا من أحد.

- رد باستياء مبطن: عن ماذا كتبتْ؟ ها... أفصح!

- قلتُ بنبرة حاسمة: كتبتُ عن الله والشيطان، عن المرأة الصالحة والعاهرة، عن المؤمن والقوَّاد والكافر، عن الطفل البريء والغلام، ثم ختمتُ كلامي بتهكم.. وكتبتُ أيضًا عن السلاح عندما يكون منتصبًا وعن ذلك الجزء الثمين الذي يندي وهو يئن لوعة وشهوة واحتراقًا بين الفخين، تُرى لو أراد هؤلاء مقاضاتي ربما كنتُ اليوم أعمل مع إبليس، حفارًا للقبور!!، وتابعتُ متندرًا.. ومع ذلك، ولأنك أعز أصدقائي.. أعتذر منك، وتابعت بصدق وتصميم.. لم أقصد الإساءة... وكما قرأتُ بنفسك الحكاية، فكل ما أردته هو تصوير جزء من حياتك، وتسليط الضوء على نقطة رأيتها غاية في الأهمية لأُناس كثر؛ لما فيها من دروس وعِبر، وأضفتُ بإصرار.. هل أخطأتُ في ذلك؟، ثم نوهتُ قائلًا: تذكر ما قاله بوذا بهذا الشأن: "هنيئًا للمعذبين الأبرياء، الذين قلوبهم بيضاء كالفضة"، وأنا واحدٌ منهم.

- تغيرتْ لهجته بسرعة نحو الليِّن، ورد: صديقي العزيز، لا اعتراض على ذلك!!

- قاطعته بحدة متسائلًا: إذًا.. ما المشكلة؟!

- تمتم بما يشبه المواساة: المشكلة فيّ وليستْ فيك!!

- قلتُ مشاكسًا: عجبًا.. حزورة هذه أم ماذا؟!

- تعتع منتشيًا: أرجوك يا صديقي.. جرب أن تفهمني!.. كن جادًا معي ولو للحظات، ثم استدرك.. فأنا لا أمزح.

- أجبته بحسم: نعم.. وها أنا أجتهد؛ كي أفهمك!، ومن ثمَّ أنا لا أمزح أيضًا، ولا أختبئ خلف كفي أو في ثيابي، وأردفتُ بعد تأنٍ.. لكن.. ما نوع المشكلة التي تعانيها؟.. أقصد، ذكرتْ المشكلة فيك وليس فيّ؟!

- هذا جيد، أعني ستقتصر عليّ المسافات!

- أيُّ مسافات؟

- الشرح.. التوضيح والإحراج!، ثم أكمل بعفوية.. الإحراج هو أطول أنواع المسافات التي يواجهها الإنسان في حياته، ولا ينافسه في ذلك إلا الخجل!!

لم أستطع أن أكبح أو أقضم ضحكتي، فضحكتُ بصوت مسموع، لكن دون تهكم والله، وأجبته بلؤم حقيقي: أراك تتفلسف يا صاحبي! (أصبح مشهد الحوار فجأة لذيذًا جدًا لي، بعد أن طاب وهو ينحرف هكذا دون ترتيب مسبق)

- صاح منفعلًا، كعود ثقاب اشتعل: لا تغالط نفسك يا عزيزي الخبيث، فأنا وكما تعلم.. درستُ الهندسة وليس الفلسفة.

- قاطعته بحزم، وبرغبة مسعورة للصدام: حسنًا إذًا، قل ما في نفسك وعريها أمامي ومن خلال الهاتف.

- سعل قليلًا، ثم نطق: حسنًا يا صديقي، سأقول.. وأنطلق بالحديث، وكأنَّه أمام مباراة للسباق في الكلام.. لم يعطِ لنفسه راحة ولم يتوقف

حتى أعلن عن جملته الأخيرة في نهاية حديثة، الذي جاء فيه: عزيزي، سألتُ نفسي جادًا وبحماس منقطع النظير، ما دمتُ أنتَ قد كتبتُ عني حكاية، وذكرتُ اسمي فيها صريحًا دون تردد!، فأنا أيضًا قارئ جيد، بل أكاد أُجزم بأنني مدمن قراءة منذ الصغر، وكما تعلم أني إنسان متعلم وحاصل على شهادة البكالوريوس في علوم الهندسة الزراعية، ما أريد قوله.. أقصد، لا ينقصني شيئًا... حاولتُ ـ هنا ـ مقاطعته عن الاسترسال في الكلام دون جدوى.. فتابع حديثه بنفس الحماس والرنَّة، وكأنَّه طلقة انطلقتْ من بندقية، فلا توجد بعد قوة تمنعها من التوقف أو الرجوع إلا بعد أن تصل إلى مداها أو هدفها... فاستكمل وقال بما يشبه التوبة أو الندم: أرجوك يا صديقي لا تقاطعني، واجعلني أُكمل حديثي (ودون أن ينتظر الرد) هتف؛ لذلك قلتُ في نفسي أكتب قصة عنك، كما فعلتْ أنت، خاصة بعد أن مقت الحياة بسببك، وكرهتُ خيالي الذي يطاردني من وراء قصتك... وهنا استوقفته بنزق، مستفزًا: وماذا حصل؟، فأنا أتوق لهكذا مغامرات، أقصد.. أحب أن يكتب عني الناس، خاصة عندما يكون القول.. قصة قصيرة!... ودون أن يتعب نفسه بالإجابة، وكأنَّه لم يسمع.. استرسل قائلًا: بدأتُ أكتب القصة، وكتبتُ اسمك الصريح.. رد فعل، كتأنيب أو استعادة حق! دون خوف أو تردد، وكما فعلتْ أنتَ بالضبط، ولكن.. أعني، صادفتني مشكلة، ولم أجد لها حلًا سوى الرجوع إليك، وقلتُ في نفسي: لا ينقذني من ورطتي سوى صاحبي عزيزي وكاتب حكايتي.. وها أنا أتصل بك الآن!!

- أجبته بصبر، كما قلتُ لك في البداية.. أنا كلي آذان صاغية، قل.. أرجوك واعتقني، وتذكر أني مازلتُ أفضل صديق تمتلكه في حياتك وباعترافاتك المتكررة اللعينة!

- ضحك كالطفل ببراءة، وقال: هذا صحيح - وحق الرب - ثم سأل بغير توقع: ألا تشعر بأنك مغرور بعض الشيء؟!

- بصراحة شديدة قلتُ: هذا الذي تقول عنه - بعض الشيء - ضروري جدًا للأديب، على الرغم من أني أراه اعتدادًا وعزة وليس غرورًا، وإلا كنتُ تاجرًا أو بائعًا أو حتى ساقطًا للذمة والأخلاق!

- همس متكدرًا مصدومًا من إجابتي: أنا لم أقصد ذلك يا صديقي.

- أعرف هذا، ثم أطرقتُ.. لكنني أردتُ فقط أن أبيِّن الفرق بين الغرور والاعتداد خاصة عند الفنان، ثم أردفتُ مباغتًا.. إذًا قل.. ما المشكلة التي صادفتك؟.. إنهاءً للنزاع!

- سأقول، ولكن اصغ السمع جيدًا ولا تقاطعني.

- لك ما تريد يا عزيزي، ولكن.. لتعلم أنك تعذبني بأفعالك غير المسئولة هذه، ارحمني أرجوك، لقد أتعبتني وسَّوت نهاري الذي كان ممتعًا، ونغصت عليَّ راحتي وسعادتي بعد أن قطعتُ جلستي المدللة العظيمة مع الكتاب.. قبل اتصالك المنكود اللعين هذا!

- قهقهة وصاح: سأقول والله، انتظر فقط لأبلع ريقي اليابس بسببك، سأفصح... ثم أدرك: بدأتُ أكتب القصة، وما هو إلا سطران حتى أصابني العجز كمشلول، فتوقفتُ ولا أعلم.. لماذا؟.. حاولتُ إعادة

قراءة ما كتبتْ ركزتُ، ثم تشتت بصري وزاغ حول السطرين المنحوسين اليتيمين دون فائدة، أو رجاء، أو أمل التقدم أكثر حتى ظهرتْ خيبتي وبانتْ لي وكأنَّها حفرة كبيرة، تكفي لدفن عشرة أُسُّود أفريقية فيها، بل وجدتُ نفسي أحلم، كما يحلم إبليس في الجنة!!... عندها استسلمتُ لقدري، وقلتُ في سري: يجب أن أعترف وأمام نفسي بأنني لا أستطيع ولا أجيد كتابة القصة القصيرة، والدليل هو إخفاقي الذليل، وعرفتُ بعدها أن جموحي وطموحي لم يكن إلا فورة غضب غير مبررة... (توقف للحظة كي يستعيد أنفاسه، أو ربما ليتذكر ما يريد قوله بعد أن أعد له مسبقًا)، وأضاف.. صحيح أنا أقرأ كثيرًا، لكن ليس بالضرورة أن أكون أديبًا.. حتى قفزتْ أنتَ في ذاكرتي، ووسط كل هذه الأهوال والمصاعب.. قررتُ أن أعطيك الفكرة وما أريد قوله؛ لتكتبه قصة وبعدها أُهديك إياها، ثم هتف، وكأنَّه نسي نفسه.. ليس لديك من خيار، إما الرضوخ أو الرفض.. ها... ماذا تقول؟!.. هل ستكتبها؟.

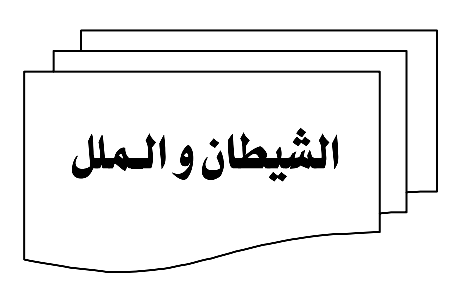
- (فترة سكون)، ثم كسرتُ حاجز الصمت بقولي: لماذا لا تحاول مرة أخرى؟، وكما قال ماوتسي تونغ زعيم الحملة الفلاحية التحريرية الصينية:" أولًا إخفاق ثم نجاح ثم إخفاق ثم نجاح "، وسألته بخبث ليس قليلًا: ها... ما رأيك بأن تعيد المحاولة؟!

- همس منكسر الخاطر قائلًا: لديك لسان يا صديقي له قدرة على نشر الخشب!، ثم هتف.. أعوذ بالله، منشارك خبيث وسليط!!، وأضاف.. سأترك موضوع القصة بين يديك، هذا أنعم وأكرم لي

وأرحم، ثم ودعني بحزن، قائلًا: سأبقى أقرأ لك كل ما تكتبه، لكن عدني، بأن لا تكتب عني مجددًا... وانقطع الخط.

قلتُ مندفعًا محدثًا نفسي كمَنْ به خبل: اعذر لي جنوني يا صديقي وربما هفوتي، ولكنني بالتأكيد سوف لن أفي بوعد؛ لذلك لا أعدك، فالكتابة هي خروج عن النمطية.. كره للرتابة.. صلاة للحركة.. السعي إلى الاستثناء؛ لأنه صعب.. والفوز لا يكون فوزًا إلا إذا كان الأمر صعبًا... هي حالة وليستْ جدل.. لحظة صراع شاردة مع الذات يتوهج فيها الخيال، يتقد وتستعر الشجون وتختلج، تحترق الكلمات وتلتهب، فتجدها سائحة دون إشارة أو إيعاز أو سلطة تسيرها.. وهذه الخواطر التي تمر، قد نمسك بها، وقد تتبخر وتتسامى كدخان في الهواء قبل القبض عليها، والذاكرة كما وصفها الكاتب الروسي تيشخوف.. دولاب المحفوظات "تلعب الدور الرئيسي في خزن تفاصيل الحلم من عدمه" (سرحتُ قليلًا مع ذاتي)، ثم أردفتُ.. كنتُ أتمنى أن يعرف أياد، بأن الخواطر تمر على جميع الناس كالفراشات الهائمة، ومَنْ يصطادها يجعلها سطورًا على الأوراق.. يكون له الحظ الأوفر بأن يكون كاتبًا، ومَنْ لم يستطع.. فهو يبقى من عامة الناس، أقصد يكتفون بتلك الهواجس وهي تمر أو تغزو أذهانهم دون الوقوف عندها أو تجسيدها على شكل عمل قصصي، فتطير منهم وهم لا يستطيعون اللحاق بها أو القبض عليها، وهذا ما حدث معك يا صاحبي بالضبط!!.. هذا يعني أنك صياد فاشل؛ لأنك حاولتْ الكتابة اكتسابًا وليس بالفطرة، ولم تجعل القلم هو الذي يفعل ما يريد دون أمر أو تنبيه منك، والكاتب هو صياد وصائغ في نفس الوقت.. يصطاد الأفكار ويصهر

الخواطر ويحولها إلى قصص وحكايات دون أن يعلم كيف؟!!..
آه... لو يعلم أياد، بأن الفكرة هي البرق الذي عمره لحظات معدودة، لكنه مذهل خطير كالرعد والصاعقة.. والكتابة هي تلك الومضة المتألقة المتوهجة التي يصعب رؤيتها إلا للحظات كعمر البرق، لكن أسرارها وخطرها يبقى كامنًا ليس له حدود أو حواجز كالأفق!... وبعد أن زهقتْ روحي بكل هذه الشروح والتساؤلات، قلتُ مستكينًا هادئًا، وكأنني لم أقل شيئًا: طريف صديقي أياد، هذا.. وما يعجبني فيه أنه كان صادقًا معي ومع نفسه وهو يتحدث عن مشكلته.. هذا يعني أنه لم يزوق الحروف ولم يكذب، كما يتنفس مثلما يحلو للبعض، وهم يسمون أنفسهم "وكلاء الله على الأرض"!!.



جلس الشيطان على حافة السرير متفكِّرًا، وهو يحرق هواجسه حطبًا لموقده، وناره تتوهج من غليان انفعالاته المتقدة المضطربة! عند الظهيرة، وهو يشعر باليأس والقنوط والملل الذي قلبَ نظام حياته التي لم يتعود فيها على أن يتذوق طعم الراحة والسكون والصمت والخذلان؛ كما هو الآن؛ أبدًا... نشاطه كان يُضرَب به الأمثال -الشيطان- ولكم أن تقدروا عظمته وسطوته عندما يستخف فيه الطرب، نراه يشمِّر عن ساعديه أكمام ثوبه التي تبدو كذيول الخيل!، وهو يلعب بأقدار الناس كيفما يشاء، ومتى ترغب روحه المتعطشة لفعل الشر!.

اليوم هو كسول، متراخٍ كالمدمن!.. ينام مبكرًا ويصحو متأخرًا، وكأنَّه شاخ ولم يعد تشغله لعبة الحياة أو لم يعد له مكان على الأرض.. وكلاهما شرٌ يرفض قبولهما، فالهدوء الذي ساد حياته في الأشهر الأخيرة دفعه إلى الحيرة والاستغراب بأمر هذه الأمة، فقال معاتبًا نفسه: ما هذا الخمول والجمود الذي يغلف أيامنا هذه؟!، ثم استطرد ناكرًا.. إنها ميول لا يتمتع بها إلا الأموات.. تبًا لهكذا حياة تسير كعربة قطار.. لا تخرج عن قضبانها، مملة ورتيبة وليس

هناك ثورات، أو تمرُّد، أو حتى احتجاجات تجعل الأرض تشتعل، والسماء تنظر فرحة بمنظر الكون وهو من تحتها يلتهب!، صمتَ برهة وكأنه يتذكر... وشرع يقول كمَنْ يقاضي نفسه كالمذنب: الدكتاتورية طالَ حكمها في أمتنا المجيدة العتيدة!،وجنح الناس في ظلها وتحت رحمتها تجترُّ معيشتها، وهي ساكنة قانعة تقبل بكل ما يؤمر بها كالعبيد.. كلُّ شيء متاح ومسموح به إلا الحريات!، والحريات في عُرفهم لا تُأكل، إذًا ليستْ من أولياتهم.. هذه هي فلسفتهم والعياذ بقدرة واجدي!، ثم صرخ بحزم بعد أن ضاق ذرعًا بالانتظار والصبر، وهذا ليس من طبعه: يا لها من شعوب نائمة لا تحب أن تستفيق كبركة ماء راكدة، يطفو على سطحها الطحالب الخضراء!!...

قطب حاجبيه وعبس، ثم سرتْ انفعالات شيطانية في جسده وكأنَّه يسخِّن نفسه؛ لجولته القادمة والتي يفكر في تنفيذها.. فانتصب واقفًا كوثني ينوي الصلاة، وصرخ بصرامة والزبد يخرج من فمه كجمل يرغي: حظي العاثر يجعل منِّي شيطانًا متكاسلًا، ولا أجد ما أفعله.. كل شيء مستتب، ولا أحد يستطيع أن يقول ثلث الثلاثة كام!... ثم دمدم: والمثل يقول (إلى أمه يتلهف اللهفان) عليهم اللعنة.. وضحك باستهتار متخاذلًا متقهقرًا، وهو يغمغم: عليك يا هذا.. إذا ضربتُ فأوجع، وإذا زمجرتُ فأسمع!، وهذا ما سأفعله بعينه.. ودقَّ على صدره وكأنَّه يجرِّب قوته، وقال: أنا دون هذا وفوق ما في نفوس الجميع.. وهو يقهقه هه... هه...هه... ويتغنى بعد أن عرف.. كيف يبدأ عمله بالمثل الذي يقول: إذا صاحتْ الدجاجة صياح الديك فلتذبح! ها...ها...ها...

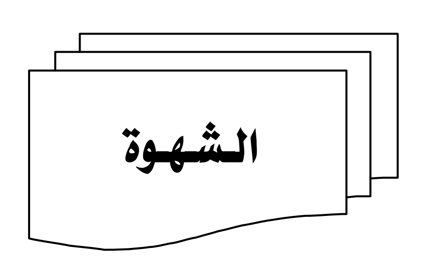
عندها سعل بشكل قبيح ومقزز، وكأن روحه ستخرج من فمه!، وهو يخطط لمشروعه الشيطاني ، تغيَّر لون وجهه واحمرتْ عيناه؛ لتبدو كجمرتين وتوهج كشعلة من النار.. ثم فجأة شعر بالارتياح وانبسطتْ أساريره، وإذا بملامحه تتفتح كزهرة عند الصباح، عجبًا.. كيف يستطيع هذا المجهول الغريب أن يكون في لحظة عبوسًا ومحتقنًا وكأنَّه سينفجر، وفي أخرى تنبعث من عينية أشعة فضية كنور إلهي خارق؟!!، عجيب وساحر... أمرٌ لا يصدق!...

ظلَّ واقفًا وبهدوء يدعو للتأمل والإعجاب.. انسدلتْ من حافة شفتيه ابتسامة ماكرة، وهو يدمدم: صحيح أن الحياة أكثر قسوة وشدة من البحر الهائج والنار المضرمة.. لكن الناس عاشوا بهدوء عجيب أقعدني عن أداء واجباتي تجاه خالقي ومنزلي!.. ثم قفز متناسيًا نفسه، وهو يقول بحدة: سأجعلهم قساة الفؤاد.. دنسي اللسان.. ذي قلوب كافرة بأرواح خبيثة شريرة تتلاطم في جوفها الأهواء والشهوات، وكله سأحققه وبسرعة جنونية من خلال الوصفة الشيطانية تحت اسم الدين!.. ثم أردف بتأثر وبحرقة وكأنَّ قلبه معهم!، وهو يقول: الدين... نعم، هو بعينه وليس هناك شيءٌ سواه!، فالدين كان وما يزال لعبة السحرة وهوس المجانين.. استطرد بتفاؤل: وهو ذاك.. الدين الأصيل الذي يفتت الصخر ويجعل الحديد يغلي كالماء..

ثم قهقه عاليًا وكأنَّه وجد ضالته التي يبحث عنها لرسم الشقاق وذر النفاق في وجوه الناس وقلوبهم!.. وأردف بحقد قاسي: سنرى.. مَنْ يستطيع الصمود بوجه الدين وأفكاره الجميلة...؟!..

ضحك بغلٍّ وهو ينشد: إذا كنت في قومٍ، فاحلب في إنائهم، واحلف بإلههم!، وإن مالتْ القوس فسهمي صائب..

ثم انفجر ضاحكًا، وهو يقول: سأخدعهم كالصبيان بالزبيبِ... ها...ها...ها.



الشهوة

دقَّ عبد الرزاق صدره بقبضة يده بقوة كمَنْ ركبه عفريت أزرق... وهو يصيح: يجب أن أفعلها الليلة!...

لم يكن عبد الرزاق سيء الأخلاق، بل تخرج في كلية الطب البيطري منذ سنتين، أنهى خدمته العسكرية قبل أشهر قليلة، حاول أن يجد عملًا في تخصصه ولم يجد، فبقي عاطلًا حائرًا خامدًا، يسكن مع وحدته التي تعوَّد عليها، ويداريها كحظه العاثر الكسير في غرفة فوق السطوح شبه عارية من الأثاث والأغراض قديمة مهدمة ومتهالكة، والتي يكاد يدكها الشهيق والزفير... كان عبد الرزاق قصير القامة.. ناعم العظام.. قليل الشعر.. أحمر الوجه.. وله شارب رفيع كالخيط، وغالبًا ما يخنق نفسه برباط جلدي أحمر اللون باهت كلون وجهه، مدعاة للسخرية من قِبل أصحابه وزملائه في الكلية قبل تخرجه، تلك التي لم يجن منها سوى الوحدة والفراغ والملل.. وماذا كان ينتظر من دراسته تلك؟.. فمتى كان الإنسان في شرقنا العربي محترمًا أو مقدرًا أو مراعًا؟!.. ومتى يصير لنا ذلك؟... عندها ربما يجد عبد الرزاق عملًا يأكل منه خبزًا، ويستطيع ممارسة عمله في تخصصه كطبيب بيطري... أكثر ما

كان يميزه ضحكته التي لها صوت قرقرة (النركيلة) في فورتها، لا يكملها... يقطعها عند منتصفها، يبتلعها ويدور بجسمه النحيف حول محوره نصف دورة، ثم يرجع إلى وضعه الذي كان عليه قبل أن يضحك، فيتراءى لمَنْ حوله في تلك اللحظة على أنه يمثل دور الساحرة العجوز!.

وفي ليل بارد النسمات، استيقظ الشيطان النائم في داخله فجأة، فبدا خارقًا ساديًا جامحًا هادرًا ومغرورًا، بعد أن نزت أحداقه عن شهوة حارقة.. تألقتْ وتوهجتْ واحمرتْ عيناه، ورجفتْ شفتاه ولعب ودار اللعاب في فمه دون سيطرة أو إرادة.. استوحش الأشياء كلها، ولم يعد يطيق الصبر، وكل ما كان يدور بعقله الذي استخف به طرب الشهوة المتقدة الحارة كحرارة جسمه المحموم، الذي يكاد ينفجر كبالونة لا تستوعب المزيد من الهواء، بل أصبح مختلج الشهوة كمرجل بخاري، لقد استولتْ النزوة على كل كيانه ولم يعد يستطيع الانتظار، أو النسيان، أو حتى الابتعاد عنها بعد أن ضاعتْ خطى التراجع، كالدموع عندما تنهمر لا يمكن إرجاعها إلى أحداقها لا فائدة من العدول، ولم يبقَ له إلا تحقيق رغبته؛ لإطفاء نزوته... هكذا انزلق عقله الباطن، ونشطتْ ثورته الجامحة نحو الفعل، وهو يخطط بثبات صارم لا يقهر وبعزيمة لا تلين أو تكسر.. وبذكاء وحنكة ومكر لا يجرؤ أيُّ شرير جالس في أسفل السلَّم على التخطيط له أو لاقترافه!!

انتصف الليل، همد الناس واستسلموا للرقاد كالقتلى.. بعد أن هدأتْ أرواحهم وسكنتْ حركاتهم، وعمَّ الصمت الحي الذي يقطنه عبد

الرزاق كله.. إلا من لهاث قلبه وصرخات نزوته وعضات الجوع التي تنهش جسمه وروحه التي تلوثتْ وتلونتْ بلون الخزي، وهو يرتجف تحت وطأة حمى الجنس... يمر عليه الوقت قاسيًا وبطيئًا حتى بدا أكثر توثبًا كالمجنون، وهو يردد: تلك الحسناء غادة، ما أجمل اسمها وصورتها النائمة لوحدها في عتمة الليل وسكونه، لابد من أنها تكون الآن عارية كحواء الأولى في انتظاري، بل ستفرح بقدومي وتأخذني بالأحضان حتى طلوع الفجر وبزوغ الشمس!.. سأجعلها تسمع طقطقة عظامها وهي تحتي تئن وتنوح.. لن يشفع لها شفيع ولا تنفع معها ضراعة.. ستعلم عندها.. ماذا يعني شبقي إليها ورغبتي فيها؟، وسأسقط في أذنيها كلمات جنس مكشوفة حتى أجعلها تحترق.. تتلوى.. تتعذب.. تتموج تحتي.. تذوب كشمعة؛ لتكوِّن شيئًا مسحوقًا.. لينًا.. ذائبًا.. رقيقًا كالعجين!، سنكون مثل قطرتي ماء عندما تندمجان؛ لتصبحا قطرة واحدة... حينها صرخ دون وعي: نعم، ما أحلانا... سنكون كتلة لحم واحدة!!، ثم تابع.. لقد سألتُ عنها، وكأنني أنوي الزواج منها في كل مكان، وقالوا:إنها تعيش بمفردها لوحدها بعد أن خطفتْ الحرب الأهلية زوجها، تلك التي اشتعلت بيت القوم على الهوية!.. قتل زوجها وليس لها أولاد، ثم تشجع فعلًا صوته مجددًا، وكأنَّه يطرب لكلماته: إذًا هي مثلي، وظروفها كظروفي، ماعدا أنها أرملة وأنا مازلتُ عازبًا... لابد أن جسدها يستعر الآن كما يشتعل جسدي، وتشتهي الجنس كما أشتهي، فلهبه يلفح ويحرق أجسادنا بناره المستعرة، التي تشبه نار جهنم.. سنموت حتمًا إذا لم نطفئها... ثم صاح بهوس: لابد أن نطفئها (قال

ذلك والزبد يخرج من فمه، كجمل يرغي)... وسط تلك الثورة الجهنمية، نظر إلى ساعته فلم يستطع قراءتها.. دقق النظر كمَنْ يعاني قصر النظر، فهتف: الواحدة ليلًا.. ما أجمل المقامرة والمجازفة والمغامرة.. في مثل هذا الوقت!!... ثم همس بصعوبة، وهو يحاول أن يبلع ريقه: سأضاجعها بقلب صامد لا يهاب ولا يخاف، سأجعل سريرها يهتز من تحتنا كمركب على سطح البحر في يوم عاصف، يعلو وينخفض فلا يعرف السكون طريقًا له، ستكون ليلة مليحة يذكرها التاريخ، بل سأجعلها تتذكر الواقعة كتاريخ يوم ولادتها!!... ثم واصل على نفس الوتيرة: كل شيء فيها مثير ويستثير.. عيناها، شفتاها، صوتها الساحر الآسر الموسيقي العذب، صدرها العامر الطري الناهض المشاكس، خصرها الضامر، جسمها المرمري الرشيق وحتى.. يا لها من امرأة خارقة الأنوثة! كمسرح من الخيال في حلم جنسي رائع؛ لفتى مراهق... انحلتْ أعصابه، بعد أن توترتْ وفقدتْ قوتها.. انصاعتْ للرغبة المحمومة بغية الارتواء، وكما يقال عند الإغريق القدماء: "عندما تتوازن الشهوة مع العقل، يكون المرء حينها سويًا"، لكن كفة عبد الرزاق انحرفتْ ومالتْ نحو الفعل والشهوة ونزقها وبات العقل، شيئًا منسيًا لا وجود له، بعد أن تجمع شبق الرجال الجياع فيه دفعة واحدة... فحدَّث نفسه، كأنما وعى فجأة: متى أنال منها؟!.. ماذا يرغمني أن أنتظر كل هذا الوقت؟!، وأنا الذي سأجعلها سكرى دون خمر.. بعد أن أسقيها بشفتي قبلات حارة ملتهبة كما المطر الساقط من السماء، سأرويها وأجعلها تموت بقبلاتي غرقًا، بعد أن

أزرع في جسدها قبلًا!.. بل ستعترف بأنها لم تتزوج من قبل، ولم تمارس الحب مع رجل من قبلي!!.... تردد قليلًا، وكأنَّه صحا على نفسه وسأل: مَنْ الذي يؤكد لي بأنها تنتظرني؟، بل مَنْ يقول بأنها تتحرق شوقًا مثلي؟، أو حتى موجودة لوحدها، كما سمعتْ؟!... ثم ضرب رأسه بقوة وصاح: ما هذه الهواجس النجسة التي قفزتْ في ذهني فجأة؟!.. تبًا لي ولحظي المنحوس الذي يأبى أن يقف ولو لمرة واحدة بجانبي!... ثم تابع بصرامة: لا محل للكلام الآن.. إلى العمل بل إلى الفعل، فمشاعري الجنسية قد استنفذتْ كل طاقتها ولم يبقَ سوى الترويح والتنفيس عنها، ولتحيا الغريزة وليصفق لي الشيطان، وليموت بعدها كل الأحياء الذين يتبجحون بأقوالهم، ونحن جياع!!... عندها نهض مسرعًا واتجه نحو سور السطح الذي يفصله عن حسنائه وغمغم مع نفسه: سأتعوذ بالله وأذهب، فإما أكون مفقودًا أو مولودًا؛ لأن أوصالي المتوترة لن تهدأ إلا بعد أن أتمم الفعل!... عندها سأشعر بالراحة والهمود، ونادى كأنما يدعو: لتتمرغ الكرامة بالتراب، لينتحر الكبرياء، ولتصعق الأخلاق، ليموت الكلام، وليبقى الفعل هو سيِّد الحياة وهدفها... عندها قفز من سور السطح المنخفض، والظلمة تملأ الفراغ وتبتلعه، والنجوم في سمائها عالقة وهي ساهرة، ربما تحب أن تشهد الواقعة؟!، وأسطح المنازل خاوية بأحجارها القديمة والآيلة للسقوط، والقمر يبتسم... تسلل عبد الرزاق كالفدائي... وسعى ينساب كالثعبان، وهو يفح ويلهث، ويردد دعاء كمؤمن بعد الصلاة: رعانا الله وحفظنا، أنتَ الحي القيوم.... عالج شباك غرفتها كالسارق، بأيدي مرتجفة خائفة،

ففتحه ولم يتوقع أن تسير معه الأمور بهذه السهولة... فتشجع وهو يلتهب من السعير الذي يتلجلج بداخله، وهو يتابع السطو.. وما إن حطت قدماه الأرض حتى جفل بالصرخة التي انطلقتْ من غادة، كصرخة وحش والنوم مازال عالقًا في جفنيها، وفي ذهنها بقايا من حلم مخيف مرعب لم ينته بعد: قف عندك!! لا تقترب أكثر... أُحذرك! فأسناني حادة.. قاطعة كحافة السكين التي أحملها... ثم تابعتْ بحزم وصرامة وبقلب شجاع وكأنها متدربة على هكذا مواقف: تأكد أن سكيني مجربة وموثوق منها!!.. سأقتلك، ولن أندم بل سأكون راضية تمامًا... ثم عدلتْ من هيئتها، وغطتْ صدرها بقميص النوم الملقى على السرير، وبحركة بهلوانية سريعة وخاطفة فتحتْ النور، وألقتْ نظرة خاطفة إليه... كان عبد الرزاق واجمًا ساهيًا، وواقفًا كجذع شجرة، صامتًا كصخرة الجبل، لا يحرك ساكنًا، بعد أن صدمته المباغتة التي لم يتوقع حدوثها... ثم حاول أن يرسم ابتسامة بريئة على وجهه، فخرجتْ بلهاء لا معنى لها، كأنها ندت عن رجل متورط مجنون جاء للسرقة، فوجد أصحاب الدار في انتظاره!! ((وهو يردد في سره، وبإيمان حقيقي خالص: أراهن على أنها تحتقرني... آه يا إلهي، أشعر بأن الخجل يمتصني.. يغرقني في بحره العميق، وكأنني أقف أمامها عاريًا، فأخجل من عُريي.. كم غريب هذا المخلوق الذي يدعي أنه إنسان!.. تراه في لحظة مارد كالوحش، وفي ذات الوقت مسكينًا كالطفل اليتيم... ثم استطرد في همسة - وهي تتأمله من فوق إلى تحت - وهو يتابع ترجمة هواجسه التي تحطمه في تلك اللحظة، لم أعد

أشتهيها!!، لقد زالتْ النزوة فجأة.. هدأتْ، بعد أن تلوتْ وهاجتْ ومن ثم ناحتْ وبكتْ وذرفتْ الدموع ونامتْ!.. نعم، لقد نامتْ الشهوة في داخلي كطفل بعد الشبع.. ولكن.. هل شبعتْ يا ترى حقًّا؟!.. تبًا لي وعلى هذه المغامرة الحقيرة، الدنيئة التي لا يرتكبها شرير من نسل إبليس))

- استفاق على صوتها الملائكي وهي تسأله بحدة: مَنْ أنت؟.. وما الذي جاء بك وبمثل هذا الوقت؟

- بهدوء مريض لا ينم عن عاقل في موقف كهذا، قال: أنا الطبيب البيطري عبد الرزاق، ثم تلكأ قائلًا: جئتُ.. في الحقيقة، أقصد... جئتُ لأحضنك!!

- ماذا؟.. وهي تصرخ ضاحكة!

- أجابها بنبرة تقطر أسى وخذلانًا، قلتُ: (وهو بالكاد يحاول بلع ريقه الناشف) سأقبلها، كما يفعل البحر مع الرمل على الساحل!، بل ذهبتُ إلى ما هو أبعد حيث تراءى لي أن البحر يترك رغوته وزبده على الشاطئ... ويرجع فرحًا بإنجازه العظيم!!

- كلامك يدخل قلبي سريعًا ويستقر فيه، فهو ينم عن عقل راجح مثقف، ويفهم في عالم وأسرار المرأة... ثم استطردتْ بدهاء وحنكة كعهد المرأة عند الشدائد: علاقة البحر والرمل.. لا تعرف الخفاء أو الخجل، فهي علاقة واضحة صريحة، وتمارس تحت نظر الشمس والقمر والناس.. دون خوف أو تردد!!

ـ ارتاح قليلًا لجوابها، وردد في سره ((هكذا هي الأنثى.. تريد ولا تريد، وعندما ترغب ليس من المحاولة الأولى، لكنها لو تأبى ليس هناك من قوة تستطيع أن ترغم المرأة على العطاء.. إذ يمكن لك أن تسحقها، تهشم رأسها، تغتصبها، تزرع في جسدها ما شئت.. لكنك لن تنتزع منها شيئًا هي لا تريد إعطاءه!!... ثم واصل همسه بشكل قاطع، تأكدتُ الآن بأنها ليستْ حسناء فقط بل سريعة البديهية، متقدة الذكاء كالظن، ومهيبة كالغابة، ومخيفة كالجحيم.. وكلماتها جاءتْ نافذة وسريعة كالطلقة))... ثم تباطأ في الرد مجبرًا، عندها أجاب بنبرة متوسلة كأنما يسترضيها: ما هي شروطك إذًا؟

ـ قالتْ بصوت مطمئن ناعم ومتناغم مع أنوثتها المتدفقة سحرًا وجمالًا: أن نكون مثل البحر والرمل!... ثم لاطفته مازحة.. بعد الشر عنك... ثم صمتتْ وحسبها انتهتْ... لكنها تابعتْ بحرص: أقصد بالحلال يا هذا، ولكن بعد أن نتعرف على بعضنا البعض جيدًا... ثم استطردتْ، وهي تغمز بخبث.. الخبرة والتجربة تقول ذلك، وليس أنا!.. وأكتم السر، فإذا تجاوزنا شاع!!... وتابعتْ كلامها الهادر الصريح بغية إحراجه.. ولكن.. لم تقل لي بعد... ماذا عن سلاحك؟!

ـ كان منتصبًا ثم مات! واستطرد.. أقصد... بكى وذرف الدموع، ثم وهن وخمد ومات!.. وواصل بجرأة شبه مصطنعة، لن يعاود الكره مرة أخرى وعلى هذه الشاكلة.

ـ أجابته بحسم: الشطر الثاني من جوابك أؤيدك فيه وأقول، لا تجعله يقظًا في أنصاف الليالي.. حذار أن تفعل ذلك ولا تخف،

فالخوف تحت الضغط يولد الجنون ـ والعياذ بالله!، وأنا لا أريدك جثة ولا مجنونًا... ثم سألته وكأنها تسأل نفسها: العمى.. لماذا لا يريد أن يفهم هذا الذي اقتحم عليَّ غرفتي فجأة هكذا كالقضاء والقدر؟!... ثم أدركتْ قائلة، كأنما تذكرتْ ما تريد قوله: ماذا تقول؟ لقد بكى وذرف الدموع!!.. إذًا احترس على ما تبقى!، وإلا ستسقط من سجلات الرجال!... وتابعتْ كلامها بثقة واعتداد.. من الظاهر أنك لم تسمع بأن المشنوق يفعل الشيء ذاته عندما يشنق!... ثم أردفتْ.. العوض على سلامتك!... ولكن، قل لي قبل أن أنسى: مَنْ الذي أمات سلاحك؟ (بابتسامة شيطانية)

ـ الخزي والشرف!!

ـ عجبًا.. شيئان نقيضان لا يتفقان أبدًا، كصراع رجلين على امرأة واحدة في غابة وهي عارية كما خلقها الله... تمامًا كالخجل والجسارة لا يتفقان أبدًا، ولابد لك أن تطلق أحدهما؛ لكي تنعم بالراحة مع الأخرى!!

ـ قال مقتضبًا، بعد أن تورم قلقه وكبر خجله ولم يعد يطيق الصبر: هو كذلك.. عواء الغريزة واللعنة مقابل العفة والطهارة مضافًا لهما الجمال والحكمة... لذلك سأعود كما أتيتْ.

ـ ابتسمتْ راضية وهي تقول: إذًا فكر فيما قلته لك.

ـ ماذا تقصدين؟

ـ تسلل، فالليل ستارًا للهرب، وأغلق الشباك من ورائك!!.. ولكن لا تنسَ أنك أتيتني جثة بلا روح!، وأنا لا أحب التعامل مع الأموات!! تعوَّذ بالله وارجع سالمًا.

ـ أجاب بحيرة وبنكد وبوجه مربد: لقد تعوَّذتُ بالله قبل أن آتي، وكما ترين لم ينفع التعويذ وربما حتى الصلاة!!.. جئتُ أطلب الحياة على يديك وأتذوق السعادة، فوجدتك حسناء بعقل نبي!!... ثم أردف متسائلًا: ولكن.. ماذا تقصدين، جثة بلا روح؟!

ـ قالت بغنج فاضح: أقصد.. أنك جئتْ جسدًا لا شعور فيه، يعني جثة (ثم تغلب الخبث الذي فيها على طيبتها وسحرها).. ربما لأنك فقير ومعدم وعاطل عن العمل يا... وهتفتْ: ماذا قلت لي؟.. ما اسمك؟... وتابعت بفخر صادق وبرصانة وحرص.. ها أنت تعترف بأننا معشر النساء أفضل منكم عقلًا ودينًا... ثم أردفتْ.. عليك في المستقبل أن تكون بارعًا خارقًا وأكثر حذرًا.. وإلا سيصادفك موقف هذه الليلة البارد، وكما ترى أبرد من الثلج وأقسى من الموت ذاته!، وكما يقول أحمد شوقي: "الغواني يغرهن الثناء"، وأنا لستُ بغانية كما رأيتْ... عندها عدلتْ من وقفتها، وبانتْ أكثر جمالًا رغم تعبها ونعاسها، وقالتْ: ستذهب ولكنك لن تستطيع النوم.. وهي تردد في الشرق: الواحد منا يحتاج إلى معجزة كي يستطيع أن يعيش!!.. لا بتعويذة بريئة!

ـ هل تعلمين الغيب أيضًا؟!... ثم همس في سره: يفعلها الله إن أراد!

- كلا، بل أعلم أن أصحاب الوجدان مثلك لهم حساسية دقيقة، نبيهة، متفتحة.. وهؤلاء يصعب عليهم النوم، فهم مشغولون بقضايا أكبر من همومهم الشخصية.

لملم ما تبقى في داخله من بقايا إرادة.. لم يتمرد أو يحتج، ولم ينبس.. انسحب بهدوء كالظل، بلا صوت كالسارق، خفيفًا كالريح التي تقبل وجهه وتدفعه برفق باتجاه غرفته.... خرج يعبر سور السطوح، فبدا وسط الظلمة وهو يتسلل كالشبح.. قافلًا إلى غرفته القديمة المتهدمة الآيلة إلى السقوط، والتي يكاد يدكها الشهيق والزفير... ثم جلس على حافة السرير وحاور نفسه خجلًا من غير كلام: لماذا؟.. هل لأنني حلمت حلمًا كبيرًا أم لأنني لم أكن مؤمنًا بقدرتي وشجاعتي بما يجعلني أفوز بما أريد؟!.. آه.. أشعر بالقهر والهزيمة والعار، لقد عمدني العار، فخرجتُ منه وأنا شيء أشبه باللعنة أو كالمحكوم بالنذالة، لقد تحوَّل خجلي إلى عار بعد أن تعمدتُ به!.. يجب أن أتحمله وأتعايش معه كالفقر.. علي أن أنتصر عليهما، ولكن.. كيف؟!، وأنا الطبيب البيطري العاطل عن العمل الساكن فوق السطوح والذي لا يعبأ به أحد، بل أكاد أجزم أن الدولة لو أرادتْ أن تحصي سكانها، سوف لن تعثر عليَّ!!، بل لن تتصور بأنني أسكن في غرفة كهذه!!.. فلن يتجرأ أحد على الصعود، سيخاف ويهاب الموت، بل سيقول: أن المدعو عبد الرزاق ميت مفقود لا وجود له، لا يحمل هوية تثبت شخصيته، بل ليس عراقيًا!!، وقد أكون إرهابيًا في نظرهم؛ لأنني أسكن وأتخفى هنا!!، ثم تمدد على السرير بغية النوم.. لكنه ظل قلقًا حائرًا متخاصمًا مع نفسه، يتقلب في فراشه كسمكة خرجتْ من الماء

لتوها، وهي تقاوم الموت سعيًا في الحياة... ثم بكى بتشنج مربك من العار الذي يرفضه حتى الذليل، وصاح بيأس: لقد صدق حدس الحسناء العجيبة، لقد فسرتْ فصدقتْ، وها أنا أتقلب ولا أعرف للنوم طريقًا، فيَّ قهر ولوعة لجوع البطن والجسد وكلاهما قاسٍ على الإنسان، لقد قالتْ لي غادة دون رياء.. جسد بلا روح، ولم يبقَ لي إلا أن أتوارى في حفرة... عندها شعر وفي تلك اللحظة بالذات.. بأنه غريب منبوذ كاليتيم العاجز... ثم هتف بحرقة ودون وعي: ما أقسى أن يشعر المرء بالغربة والوحدة واليتم، وهو في وطنه!!... في حين أطفأتْ غادة النور وعادتْ مجددًا تحاول النوم، ولكن النوم جفاها هي الأخرى... رددتْ مع نفسها بانفعال، وكأنها تنتقم.. مازلتُ لم أبع للشيطان جسدي ولا روحي... ثم بكتْ بألم وبصوت مكتوم، أخرس بلله التأثر.. ولم يغمض لها جفن.



في رحاب الكُفْر

أنا تركي.. أقصد اسمي تركي، والحقيقة التي تفقأ العين.. هي أن اسمي كان في الماضي تركي، وأبدلته بجليل بعد أن مارستُ الضغط على أهلي طويلًا.. حتى تحقق لي.. حلمي!

أتذكر جيدًا... بأن تركي كان رجلًا مجنونًا، يبيع البطيخ في محلتنا، عندما كنتُ صغيرًا وألعب في الطريق مع الأولاد.. لقد كان ذلك الرجل شيئًا مخيفًا عملاقًا، يرتدي دائمًا وأبدًا ثوبًا رماديًا وسخًا مرقعًا، ويتحزم بسكين حاد طويل تشبه السيف، يفتح فيها الرقي قبل بيعه.. له وجه أسود كوجه الغراب، مليء بحبات الجدري التي كانتْ بحجم حبات العدس.. لا دار له، فهو يعيش مع بضاعته في خيمة، لا ينام في الليل كالحارس خوفًا من السرقة، يوقد فانوسه الكازي ليلًا، فيبدو وهجه عن بعد كنجمة على الأرض، كان يركض وراءنا وهو ممتعض بعد أن يحمر وجهه ويلتهب.. فيتطاير الشرر من عينيه، وهو شاهر سيفه - أقصد سكينه الحاد الطويل - يصرخ ويشتم ويهدر، ويقول: يا أولاد الكلب، سأذبحكم بسكيني هذه، سأفتح بطونكم جميعًا، كما أفتح الرقي قبل بيعه... ثم يستطرد على نفس الوتيرة المهددة: أنا لستُ مجنونًا.. أنا عاقل، بل أعقل من

الكلاب الذين أنجبوكم... ننتشر سريعًا في الطريق كرذاذ المطر.. هاربين منه، ونحن نضحك ونصرخ والرعب راكبنا، ونهتف: هيه..تركي المجنون، صاحب الجدري المزيون... تشكلتْ عندي عقدتان: الخوف من تركي ومن الجنون؛ لذلك طلبتُ من أهلي وبإلحاح تغيير اسمي عندما كبرتُ!.. أصبح الجميع اليوم ينادونني بجليل؛ لأنني أرفض أن أكون مجنونًا ـ كصاحبنا ـ والسبب الآخر أردتُ أن أكسر طوق الخوف الذي يطوقني، وأنزع عني ثوب الرهبة الذي يلبسني من جراء الرعب الذي كان يسببه لنا.. عندما كان يركض وراءنا ونحن مازلنا صغارًا.. أردتُ أن أكون عاقلًا، وتركي- صاحب السكين ـ كان يقول عن نفسه أيضًا ذلك: أنا لستُ بمجنون... عندما كبرتُ ووعيتُ الحياة، استغربتُ كثيرًا.. فالكل وجدتهم يقولون نفس الشيء..ولا أحد يقول عن نفسه إنه مجنون، بل كل واحد منهم يقول: أنا العاقل الوحيد في هذا الكون!

في الحقيقة الحكاية ليستْ هذه، بل قصة أخرى تمامًا... إذًا لنرجع إلى موضوعنا الذي أريد أن أحدَّثكم عنه، ولنبدأ مرة أخرى من جديد.

أنا جليل، الذي حدثتكم عنه منذ قليل.. العقل في عُرفي هو النبض في عرقي كلاهما سر وجودي.. راوي وبطل حكاية ـ في رحاب الكفر ـ اعتمدتُ في سرد هذه الحكاية، القصد في العرض، وأعني البساطة التي أريد منها قلة العناصر التي تشكلها.. من شخوص، وأحداث، وتنوع في المناظر.. وها أنا أقول أني لم أسرد، أو أروِ للقارئ في هذه الحكاية أيَّ حساب كجندي مسكين دفعته إلى ساحة

قتال.. ساحة مليئة بالألغام كأنما ـ هنا ـ أتلذذ بموته!؛ لأصرخ بعدها دون اعتبار: لقد مات الجندي شهيدًا!!.. سأرويها بنفسي وأنا بطلها، سأنقلكم معي حيثما أريد وكيفما أشاء إلى عالم، وواقع الحكاية التي لم أحبذ فيها المبالغة، ولم أشأ أن تولد من الخيال تلك التي خالطتها وعايشتها عن كثب وقرب.. سأكون حرًا وأنا أرويها.. حيث العبرة والحكمة والرمز والخطر.

اتهمني يومًا- وأنا جليل صديقه الوحيد الذي ليس له غيره في عالم غربته – بالكفر.. عندما قال لي دون خجل أو وجل، وببراءة شيطانية عجيبة.. بحروف مقتضبة قاسية، وبصوت زجاجي دقيق وكريه: أنت يا صديقي، يا جليل.. كافر، لا تعرف الله!!... تقبلتُ منه ذلك، فقط لأنني أعرف نفسي جيدًا.. فسكتُ كناسك ولم أطالبه باعتذار، وكما قال حنا مينه: " شقاء الحياة يملأ الروح الحساسة سريعًا"... في نفس الوقت كنتُ أصلي داعيًا ألا تستفيق في رأسي أبالسة الأفكار الشيطانية، كي لا أنهره بقوة تجعلني أندم رغم استهتاره وتجاوزه في الحكم على الناس من خلال الدرهمين النحاسيين اللذين يرى العالم من خلالهما، اللذين يتوسطان رأسه الكبير الذي يشبه رأس جاموسة الفريزين الدنماركية، وبشعر كثيف مجعد لم يرَ الماء منذ زمن طويل، يذكرني شعره ـ ولا أعلم لماذا ـ بفروة جلد الخروف.... وجدته في خانة المؤمنين متدينًا حد القاع والنخاع، بلا ذقن أو شارب.. تجاوز الثلاثين قليلًا، لكن هيئته تجزم أنه في الخمسين.. له عينان دائريتان ضيقتان ـ كما قلتُ ـ كدرهمين مغروزين في جمجمة، وهما لا ينمان عن خوف أثناء التحديق

والنظر.. وبوز يشبه إلى حد كبير بوز سمكة الكارفن صارم النظرات كأنها لمجرم، أو كأنها سر من أسرار الجحيم، فيبدو وجهه وهو كذلك كوجه بوم ساهر مقهور بخدود سمينة دسمة طافحة باللحم بلا اعتدال أو جمال.. ممتلئ اللغد؛ ليجلس رأسه المتقهقر على رقبة لا تبدو للعيان، أو تظهر لاضمحلالها المعدم، فيتربع صدره العريض قامته الطويلة من فئة مترين وتزيد قليلًا كظل الأجساد، والواقفة على ساقين مقوسين كأنه يعاني من الكساح، وفي بعض الأحيان يوحي لي بأن في قلبه رحمة تشبه تلك التي يمتلكها رجال الأمن!!.. له اسم مركب خادع وغريب (أبو عجرمة).. اسم يهتف من ذاته ويصرخ في الوجوه دون مبرر كأنه لأحد زعماء القبائل العربية في عصر الجاهلية!.. تعلو عينيه وتتقدمهما نظارة طبية سوداء كبيرة سميكة العدسات كأنها لمجهر قديم معروض في متحف أثري يزوره الزوار.. ممتلئ الجسد، فلا يظهر من عظامه خط أو أثر وعندما يسير لا يهتز له رأس أو يميل كما هما ذراعاه؛ ليبدو كمومياء محنطة - إن صح القول - تمشي في نومها، وهي حالمة... كان قوي جدًا كثور المصارعة، يحب الأكل - عندما يكون مدعوًا - حد الشراهة كفيل أفريقي جائع خاصة الباذنجان، الذي يقول عنه: أنه وراء ذكاء كل عظيم في هذا العالم!.. تتدلى من إحدى حلقات حزامه ساعة فضية قديمة متهالكة بعقارب فسفورية مدببة النهايات تشبه الرماح، لها صوت قبيح مزعج كطنين الذباب القاصف ربطتْ من نهايتها بسلسلة من معدن رخيص أبيض اللون؛ لتنعم بدفء جيب بنطلونه من جهة اليمين، البنطلون الذي يحاكي

جلد التمساح الخام في خشونته - شيء مقرف ومقزز- يرتدي دائمًا وأبدًا قميصًا صيفًا وشتاءً دون شعور بالبرد أو الحرارة صنع من الكتان السميك، بأكمام طويلة؛ ليبدو أبو عجرمة وهو بداخله كالتركي بجاكيته خاصة عندما يخرج القميص؛ ليفرشه ويفرده على طوله فوق جسده فيبدو كالساحر، وهذا الذوق هو أكثر شيء منفر فيه بالإضافة إلى ضحكته التي يطلقها بين الحين والآخر، وربما في بعض الأحيان بلا سبب، فيبدو كثور هزه الطرب فتسمع ضحكته المتمردة على نفسها عن بعد، والتي لها صوت الماء المرشوش على قطعة الحديد المحمى.. وهذه في الحقيقة أتعس شيء لا أطيقه فيه، فهو يذكرني بضحك العفاريت عندما تتجمع؛ لتصلي صلاة الجماعة، وهي غائصة في سحر المتعة وفي قمة وتوهج اللذة وسط وحل من السفاهة والثرثرة... قلتُ بأنه متدين ودائم الصلاة خاصة بحضوري كأنما ينوي أو يريد تعذيبي!!، لا يطبخ طعامًا إلا في القدور الفافونية الصغيرة - بحجم جوز الهند - والتي يحتفظ بها لنفسه، فتشاركه زوجته الأكل بصحون لا يسمح لأحد الاقتراب منها أو لمسها، كذلك ملاعقهما وسكاكينهما ومقلاتهما السوداء المسحوقة التي علا قعرها وظهرها السخام.. كانتْ أشيائهما تلك خطوطًا حمراء لا يمكن تخطيها أو تجاهلها، وكأنها عدة للسحر أو لتحضير الأرواح التي تفسد بلمسها!!... تنتشر وترتفع من شبابيك منزله روائح عطور عيدان البخور والشموع التي يحرقها ليل نهار؛ ليبدو داره متألقة متوهجة وكأنَّه يعيش في كنيسة!.. مستمر التسبيح والترتيل ولا تبتعد كلمات تعاليم دينه عن لسانه لحظة أو

تنزل كالعلكة التي يلوكها ليل نهار، فهو يداريها في فمه كأحد أسنانه - تلك الأسنان التي يحتفظ بها كاملة دون نقص - ولعلَّه ينام مع زوجته تلك التي من نسل حواء اللعين، النوع المفرط في الخبث والعلكة لا تفارق مخدعها المعهود.. أغنانا الله عن إيمانه وعلمه وعلكته!!... وجدته ظالمًا لنفسه ولعائلته بحكم القهر، بحكم الغربة، بحكم الدين الواحد الذي يجمعنا واللغة المشتركة التي تقاسمنا الفهم في إدراكها، بحكم عراقيتنا وطبائعنا المتوحدة، بحكم أني إنسان وأحتاج إلى شيء حي أُحادثه وأجلس معه، أستمع له ويستمع لي، أنصحه وينصحني.. حتى بوجود أولادي وزوجتي - فهم مثلي ويفكرون بطريقتي - وجدناهم على طباعهم تلك من حيث التدين الحاد الصارم المتعصب.. أناسًا طيبين، بسطاء كالسذج؛ لذلك قبلنا صحبتهم، وقد شعروا هم بذلك جيدًا، وكانوا سعداء لقرارنا بلقائهم وحتى السفر معهم... الحقيقة أنه كان مسليًا؛ أقصد حديثه كان مسليًا.. وقد يعود ذلك لأفكاره أو ألفاظه، وفي كثير من الأحيان تشعر بأن التسلية تأتيك من قراراته القابلة للتغيير دائمًا - لا بالاختصار، بل بالإضافة - كأنما قوانينه المتغيرة والمضافة، ستصبح يومًا أكبر وأعظم من تلك المسلة التي نمجدها في تاريخنا البابلي العتيد!!.. مضحك رغم صرامته وحزمه وقد يكون؛ لأنه لم يصدق مع نفسه، ولا حتى في تعبير وجهه أو عمَّا يفصح عنه لسانه!.. ودود رغم نظراته الثلجية.. طفل رغم الإجرام الذي يلبس شكله!.. متدين رغم نوادره المكشوفة الخليعة الفاحشة في المزاح حول المرأة خاصة عندما يتحرر من قيود زوجته، أو أن يكون

بعيدًا عن مداها ومدارها.. المرأة التي لا يجد فيها - حسب زعمه - سوى جسد بثقبين!!، ثم ينفلت لسانه الذي كان قبل قليل لا يعرف سوى الترتيل، فيصف شوقه الجنسي للمرأة كمنحرف، فيبدو كقوَّاد محترف أو شاذ منغمس.. يا له من مارق، مارد عربيد، عار يأبى الموت أو الزوال، كالوشم!، وذنوبه لا يغفرها حتى غفار الذنوب نفسه!!... له عائلة كقبيلة النمل، تتكون من أربعة أولاد مازالوا دون السابعة، وبنت حديثة الولادة كالقطة في شكلها، وزوجة مغالية في الفخر والحماسة كزوجها؛ لتبدو مغرورة عن جهل!.. لها وجه أبيض يظهر بعد الطلاء والمساحيق.. غالبًا ما تردد حكمتها المعهودة: حظي مع أبي عجرمة سيء ولونه أسود من ظلمة القبر!.. عندما يباشران صلاتهما التي لا تنقطع.. لا يرمش لهما جفن.. يصطفان معًا وهما يدمدمان ويغمغمان وكأنهما يحضران روح متمردة على ذاتها صعبة المنال!.. عند الترتيل تظهر أصواتهما كصوت أغصان يابسة داس عليها أحدًا فطقطقتْ، فتجعل شعر اليد يقف مقشعرًا... في حين لو اندمج أبو عجرمة مع ذاته أثناء الصلاة.. يبدأ بالكلام والغمغمة والدمدمة بعصبية وتوقد فيحمر ويسخن كالجمرة.. عندها يظهر صوته أكثر قبحًا، كنهيق حمار في ختام جولته المسائية... تنتشر على جدران منزله العتيق صور لا حصر لها؛ لأنبياء وملائكة وسماوات تعلو وتنخفض كالوديان الظليلة، ثم تتوسط تلك المجموعة صورة - بالأبيض والأسود - لأبيه وأمه في ليلة زفافهما يشبه أباه كثيرًا، سبحان الخالق - صورة طبق الأصل - إلا اختلافًا واحدًا: هو أن الأب شبع موتًا، والابن

مازال حيًا يتابع صلاته التي لا تترك لنوم جفنه طريقًا!!.. يعيش حياة هادئة وديعة كحياة الأبقار التي لا هم لها سوى الأكل والمضغ والخور.. عندما يقفل الجوع إليها عائدًا ذليلًا!... لأبى عجرمة إرادة لا تقهر في العناد، أتعس وأحمق من عناد أي حمار أعرج يعيش على الأرض دون مرشد!!.. يعيش أشنع حالات البخل التي تصل في بعض الأحيان حد الإغماء - أي حالات ما قبل الموت - عندها يشعر قلبه بالرأفة، وروحه بالصعود إلى خالقها مقهورة الخاطر، متمردة على نفسه، فتتحرك أصابعه في جيبه!، ويبدأ بالدفع والصرف على مضض، وهو دائم القول والترديد: سأصبح، سأفعل، سأبلغ، سأتحدث، سأكون وكأنه سيعيش قرنين من الزمان!!.. مريض بالمستقبل والمجهول، كهوسه بالعين والجنِّ والحسد والنفس والشياطين.. لا يحيا الحاضر ولا يعرف كيف يعيش لحظاته؟.. إلا بالقسر والضرورة.. يتمسك بالماضي وكأنه حاضره!!... له في الحياة قوانين لم أسمع عنها من قبل؛ فهو ما ينفك أن يردد صباحًا مساءً: هذا حرام.. عقابه النار، دعك من هذا.. فهو من مس الشيطان، لا تفعل ذلك.. ليس أنت منه بمالك، وهكذا تطول قائمة المحرمات والممنوعات بذيولها وذنوبها وحتى حبالها ومشانقها - يتغنى بكل ذلك - كي يطرد عن أهله الإسراف في الصرف، وألَّا يجعل أصابع يده ترقص في جيبه!!.. شاب له رائحة الشيخوخة، وقاره لا يعود له، وما يقوله لا يفعله.. ببساطة تعيسة أصفه: لقد كان شيئًا لا يصدق.. كسر مغلق.. أجهل سطحه، فكيف لي الوقوف على قعره؟!، تعوَّد على نمط حياته تلك كمَنْ يألف

مرضه فيتعايش معه كصديق لا يستطيع فراقه!.. كان يوحى لي بأنه شيطان بهيئة ملاك، لا يهده تعب الصلاة وإحراق الشموع وعيدان البخور، لم ينفك عن ذكر الجنة والنار.. وقد تناسى أنه يعيش مع قبيلته على الأرض وهم جياع!!، وهل هناك أشد من الجوع لجة؟!.. أولاده كانوا مرضى.. مرضى بالجوع والقهر والحرمان.. ودواؤهم هو طعامهم، وهذا ما لم يوفر لهم، كما ضيوفهم الذين سرعان ما يشعرون بالبرد والحرارة بالجوع والعطش.. عندما تتخطى أقدامهم عتبة دارهم، سيريه الله العذاب في وقته من دون أن يحتاط له أو يعلم.

تركناهم وشأنهم، وقلنا ليعوضنا الله في صبرنا، وعلى مَنْ هم أفضل منهم.. حتى حانتْ ساعة الصفر تلك اللحظة التي رفعتْ فيها زوجته - ذات الوجه الأبيض بعد المساحيق والطلاء - سماعة هاتفهم، وهي تلهث كأنما تركض.. تبكي وتنوح وكأن أحدًا عزيزًا مات لها، تتوسل.. وتقول بتضرع ناسك: أرجوكم أنقذونا.. أنقذوا أولادنا من الموت والحسرة والألم والضياع؛ من قبضة وعناد زوجي اللئيم المكابر الغليظ.. التقطتْ أنفاسها الغائصة في أعماقها بصعوبة... ثم استطردت قائلة: لا تكونوا كأبي عجرمة، فهو لا قلب له ولا شعور كالحجر.

- قاطعتها قائلاً: هوني عليكِ يا عزيزتي، وكل مشكلة ولها حل.. اهدئي قليلًا واشرحي لي الحكاية من البداية، وكيف لي بعدها أن أساعدكم؟.. ولا تنسي بأننا ومنذ أكثر من ثلاث سنوات لم نلتقِ بكم!!

ـ اندفعتْ بالقول وكأنها لم تصدق كرمي: نريد أن نكون معكم، نتعلم منكم شيئًا غير الذي ألفناه طوال حياتنا المريضة العليلة الباردة وغير الصادقة هذه... توقفتْ للحظة، ثم شرعتْ قائلة كالطلقة: نريد أن نسافر معكم؛ لقضاء وقت ممتع وسعيد وبصحبة أولادنا... ها ماذا تقول؟!... ثم أجابتْ على صمتي كأنما سكوتي كان جوابًا بالموافقة: شكرًا لك يا جليل، ونعم الصديق، كنتُ أعرف أنك لن ترفض لي طلبًا ولن تتخلى عنا، مهما حصل منا... ثم تركتْ سماعة الهاتف تهوي على الأرض، وسمعتها تطلق الزغاريد وتهنئ أولادها وزوجها، وتزف لهم موافقتي التي لم أنطق بها بعد!!

لم أكذِّب خبرًا وقمتُ بكل ما يلزم.. ولم يأتِ الغد إلا والعائلتان معًا في طريقهما إلى إيطاليا.. حيث الجمال والسحر وفتنة الطبيعة الخلابة.. بجبالها وبحرها وسمائها وهوائها وشمسها وقمرها وناسها.. كل شيء فيها يدعو إلى التأمل والإبداع حتى أحجارها وصخورها الصامتة الساكنة التي تحولتْ إلى تماثيل ورموز، لكنها تنطق بالروعة والجمال وكأنها تصرخ متكلمة مُعبرة عمَّا تضمره من مشاعر فياضة، يمكن لها أن تغرق العالم بأسره بالحب والحنان والسحر الخفي... تعبتْ الشمس من ظهورها المستفز، الذي يبدو كرد لثأرٍ قديم!، فانسحبت ببطء.. فظهر وهجها الأحمر الذي كان يُرى من علو كحريق في الأفق.. قبل أن يغطس قرصها الذهبي كجمرة كبيرة في البحر... ثم احتل الظلام رويدًا الجبل الذي كنا نتسلَّقه بمركباتنا، ونحن نتوجه إلى الفندق الذي ينتظرنا والرابض

على قمة هرمه الشاهق في العلو القريب من قبة السماء، والله سيسمعنا هناك بكل تأكيد.. بوضوح ما بعده وضوح... لم أكن أعرف من قبل أن أبا عجرمة.. هذا الفيل الأفريقي الكبير، يخاف القيادة ليلًا!! خاصة ونحن كنا نسير صعودًا في فراغ طويل وعميق من السكون والصمت والظلمة التي بدتْ كحفرة كبيرة في ليل قاتم السواد.. الصمت الذي لم يزعجه أو يؤرقه سوى صراخ وقرقرة ونقيق الأصوات التي كان يطلقها محرك سيارة أبي عجرمة؛ ذلك الذي له رأس الجاموسة.. أراد قتلنا دون أن يعلم... بدأ بفتح الإضاءة العالية في مركبته والتي تعمي البصر، وأنا أتقدمه في المسير وعلى الجبل وفي الظلام الذي أنتشر سريعًا كالنمل على جثة قتيل!.. سرتُ في البداية بطيئًا خوفًا عليه، ثم سريعًا خوفًا على أنفسنا!!... فقد أصبحتُ أسيرًا كالأعمى، لا أرى ما أمامي إلا بالكاد.. ثم بدأ هو الآخر بإطلاق العنان لمركبته وغدا يسير بسرعة جنونية للحاق بي... عندها أوقفتُ الرتل، وترجلتُ من سيارتنا، وأنا من الحنق والتأثر في نهايته، توجهتُ إليه وسألته مباغتًا والدم في عروقي يفور كماء في قدر: ماذا دهاك يا أبا عجرمة؟!.. أتريد قتلنا أم الانتحار؟!

نظر لي بانكسار غير معهود، لم أعهده طبعًا فيه من قبل، وبعدم رضا من وراء نظارته السوداء اللعينة الكبيرة بعدساتها الخشنة السميكة المحدبة التي طالما كرهتها، كلما رأيتها نافرة ناطقة، متحدية مستفزة أمام ناظري!، وقال وهو يرتجف كذيل بقرة، وهي ترعى: نسيتُ أن أقول لك.. أقصد لم أنبهك، بأني لا أرى في

الليل!!... ثم غيَّر من لهجته قليلًا، وتشجع بشق النفس حينها ـ شعرتُ بأنه كان يمضغ شيئًا ـ وتذكرتُ العلكة، فشتمتُ نفسي سرًا، وصغرت لما جئت من أجله متحاملًا صابرًا والرتل واقف.. عندها أردف: أعني.. لم أتعود القيادة ليلًا وخاصة وكما ترى نحن قرب الله بقليل!!

استغفرتُ ربي، وسرتُ مجددًا، وأنا في حالة إعياء شديد، وقهر لم أستطع ترويضه ولو قليلًا.. ولكن منظر البحر من تحتنا والفندق في القمة يبدو كنجمة في السماء بإنارته المتألقة المتوهجة الجميلة.. رطب الروح وجعلها تشعر بالراحة، رغم الجهد الذي أبذله، اتقاء الأخطار وأنا أسير بمركبتنا أمام أبي عجرمة بإضاءة سيارته العالية المتوحشة.. فقلتُ محدثًا زوجتي وأولادي: انظروا إلى فوق.. ما أجمل هذا الحلم المسائي الرائع.. ابتسمنا بعد أن غزا السحر عيوننا، فطابتْ أنفسنا رويدًا، ونحن نقترب صعودًا.. أكثر فأكثر من النجوم في حضن ورحاب وأفق الله.

ركنتُ سيارتنا في مكان مخصص للوقوف، في طابق تحت الأرضي.. لقد كانتْ السيارات المركونة كثيرة جدًا، وقد صفتْ بطريقة تكاد تكون كقبور في مقبرة.. الواحدة جنب الأخرى، وما إن ترجلنا من سيارتنا، حتى سمعنا صوتًا عاليًا كالانفجار دوى في المكان.. اهتز له المكان كما قلوبنا.. شعرنا بالخوف والرهبة، برعب حقيقي جلس على كاهلنا كالحجر، ونحن ـ المتعبين ـ من السفر.. لم نكن نعلم من أين أتانا ذلك الصوت.. لكنه خرق آذاننا بكل وقاحة ودون استئذان!.. حتى سمعنا صوت أبي عجرمة، وهو

يهرع متوجهًا نحونا.. وهو يزفر.. يشخر.. يتنهد.. يتك كالساعة.. يدمدم ويهذي ويصرخ بانفعال وهوس كشخص ينوح ويبكي ويغمغم ويندب حظه.. وهو عائد من مقبرة، بعد أن دفن فيها عزيزًا عليه: جليل... يا عزيزي، يا صديقي... أنقذني أرجوك، فأنا في ورطة من أمري!!

- ماذا هناك، يا أبا عجرمة؟!... ثم أردفتُ بتوتر: لقد ترجلنا للتو من سيارتنا، وحتى حقائبنا مازالتْ نائمة في صندوق السيارة.. ماذا حصل.. تكلم؟!

- (يصرخ ويصيح كمَنْ لسعته نحلة) لقد.. أريد أن أقول.. أنني أبله، بل حمار أعرج بأذنين طويلتين.. ولم ينقصني إلا أن ينبت لي ذنب أترنم به من الخلف!!

- هدئ من روعك، وقل لي.. ماذا حصل؟.. وما هذا الصوت الذي دوى في المكان كالانفجار؟، ومن ثمَّ.. أين زوجتك وأولادك؟

- لا تخف يا صديقي كلهم بخير، بل لم يصب أحدهم بسوء، بل حتى كرشي وكما ترى لم ينبعج من أثر الصدام!!

- أيُّ صدام؟!.. لقد كنتُ ورائي قبل قليل، ولم أتركك لحظة واحدة.. حتى دخلنا هذا المكان المخصص للوقوف!

- في الحقيقة.. كانتْ السيارات قريبة من بعضها البعض كقضبان السجن، ولم أجد نفسي إلا وأنا أصطدم بالقضيب الذي بجانبي - أنتبه على كلامه غير الموزون - فصححه قائلًا: أقصد بالسيارة التي بجانبي دون أن أعلم، ثم صاح وهو مازال يعلك: تبًا لي من

حمار أحمق، أعرج وأعمى (قال ذلك وهو يلفظ كمَنْ يلفظ الروح دون ألم)

- سألته مباغتًا: ماذا أستطيع أن أفعل لك يا أبا عجرمة؟.. قل لي كل ما يدور بخلدك.. وإلا دعني أتصرف، بإبلاغ الشرطة وإجراء اللازم.

- الشرطة.. إجراء اللازم!! (قال ذلك مستغربًا، وهو في حالة من الهلع والذهول)

- نعم.. الشرطة، ومَنْ غيرهم المسئول عن هكذا حوادث؟! (قلتُ له ذلك ببرود مقصود، وبحلم وأناة)

عندها.. لم يشد ولم يرخ، لم يعطِ ولم يسحب ولم ينتظر طويلًا.. جفت عروقه اللينة الرطبة المسالمة الآمنة فجأة، واستيقظ الشيطان النائم في داخله، لقد كان شيطانًا عملاقًا مثله!... انزاحتْ روح الفضيلة التي كانت تغطيه ويتدثر بها كبرياء وبخلًا وحرصًا بسرعة كالحلم، نفض الغبار الذي كان يلوِّن به نفسه، نزع الجلد الذي كان يتقلده في لحظة ضعف.. في لحظة مواجهة حقيقية مع الحدث.. جلده الذي كان يتباهى به أمامي بغنج، كفروة نمر.. قذف به بعيدًا دون اكتراث لعريه، وهو يطلب منِّي بكل وقاحة أن أقود سيارته بعيدًا عن موقع الحادث؛ ليتخلص من جريمته التي اقترفها للتو!.. يدعوني إلى مشاركته في الجريمة، في رفع البصمات عن القتيل.. بعد أن تناسى سريعًا إيمانه العميق، وصلاته الطويلة التي لا تعرف لها نهاية.. وقدوره الفافونية الصغيرة ومقلاته السوداء، الزنجية.. نسى سكاكينه وملاعقه وشوكاته النظيفة - حسب زعمه -

المحرمة على الغير، حتى على صغاره.. نسى أو تناسى فجأة، ما قذفه في وجهي مرة دون خجل كأنما يبصق، قوله المزعوم بالكذب: أنت يا جليل.. يا صديقي كافر، لا تعرف الله!!

تعرى أبو عجرمة أمامي بكل وضوح، فرأيته كلوح زجاجي شفاف.. رأسه رأس شيطان.. وجسده جسد إنسان، له قلب من حجر وعقل حيوان.. مقته في تلك اللحظة كثيرًا، لكنني خاصمتُ نفسي أكثر!.. وكدتُ أبكي حالي ولم أفعل... علا في المكان صراخ وبكاء أولاده الصغار ودوتْ في رأسي المنهار آهاتهم وأنينهم.. وشعرتُ بدوار وغثيان وألم في معدتي يجرحني يعصرني يهرشني، ولم أعد أستطيع التفكير... دخلتْ كل تلك الهواجس القاسية فجأة في جسدي كشظايا قنبلة فاخترقته متألمًا.. حدثتُ نفسي سرًا، وبصمت: أنه من بلدي ومن ديني!! معي في رحلة، وزوجته توسلتْ بي وصاحتْ عبر الهاتف، رغم خبثها وأنانيتها المفرطة: أنقذنا.. أنقذ أولادنا.. أرجوك.. تذكرتُ كل هذا وأنا مازلتُ واقفًا أمامه لم أقرر بعد.. وأشد ما تأثرتُ من أحكامه المشوهة الغليظة القاسية والشريرة على المرأة، ووصفها على أنها - ثقبان في جسد - وقد تناسى الأبله المعتوه.. بأن المرأة إنسان قبل أن تكون كيانًا، عالم فسيح يحتاجه عاجلًا أم آجلًا، في الصحو والمرض، في الفرح والحزن، في الشقاء والسعادة، في الجوع والشبع.. تناسى بغفلة نادرة عمياء، بأنه لن يقوى على الحياة والصلاة من دونها.. عندها كرهته ولم أحقد عليه، وصمته بالجهل ولم أتعال عليه، بل تعاطفتُ معه، وقلتُ ليأخذه الشيطان ولم ادع له بالموت... ثم أفقتُ متكدرًا، ورغم الكدر

شعرتُ بالخجل ينتابني ولم أكابر، بل حصل العكس تمامًا.. رق قلبي له، شعرتُ في لحظة، بأن قلبي انكسر من أجله كجرة ماء! اقتنعتُ أخيرًا، بأنه لم يكن سوى أبي عجرمة، وهو يحيا حياته في رحاب الكفر وعلى طريقته!!، وبكل ما يحمل من نظرات صامته صارمة ثلجية تشع إجرامًا وغباء.. لكنني لم أرَ أمامي في تلك اللحظة إلا أبا عجرمة، وهو منهار مذعور خائف محايد، بل حمار أخرس.

تذكرتُ قول أحد أنبياء الله، عندما قال: "طوبى لبسطاء القلوب"، لويتُ عنقي بيدي، وقلتُ له برجاء وبصوت عذب رقيق: اجعل عائلتك تلحق بعائلتي حيث الفندق، وخذوا حقائبكم معكم.. ثم أعطني مفتاح السيارة.. وأنا سأتدبر الأمر.. وليسحقني الشيطان.



في مساءٍ خريفيٍّ متقلب النسمات، بين الخمول والنشاط؛ كالآراء والمعتقدات التي يحملها الإنسان العربي، ظلَّ حيدر قلقًا، ولكن كلابس ثوب الزور، أو كصحيفة المسنّ.. تشحذ ولا تقطع، متقلبًا ولا يستقر له قرار.

هكذا يقضى حيدر وقته وله الآن سنتان تقريبًا، وهو يعيش في الغربة، لكنه كان سعيدًا مغتبطًا ونادرًا ما نجده يصارع الهم.. يجادل بشكل صارم دون خجل أو وجل، كل مَنْ له رأي آخر في حياة الغربة!، ويحاول بكل ما أوتي من قوة وذكاء وفطنة أن يدافع عن مبادئه وآرائه التي يراها هي الحق، وما خلافها باطل!، فنراه يصيح كالمصعوق بأعلى صوته، وهو يدق الطاولة بقبضة يده ويقول: جهلاء.. لا يفهمون.. ماذا تعني الحرية؟.. وماذا يعني السلام في رحاب وأحضان الغربة؟!... ثم يردف مستنكرًا: إنهم منافقون حقًّا! يسكنون مجانًا، ويأكلون مجانًا، ويمارسون حقهم الإنساني في الحياة بكل سخاء دون مضايقة!، ومع ذلك يلعنون حياة الغربة ومَنْ فيها.. مستبدون ومنكرين للفضل، ثم يسبهم بكل احتقار.. وكأنهم مثل الذين لا يعلمون أيَّ أطرافهم أطول! قبحكم

الله... ويستطرد معلنًا وبدنه كله يهتز كأنه يمتطي ظهر تمساح.. آه..من شر الإنسان وخبثه، خاصة عندما يكفر في نعمته!... هكذا عرفه الجميع.. لسانه من رطب، ويده من خشب.. عاش وحيدًا منبوذًا كمَنْ يريد الحياة فيعتزلها!.. لا يقترب منه أحد لتلك الأفكار التي يحملها، ويطالب الآخرين باعتناقها والإيمان بصحتها هكذا على علتها، وسوء طالعها ودمار نتائجها حتى بات الجميع يصفونه بصديق العفاريت التي تسكن الطبقة السابعة تحت الأرض!... ويقولون في سرهم: حمدًا للرب، أنه لا يزال الناس بخير ما تباينوا، فإذا تساووا هلكوا!... لكن ما هو ملفت للنظر، كان حيدر دائم الشكوى من الأمراض التي يتخيل وجودها، بعد أن تفنن في أداء أدوار المرضى عندما يمرضون بشكل مرضي حقًّا، فما إن ينتابه هاجس المرض حتى يكون في أول النهار عند الدكتور الأخصائي، يشكو له ما يعانيه ويشرح واصفًا له مرضه بدقة تكاد مرضية هي الأخرى!، ثم يأخذ بنصائح الأطباء المخلصين حرفيًا دون تباطؤ، ويتناول الأدوية وكل ما يكتب له والفرح يغمره حتى النخاع، سعيد هو بإنجازاته التي يقول عنها: إنها فريدة وذو نوعية قلَّ أن يكون لها وجود عند أقراني!.. ثم يعترف دون ارتباك ـ كأنه أمام كاهن الاعتراف ـ بكل صدق بفضل الدولة التي تدفع كل تكاليف العلاج والأدوية... هزل جسده بشكل يثير العطف والشفقة لكل مَنْ يراه! كيفَ لا؟!، وقد غزا الشيطان عقله وتسللتْ الأوهام إلى قلبه، فبات يشكو من أمراض لا وجود لها بتاتًا في حياته!.. ثم يرجع قافلًا، يحدث نفسه مسرورًا وكأنَّه في ليلة زفافه: آه... سأرجع شابًا من بعد كبر!، فيوجه إصبعه الصغير نحو أنفه وكأنه يطرد ذبابه

تضايقه!.. يردف ويطمئن نفسه قائلًا: أنا الآن أتعالج عند أفضل الأطباء في العالم ذوي الخبرة العالية، ثم يتذكرهم وكأنَّه ينوي البكاء!.. يضيف متباهيًا: هم كُرماء جدًا معي في الأدوية، ولم يبخلوا عليَّ بطلب أبدًا، آه.. كم هم لطفاء معي!... وتتغير لهجته فجأة، فيقول متحمسًا مغتاظًا: ليأخذ الشيطان أطباءنا جميعًا، فما إن نشكو مرضًا أو نطلب منهم دواءً حتى نراهم كالعفاريت تتراكض أمام أعيننا دون أن نتأكد من وجودهم... ثم يردف وبدنه يرتجف وكأنَّه مصاب بالحمى؛ ليأتوا إلى هنا، وليشاهدوا بأمهات أعينهم؛ ليتعلموا كيف تمتطى الخيول؟!... ثم يلعنهم وهو مطمئن وراضٍ كل الرضا... ويستطرد قائلًا: تبًا لهم من أغبياء... يقهقه بندم كالمخدوع، وترتسم على شفتيه ابتسامة خامدة، وتنطق عيناه بنظرات شاردة كالحالم، وهو يغمغم: آه... أشعر ـ ويا للأسف ـ في هذه الأيام بالخدر في أسفل أقدامي، ورعشة طفيفة لم تكن موجودة في يدي، وهناك (وهو يشير بإصبعه نحو قلبه) وخزة قوية تنتابني بين الحين والآخر!.. تجعلني أموت في الحياة للحظات دون أن أشعر... ثم يرد على أسئلته بكل صرامة واعتداد كمحامي يترافع عن قضية: سأذهب غدًا إلى الدكتور وأشرح له الأعراض... فيردفُ مستطردًا: أعوذُ بالله، كيف أسكت على مثل هذه الأعراض؟.. ومن ثمَّ لن أدفع شيئًا، يا لي من غبي!، فالحياة ـ هنا ـ جميلة وممتعة، والناس يتمتعون بصحة جيدة وبقوة فائقة عن العادة، بفضل الطب وتقدُّمه... يقطب حاجبيه كالطفل الغاضب، وهو يقول: الله يرحم أيام زمان، عندما كنتُ في العراق!.. ندفع أجرة عملنا ليوم كامل لقاء فحص غير مجدٍ، ولا يأتي بنتيجة!... ثم

ينسى نفسه، فيقفز من مكانه وهو يصرخ كالملدوغ، فيشرح وجهة نظره بشغف.. سأتقدَّم من الدكتور بوقار وكأني وزير!.. أبدي له التحية وأشكو مرضي دفعة واحدة، إنهم أناسٌ أذكياء، يتلقفون الأشياء بسرعة كالسحرة!... ثم ينهار والألم يزحف إلى كل أطراف جسده، فيصيحُ بأعلى صوته كالغريق.. قدماي لم أعد أشعر بهما، تبًا لي.. لتأخذني العفاريت معها ولترميني في جوف الأرض، فأنا أموتُ فعلًا... ثم ينحسر صوته، يختنق بريقه، وبالكاد تنطق رئتاه بالشهيق والزفير، فتغمض عيناه بعناد دون خجل أو خوف منه؛ ليودع الحياة بإرادته!.. بعد أن أقنع نفسه كالأبله أن الحياة يمكن أن تصبح خالدة بكثير أو بقليل من الوهم!، وكما يقال: لا تسأل الصارخ ما به... بل انظر إلى ماله! .



حسنين الشَّيَّال

حدَّث نفسه كالمجذوب، وهو مازال يستحل الرصيف بحثًا عن حمَّال يساعده على أن ينقل له خزانته الرابضة في بيته كالصخرة من محل سكنه إلى محل رزقه.. هذا كل ما في الأمر يا ناس، يا هو.. صرخ دون انتباه أو قصد كأنَّه يكلم الناس ويدعوهم إلى وليمة، ولم يجبه أحد، كما لم يستجب لندائه حمَّال خاصة عندما انتصف النهار وما عاد ثائر، يتحمل الوقوف والصبر والانتظار... ثائر، شاب لم يتجاوز الثامنة عشرة من حصيلة حياته.. له أنف صغير دقيق كحبة بلوط زرعتْ في وجه.. عينان مكورتان كالخرز، يشع منهما بريق غير منتظر، ولنظراته حدة جلية صارمة كالتي تنطق بها عينا صقر.. أنيق المظهر.. حلو المعشر.. رقيق المشاعر كفتاة عذراء.. عذب اللسان.. خجول ومهذب، لكنه يحب المزح وصاحب نكتة، ويميل للهزل الساخر الهادف المتزن.. الذي يمرره من خلال جديته الحقيقية الصادقة.. مازال طالبًا عند الصباح، عاملًا عند المساء، إذ كان يدير متجرًا صغيرًا لبيع القطع الفضية التي تفنن في صنعها منذ كان صغيرًا... أتعبه الوقوف والتحديق بالناس، والشمس لا ترحم الساكنين تحتها، فكأنها تحاول

أن تستعيد عرشها المنهوب مجددًا بالقوة التي تمتلكها، وثائر.. أصرَّ على أن يكون كالثائر، فظل يسأل المارة وأصحاب المحال التجارية القريبة، إن كانوا يعرفوا أو يأتوا بأحدهم، ولم يحصل إلا على جواب بالنفي، بقولهم: لن تجد حمَّالًا له الوقت لمساعدتك!، فهم وفي مثل هذه الأجواء الحارة القائظه يزداد عليهم الطلب، حيث لا يستطيعون حتى من حك رؤوسهم أو أقفيتهم!!... صدقهم وهو يمص شفتيه اليابستين كأنهما قطعة حلوى، وبقي ينتظر كثور الساقية، قد يحنُّ عليه أحدهم أو أن يجده بحدسه، ولعلَّ بصوته... تائهًا أو جائعًا أو فارغ اليدين.. وطال صبره وقضم هواجسه.. التي باتتْ بعيدة التحقيق أو المنال، ولا أمل مرجو من الانتظار، فقرر العودة خالي اليدين، كحمَّال بلا عمل، لا يملك ما يحمله حتى تقرب منه أحدهم، وهو يصفر كأنما يشخر، يتغربل في مشيته كأنما يرقص، وقال بلهجة مصرية صعيدية متسائلًا، والفرحة تعلو محياه كأنما سيزف الليلة: أنت تبحث عن شيَّال(يا باشا)؟!

- كاد ثائر يفسد على المصري فرحته من خلال الضحك على منظره، الذي ذكره فجأة بفزاعة الطيور والغربان..ثم نظر له بتمعن، ومن خلال نظراته الحارة القاصفة لم يقتنع به تمامًا كشيَّال - كما قال، فاختار الصمت ولم يرد.

- تقربتْ فزاعة الطيور منه أكثر حتى أصبحتْ قُبالته، وكرر سؤاله: أنت تبحث عن شيَّال (يا باشا)؟!.. واستطرد بنفس الرنَّة، وكأنه تلقى الجواب: أنا هنا (يا بيه).. أنت لا تراني أم لا تراني؟!

- اخزِ الشيطان يا رجل، امشِ من هنا أرجوك.. دعني وشأني، فأنا أصلًا هنا لأتسلى، وليس لي ما أريد حمله أو نقله. (أجابه ثائر مقتضبًا وبانفعال)

- أجابه نائحًا: ولماذا أُخزيه؟.. وهل نحن سنعمل شيئًا وسخًا لا سامح الله؟!

لم يعد ثائر يطيق الرائحة النتنة العفنة التي كانتْ تنطلق من بين ثنايا فزاعة الطيور التي تصف نفسها بالقوة والحكمة، فتراجع قليلًا، وهو يهمس في سره: ما عافاك الله رغم قهرك!... ثم أردف: شيء بغيض.. مَنْ أين خرجتْ لي؟!

بدا ثائر أكثر هدوءًا، وحاول أن يروض أعصابه أو يهدئها ولو قليلًا دون فائدة، فقد كان داخله يغلي وخارجه معروق ومحروق كبركان ينوي الانفجار، فالحر كان لا يطاق ووقوفه الطويل أتعبه، ورائحة الفزاعة تزفر رائحة مميزة، لا يمكن السكوت عليها، أو تحملها طويلًا كتلك التي تنشرها جثة حمار نافق، متفسخ والذباب من حولها ينبش ويهبش! - ولو أراد إنصافه لشبه رائحته برائحة البول المختمر- فشرح له بكلمات بسيطة ما يدفعه للبحث عن حمَّال، وقال في نهاية حديثه المقتضب أصلًا: يا عزيزي، ليستْ عندي مشكلة، أن يكون الحمَّال عراقيًا أو مصريًا، أو حتى العفريت الأزرق شخصيًا، المهم هو أن يقوى على حمل الخزانة التي أنوي نقلها... ثم باغته بالسؤال: هل تعرف؟.. ماذا تعني خزانة؟

- نعم.. أنا أعرف.. الخزانة تسمى في بلدنا صندوق تمام (يا بيه)؟.. أليستْ هي كذلك؟!... ثم أردف مضيفًا: لا مؤاخذه تعني صندوقًا.. وهو يركز على حرف القاف كثيرًا، وكأنه يسعل قافات!!

- ما اسمك؟ (سأله برنَّة مصرية وبنبرة صعيدية دون أن ينتبه على نفسه)

- أنا خادمك.. حسنين الشيَّال.

- وما هو عملك.. يا حسنين؟!

- شيَّال(يا بيه).. شيَّال وروح المرحومة أمي. (قال ذلك برنَّة، وكأنه صبي تائه وهو يبكي)

- يا رجل، قل كلام آخر.. كي أصدقك!!.. إذًا وكما أرى ودون مؤاخذه يعني.. أنا لا أرى أمامي سوى فانوس (جاز) بفتيلة محروقة، ولم يبقَ منها سوى خيط محروق لا يقوى على الاشتعال! ثم انتبه إلى نفسه.. فحاول أن يلطف الأجواء التي توترت بينهما بسرعة دون قصد مسبوق، فحاول جاهدًا أن يجد ما يقوله لتخفيف وطأة ثقل الحديث، ولم يجد سوى ما هو أتعس، فقال: أقصد فانوس أظلم عتيق ومتهالك، لا يصلح للإضاءة أو الاستعمال!!

- ربنا يسامحك (يا بيه)... وهو يضحك بفم واسع، كفم تمساح مفتوح.

- يا حسنين، اتق الله فيما تقوله، فأنا أملك خزانة ثقيلة لا يزحزحها الشيطان بجلالة قدره..بينما أنت تريد حملها لا زحزحتها!!، وأنا لا

أراك سوى خفاش نائم معلق رأسه إلى الأرض، وأجنحته إلى الأعلى كخروف يراد سلخه!!

- لماذا تتكلم معي بهذه الطريقة؟!.. أنا لم أعمل لك شيئًا، ثم تنحنح وقال: هذا جزائي لأنني أريد مساعدتك وأنقل حاجتك؟

كاد ثائر يقول: أنت رجل عاقل يا خفاش، حد الغباء!.. لكنه عدل عن القول، وارتاح لذلك قليلًا، فأجابه: يقال بأن الجهل يؤدي إلى الخوف، والخوف يصلك إلى الكذب، والكذب سيِّد الشياطين!!.. ثم تراجع نصف خطوة -اتقاء الرائحة- وتابع: لا تزعل من صراحتي يا عم حسنين.. الحذر واجب، وأنا أخاف عليك لا على نفسي، فأنت بالتالي مَنْ سيتحمل عبء ووزن الخزانة.. ستأتي معي ولكن بشرط، أنا غير مسئول عمَّا سيحدث لك؟.. ثم همس بصوت لا يكاد يسمع كأنما يكلم نفسه: قصف الله رقبتك يا مهزوز، ستفضحنا وستكون رنَّة فضيحتنا، كرنة جناجل غجرية وهي ترقص!.. إنه من الظاهر لم يرَ نفسه بالمرآة منذ ولادته!.. إنه لا يتعدى على صليب من خشب منخور، مفروش عليه قطعة قماش مرقعة سوداء، لقد قلتُ ولم يعجبه وصفي.. فزاعة غربان، والله يا عم حسنين أنت في بلدكم يضعونك هناك.. في الحقل لتخويف الطيور منظرك وشكلك يدلان على هذا، ما ذنبي أنا؟!؛ لنجرب إذًا وكما تريد... ولسوف نرى!!

- هتف حسنين غير مصدق: اتفقنا (يا باشا).. حتى لو مت.. ماذا يعني؟.. فأنا في عداد الموتى!!

ـ لا تشرح لي ظروفك يا ممصوص، يا خشبه صليب، امشِ معي وأنت صامت، بع لي سكوتك يرحمك الله، ولكن تذكر وعدك.. ثم بلع كلماته التي قالها في سره، ولم ينطق بها: لا يسكن في قلبه سوى إبليس، ولا تتحرك أطرافه أصابعه إلا بإمرته، أنا أعرفهم جيدًا.. يفهمون في كل شيء، ولا يعرفون أي شيء، ولا يقتنعون بأنهم لا يقدرون!!.. شاء الله أن يجمعنا ـ هنا ـ بغير موعد.

استقلا تاكسي، وجلسا الواحد خلف الآخر، فبدأ ثائر بسؤاله هازلًا، تضييعًا للوقت: ألستْ يا عم حسنين مصريًا؟

ـ نعم(يا بيه) أنا من ريف أسوان.

ـ إذًا أنت شقيقي؟!

ـ نحن كلنا إخوة.. ثم أردف بثقة زائدة متملقًا: ألسنا مسلمين؟!

ـ لقد أخطأتْ يا شقيقي هذه المرة.. ثم استطرد ثائر بجد مازح قائلًا: نحن إخوه صحيح.. لكن اختلاف الدين لا يفسد علاقة الإنسان بأخيه.. أليس كذلك؟

ـ هذا صحيح (يا بيه).. ثم استطرد بفرح: في بلدنا أُناس كثيرون مسيحيون، ونعتبرهم أكثر من أهلنا.

ـ لذلك يا حسنين، سأناديك يا روح أخوك!!

ـ لم أفهم.

ـ أجابه ثائر وهو يمثل معه دور المتأثر بالرد: هذا أحسن.

ـ مازلتُ لم أفهم.

- انتهينا يا روح أخوك، قلتُ لك هكذا أفضل.

- قال مغمومًا: مادام الأمر يسعدك.. هكذا أحسن.. ثم عقب: ولماذا نفهم ونوجع رأسنا؟.. وتابع بقهر: حياتنا هناك.. في بلدنا لا تختلف كثيرًا عن حياة البهائم.. هل تصدق بالله؟

- (همس ثائر في سره: ليس كثيرًا).. لكنه رد عليه بصوت عالٍ موثوق منه قائلًا: نحمده؛ لأنني لستُ متعصبًا!!... لم يعر حسنين أهميه لقوله، وتابع ما يريد وبرنَّة ودودة ومتمسكنة وكأنَّه يشحذ: نحن أُناس نعلف الشعير كالبهائم!.. وتابع كلامه بانكسار ورغبة في البكاء: أصل الجوع سيء وقاس.. ثم أردف مغاليًا: نحن شعب لا نحب أن نجرب الحياة، يعني التجربة لنا كالخطيئة..أقصد دراويش (يا بيه)!!

- حاشاك الله!، ولكن لتعلم بأن الجهل كالجوع.. كلاهما ثقيلان!!.. ثم أشفق ثائر عليه فجأة، وشعر بالتعاطف معه.. تناسى رائحته البولية المختمرة، وتقبله هكذا على صدقه وبراءته.. ولم يكن ثائر يعرف - بحكم حداثة سنه - بأن الحياة والحكم على أحيائها لا يأتيان بسهولة ودون عراقيل.. ولكل شيء ثمن.

دخلا الدار سويًا، والخزانة في مكانها رابضة كالصخرة فوق جدار عريض من الأسمنت (تنظر لهما هادئة، مستهزئة وكأنها تعرف قوتها ومكانتها)... رفع الحمَّال ثوبه الأسود المرقع اليتيم على الأرجح، وعضه بقوة وكأن ثوبه سلسلة حديدية يريد قطعها كي يتحرر!، وأشار إلى ثائر وهو يتلفت حوله، كالمخدوع: سأجلس تحت الصندوق، محاذيًا له وللجدار الذي يحملها، ولا عليك سوى

دفعها على ظهري كي تستقر.. ثم أردف بوقار لا يعود إليه: وأنا بدوري سأتلقفها بيدي، لأجعلها تستقر على قفاي وكأنه ابني! سأحمل الصندوق وأركض به.. وسترى روح أخيك (يا باشا).. كم هي قوية وعزيزة!!

- (حدث ثائر نفسه) ستموت لا محالة.. سيقضي عليك صندوقي النحس التعيس هذا، أنا متأكد مما أقول.

تنحنح الحمال قليلًا، ثم ركع كأنما ينوي الصلاة محاذيًا للجدار.. وهو يترقب الآتي.. عندها تشجع ثائر قليلًا، وهو يعلم بأنها رغبة الممصوص، خفاش الليل، فزاعة الغربان.. ولم يعلم ثائر في تلك اللحظة الحاسمة التي ستقصم ظهر الحمَّال، إن كان قلبه قد رق له أم قسى.. ولم يتوان.. حتى دفع الخزانة صوب ظهر حسنين، والأخير قام بدوره كما وعد.. حتى تزحزحتْ الخزانة واستقرتْ تمامًا على ظهره، فأصبحتْ وكأنها طافية على سطح بحر تتمايل، لكنها لا تغرق!!.. لكن الأمر لم يسلم، كما توقع ثائر تمامًا.. تخاذل المقهور.. اضطرب كالمحشور ولم يجد مكانًا يتبول فيه!.. ترنح ثم تمدد على الأرض وكأنه يسبح، والخزانة فوقه... يصرخ ويصيح، كالديك وهو ينظر إلى ثائر جانبيًا، كالسمكة وبعينين عكرتين: أنقذوني.. سأموت يا ناس.. ارحموني.. أنزلوا هذه الجاموسة من على ظهري، يرحمكم الله.

- غمغم ثائر حائرًا مرتبكًا: كيف أساعدك؟!، وهو يردد بمهل: شيَّال على سن الرمح!!

- (يا بيه) أقبل يدك.. أنزل الصندوق من على ظهري أولًا، أرجوك، أتوسل إليك.. ومن ثمَّ اعمل بي ما يعجبك وما يحلو لك!!

- أجابه بنكد: يا روح أخوك، لو استطعتْ تنزيل الخزانة، كما تقول لسهل علي حملها وبالتالي نقلها.. وما كان علي البحث عن حمَّال، بل لماذا أنت هنا؟!

- صرخ مغتاظًا: أنا كلب ابن ستين كلب (يا بيه)، وكما ترى فأنا ما انقطعتْ عن النباح، أرجوك ساعدني (قال حسنين ذلك وهو مازال يتمتع بالموت تحت الخزانة)

- سأله ثائر بخبث شيطاني عجيب، وببرود قاسي أثقل من وزن الخزانة نفسها: سألتك قبل أن نأتي عن عملك، وقلت لي بأنك شيَّال، وقسمتْ بروح المرحومة أمك على ذلك، حصل؟

- حصل (يا باشا) (أجابه حسنين بسرعة الطلقة، وهو مازال يئن تحت الضغط)... ثم استطرد بانكسار ووهن: لقد كذبتُ عليك، وقلتُ لنفسي، رزق يا حسنين لا تتركه!، وهذا كل الذي حصل.. أقسم بالله العظيم.. هذا الذي حصل.. فقط.. فك وثاقي.. حررني من هذا الحمل الثقيل!

- وما هو عملك الحقيقي يا هيكل يا خشبي؟

- في بلدنا (يا بيه) أعطي حقن، يعني بلا مؤاخذة مضمد صحي.. وهنا أعمل في صيدلية مستشفى اليرموك، أُرتب الأدوية وأضعها في أماكنها وخاناتها ورفوفها.. ثم صرخ بقوة وهو يتأوه ويتألم، وكأنَّه يلفظ أنفاسه الأخيرة: دين الصندوق على الخزانة على

القاصة.. لم أعد أتحمل سأنفق كالحمار دون رحمة.. أنقذني أرجوك.. خلصني (يا بيه).. أجلّك الله وخلصك من ناره الحمراء (قال ذلك ومنظره أصبح مخيفًا جدًا، كخرقة مبلولة وجفتْ، بعد أن انحسر الدم في وجهه وازرق لونه وانقلبتْ سحنته، كأنما أحدهم دلق حبرًا عليه)

ـ وبدافع لعين، وجد ثائر نفسه يتعاطف معه من جديد، وهو يقول له بحزم وصدق: لن أتخلى عنك، ولن أمد لك لساني.. سآتي بمَنْ يساعدنا نحن الاثنين حالًا.. تحمل قليلًا.. سأجعلك ترتاح كمؤمن بعد الصلاة.. وهو يهمس في سره: لا ردك الله لي يومًا.. وهرع إلى الجيران يطلب العون منهم.

وما إن اعتدل الحال، وخرج حسنين من تحت الخزانة..حتى فرد طوله وحك قدميه في الأرض كالديك، ثم نفض عن ثوبه اليتيم المرقع، الغبار.. وصاح بثائر وبصوت جبار: اعذر تجاسري ومغامرتي البلهاء التي لم أحسب لها حسابًا، ولم أفرق بين الطين والعجين، قصف الله رقبتي وعمري.. لكنني سأركع تحت الصندوق من جديد.. ولنحاول مرة ثانية... ثم أردف متمتمًا، وكأنه يريد كسر الخوف والصمت: التكرار.. يعلم الحمار، مدَّ الله في عمرك، وأعلى من شأنك.. اجعلني أجرب مرةً أخرى.. وحق دين النبي!! .



في فجر شتاءٍ قارس البرودة، وجده يحيى الصابئي أمام عتبة باب داره ملفوفًا بقطعة قماش بيضاء، يبدو حديث الولادة، موضوعًا في سلة مصنوعة من أوراق سعف النخيل الصفراء، يرتجف ويبكي من الجوع والبرد دون انقطاع... انحنى الصابئي بعوده الرفيع ورفع الطفل الوليد برفق، كأبٍ يحمل ابنه المريض... عرف عن يحيى في منطقته التي يسكنها في الجزء الجنوبي من بغداد تحفظه الشديد في آرائه حول الأديان.. يحب دينه كثيرًا، ولا يرضى بغيره دينًا، رغم تحفظه وآرائه.. وغالبًا ما كان يردد شعاره الذي يتغنى به أينما وجد: الدين هو الأخلاق!، ثم يهتف بتفاخر عجيب: كن على خلق، فأنت مؤمن والله يحبك.. لقد كان الرجل وحيدًا، حيث ترمل بعد وفاة زوجته وهي مازالتْ في مقتبل العمر لم تلد له طفلًا، ولم يقبل بالزواج من بعدها بأيَّة امرأة أخرى.. لحين عثر على الطفل الذي وجده في ذلك الصباح الذي تلسع برودته كلسعة النحلة... حمله إلى داخل داره، وهو يتألم لمنظر الطفل المروع، قَبله ووضعه أمام الموقد في الغرفة الجانبية من مكتبه، وأعد له زجاجة من الحليب الدافئ، رضعها الصغير دون أن يأخذ نفسًا للراحة..

نظر الطفل إلى وجه يحيى وابتسم كابتسامة الصيني؛ لم يستطع الصابئي تحمل هذا المنظر، ذرف الدموع دون شعور، فسقطتْ على وجه الطفل.. ثم تورد وجه الرجل إشراقًا، مدَّ يده نحو الطفل برقة، فاستجاب الصغير له ورفع إصبعه الصغير الذي يشبه نواة التمر، فانحنى يحيى عليه وقبله مرةً أخرى وهو يخاطبه، كالراهب:

أمك تحبك كثيرا، فلا تغضبُ منها أبدًا... ثم استطرد بصدق وبسرور: ماذا أُسميك؟ سأُسميك رسولًا.. ما رأيك؟!... ثم أردف: رسول كلمة رائعة، فالرب بعث للبشر عدة رسل وأوصاهم بنشر العدل والحب على الأرض، ها... ماذا تقول؟!

- حرك الطفل قدمه بخفة، كرعشة عصفور مبلل.

- إذًا اتفقنا!

شبَ رسول قويًا ذكيًا مسالمًا في أحضان دار الصابئي.. له عينان واسعتان جميلتان وكأنهما تعودان لفتاة.. طيب القلب.. نقي السريرة واضحًا مباشرًا وصريح الحديث، وقد اعتادَ على عمله اليومي الذي يبدأ منذ الفجر وعند ظهور الخيوط الأولى من أشعة الشمس الذهبية التي تشبه سنابل القمح، يهمُ بالذهاب مباشرةً لأبيه يحيى، يساعده لاستقبال يوم جديد بفرح وهمة.. يكنس الدار.. يرتب أدوات المطبخ... بعد أن كان قد أنهى دعاءه بصمت وهو يقول في سره: يارب.. أنا لا أريد شيئًا، ولكن لا تجعل أبي يتألم في كبره، ولتكن حياة شيخوخته كلحظات غروب الشمس تنسحب وهي صامته، إنه يسعل كثيرًا هذه الأيام، إنه عبدك يارب جعلته ودودًا وطيبًا، فأعطه بمقدار ما يعطي، وخذ منه بنفس القصد.. آمين... ثم يذهب مودعًا،

إلى ورشة النجارة التي يتعلم فيها مهنة النجارة، والتي لا يعرف غيرها في الحياة.. بدأ منذ الصغر، وهو يفكر في أشياء تبدو له كبيرة وصعبة المنال، لكن لا شيء في الحياة مستحيل (هكذا كان يقول له أبوه) فيقنع نفسه بالتمني، ويسعد بأوقاته أثناء عمله.. خاصة تلك التي يقوم بحفر الخشب فيها؛ ليصنع منها لوحات جميلة مزخرفة، وبأحجام متنوعة تهدى مجانًا لبعض دور الأيتام والمستشفيات الخاصة، وفي إحدى الأيام طلب من أبيه أن يحضر له خارطة أفريقيا، فاستغرب أبوه، وقال: ماذا ستصنع بها؟

- سأقوم بنحتها.

- ولكن.. لماذا أفريقيا؟

- لأنني أريد زيارتها عندما أكبر وسأجمع من المال ما يكفي لرحلتي تلك.

- شيء جميل يا بني، عندما يحلم الإنسان بشيء ويود تحقيقه، وإن كان صعب المنال، سأحضر لك ما طلبته غدًا.

- شكرًا يا أبي، فأنا أحبك كثيرًا.

نحتها وعلقها في الممر المؤدي إلى الورشة.. لقد كانتْ رائعة، فقد استغرق نحتها خمس سنوات، بعد أن طعمها بأنواع كثيرة من الأخشاب والأحجار؛ لتكون في نهاية المطاف لوحة جميلة جدًا لا تقدر بثمن... أصبح عمره ثلاثين عامًا، التقى بأبيه كالعادة وكان في وعكة صحية، فسأله الأخير برقة: متى ستسافر إلى أفريقيا؟.. وهو يسعل كالمصاب بالسل.

- لدي الآن نصف المال، وعلي أن أجمع النصف الآخر.

ـ لكنك الآن في الثلاثين يا بني!

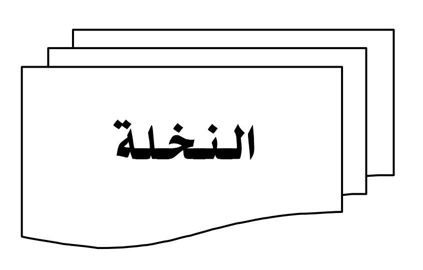
ـ أعلم ذلك يا أبي، لكنني مازلتُ أعيش الحياة، إذًا سأبقى أحلم.. وهو يقبل يده.

مات أبوه يحيى عن عمر ناهز الثامنة والثمانين، فيما كان ابنه يبلغ من العمر التاسعة والخمسين... في حين حادثة الوفاة سببتْ له أثرًا مؤلمًا وبالغًا في حياته، فهو لم يشعر بيد ترعاه كما كانتْ يده، ولم يسمع كلمة حب كما كان يجدها من أبيه، فقد عوضه عن حنان الأم المفقود قدر المستطاع، وأصبح له مثلًا يقتدي به، حتى بات يقلده دون شعور في الكثير من حركاته.. طريقته في الكلام.. مشيته الصامتة ، فقد كان يمشي وكأنه يزحف!.. بات يقضي أوقاتًا أكثر من ذي قبل في مكتب أبيه، وكأنَّه يعوض الفراغ الذي خلفه.. لكنه ظل يحلم ويجمع المال الذي سيسافر به لمشاهدة حلمه على أرض الواقع... شاخ رسول سريعًا، صار عجوزًا وهو في الخامسة والستين نحيفًا كعصا، فقرر السفر أخيرًا.. لم يأخذ معه سوى نقوده، ونظارته الكبيرة ذات الإطار الأسود، التي بدونها يصبح كالأعمى، فاستقل القطار الذي ينقله إلى سبر أغوار حلم حياته، لطالما سهر الليالي وهو يحاكي طيور أفريقيا، ويتغنى بأسماء فيلتها؛ ليعبر القارات من أجلها... بعد رحلة مهلكة لعجوز مثله، وفي شتاء بارد جدًا، لم يتوقعه أن يكون هكذا في أحر قارات العالم، وصل إلى عاصمة جنوب أفريقيا، وجهه منهك من النعاس والتعب ومعفر بالغبار، وشعره الذي بلون الرصاص، أشعث وكأنه ليفة استعملتْ كثيرًا في التدليك، أول قدم وضعها على أرض محطة القطار هي

اليمنى، بينما مازالتْ قدمه اليسرى على عتبة باب القطار، عندها استقبله مباشرةً، شاب أفريقي شبه عار، ومنظره يدل على أنه شحاذ، قال بصوت جهوري مسموع: أعطني يا أبي يدك سأساعدك في النزول، رفع بصره؛ ليرى رجلًا كالفيل، لكنه جائعٌ جدًا؛ لأنه رآه وهو يرتعش رغم ضخامته، سلم يده بكل ثقة وأمانة، لكنه تفاجأ عندما رفع الشاب عليه سكينة جيب صغيرة يكسوها الصدأ، لا يمكن لها حتى أن تجرح طيرًا، فقال له آمرًا: أعطني ما تملك يا هذا، إنك لا تحتاج إلى النقود وأنتَ بهذا العمر، فكم ستعيش بعد الآن؟.. هيا... أعطني مالك وإلا قتلتك!

ـ ابتسم له رسول ومدَّ يده في جيبه؛ ليخرج ما جمعه من مال طوال خمسة وستين عامًا، وقدمها له، وهو يقول: خذه يا بني؛ لأنك فعلًا بحاجة له أكثر منِّي.

ـ لم يصدق الشاب الأفريقي نفسه، فإنه سيحصل على نقود كثيرة وبهذه السرعة... بدون أي إصابات أو جروح، ولا ندب ودماء وآثار!... أخذ النقود كلها، وهمَ بالفرار وهو مذهول من المفاجأة، لكن رسول استوقفه وخاطبه بلطف:لحظة من فضلك، إني أراك ترتجف من البرد، ستموت لو بقيتْ هكذا عريان! خذ هذا.. فنزع عنه معطفه، وهو يبتسم كشمس الصبح، وهو يرى حلم حياته ينساب ويتسرب من غربال عريض الفتحات؛ ليسأل المارة برجاء أبوي: أرجوكم ـ بالله عليكم ـ قولوا لي.. أين هي القنصلية العراقية؟.. وكلمات أبيه ترنُّ في أذنيه كالطنين: الدين هو الأخلاق، كن على خلق، فأنت مؤمن ويحبك الله.



النخلة

بين ليلةٍ وضُحاها.. أصبح بلد عرق واق، عبارة عن بركة ماء راكدة لا يصلح لشيء بعد، ولا ينمو فيه سوى الطحالب الخضراء العقيمة ويطوف في أجوائها البق مصاص الدماء اللعين، وبعض الضفادع التي لا ينقطع نقيقها أبدًا.. ومع ذلك جاؤوا بالنخلة، لديهم ثمة أمل.. ربما؟، أو مازالتْ بقايا من حلم سرمدي أبيض معلق في أذهانهم؟.. كل شيء جائز في بلد أصبح بركة ماء راكدة كما قلتُ... حضروا وهم يدمدمون ويغمغمون، مطأطئين الرؤوس حاملين النخلة وكأنهم يسيرون بجنازة والمرحوم على أكتافهم.. ثم عند نقطة تقاطع ولايات البلد الأربعة حديثة التقسيم، طرحوا النخلة على الأرض، فبدتْ وهي ممدودة كعملاق نائم، بائس وحزين، جائع وعطشان، فاستسلم للرقاد.. والقوم حولها يتناقشون بأصوات مزمجرة، بنظرات لا ترحم وكأنها صادرة عن أشخاص جاؤوا لينتقموا، دون إشفاق لحال النخلة، وهم يرددون كالنشيج: أين سنزرعها؟!... من بين الجموع المتجمعة، علا صوت جنباوي الذي يتمتع بشارب قروي غليظ طلي حديثًا بلون أسود جيري غامق!.. صاح عاليًا، هادرًا في الأفق الأصفر الترابي، وهو يرفع إصبعه

الأوسط وسبابتيه المعقوفتين كالملقط في الهواء، بعد أن عدَّل من عِقاله الذي كاد يسقط من على رأسه الأشيب: لا يمكن أبدًا، فالثورة بدأتْ من هذه الأرض الطاهرة، ثم أدرك وملقطه اللعين مازال معلق في الفراغ.. أرضنا خصبة وصالحة للزراعة، ومياهنا عذبة رقراقة كمياه الجنة، إذًا لابد للنخلة أن تزرع هنا.

- رد عليه شملاوي بلهجة نصف عربية، وهو يزفر بعد أن داهمه التعب وتربه الغبار، وكرشه بارز عن جسمه بنصف متر تقريبًا، كما يتوسط وجهه أنفًا كبيرًا يشبه أُذن ابن آوى إلى حدٍ ما: هذا الكلام غير صحيح، أخي.. لقد كنا ضد الاستعمار وحاربناهم بكل ما نملك من دهاء وقوة، بدءًا من أرضنا... ثم أردف (بدا وكأنه يغني موالًا).. وجبالنا مازالتْ شاهدة على ما أقول؛ لذلك يجب أن تزرع النخلة في أرضنا.. ثم سكت فجأة، وكأنه أصيب بسكتة قلبية.

- لملم غرباوي عباءته ورفعها على كتفه بوقار وعصبية، فنثر الغبار الذي كان يطليها على الواقفين حوله دون اكتراث، وخطب صائحًا، وتجاعيد جلد وجهه التي تشبه تلك الموجودة في فخذ امرأة في الثمانين!.. ترتفع وتنخفض، تتمدد وتتقلص مع كل حركة يقوم بها أثناء الحديث: صحراؤنا مازالتْ هي الأصل في كل شيء، منها وعليها عبر أشرف الرجال في التاريخ، ومنها وسمتْ ورسمتْ معالم العالم الحديث، ولولاها لما كنا هنا واقفين... ثم استطرد بنفس الحماس.. فأنا لا أرضى إلا أن تزرع هذه النخلة - هنا - والتي ستكون رمزًا لبلدنا وعلمًا عاليًا يرفرف على كل الآفاق.

ـ فح شرقاوي كالثعبان، وهدر هاتفًا كالرعد: نحن أبناء وأصحاب هذه الأرض الطيبة التي منها بزغتْ كل العلوم والآداب والفلسفة، والله والتاريخ شاهدان على ما أقول، فلا نقاش ولا تفاوض في هذا الموضوع... ثم تابع غامزًا بمكر.. أنتم تعرفون ما أعني ومَنْ نحن... والنخلة لا تزرع إلا هنا والسلام!!

ظلتْ المناورات والمناوشات والجدل والزجر بين الفرقاء الأربعة، ولم يحدث شيء، ولم يتوصلوا إلى رأي محدد في أيِّ أرض تزرع النخلة... في حين بقيتْ النخلة عطشى، تريد أن ترتاح في أرضها، فهي لا يمكن لها المكوث هكذا طويلًا، ممدودة كالساقية الجافة.. ستموت حتمًا، تنظر لهم وهي حزينة، تبكي بصمت، تتألم في داخلها ولا تستطيع أن تعبر عمَّا يجول في خاطرها، فهي وحيدة كسيرة، لا تستطيع الوقوف إلا على الأرض، والأرض مازالوا يتنازعون عليها... انتصب أحد العقلاء، كالرمح وسطهم وصرخ بالقوم: لا تخافوا لا تهابوا، فالعاقل لا يرفع السلاح.. منطقه الكلمة وطريقه الكفاح.. وجهه سمح ونظرته صلاح... ثم سألهم بامتعاض: لماذا لا نحل هذا الموضوع الشائك سلميًا؟!

ـ صاح الأربعة بصوت واحد، وكأنهم يزغردون: كيف يا عاقل؟

ـ لنأخذ من التاريخ عبرة!!

ـ صاح جنباوي به، بعد أن اشتعلتْ عيناه بالغضب: كيف يا عاقل؟ قل ما تريد قوله وخلصنا، يأخذ عزرائيل روحك قبل أوانها.

ـ أجابهم العاقل بغرور مفتعل: لنفعل كما فعل محمد من قبل.. عندما بني للمسلمين أول مسجد، احتكم لناقته وأنتم تعلمون، ثم صمت

وهو يقرب ما بين عينيه ويغمز... تقدم منه كرش شملاوي أولًا وقال له هازئًا نكيًا، وأنفه يتمايل لضخامته: ومن أين نأتي بجمل؟... ثم تابع.. فزمن الجمال ولى ومات.. دلنا يا عاقل على حل سلمي آخر.

- أجابه العاقل سريعًا وهو يتلمظ: لنستدل بحمار بدل الجمل... ثم استطرد بفرح.. أنا لا أرى مشكلة هنا، فالناقة حيوان والحمار كذلك.. المهم أن نحل الصراع الدائر عن طريق تدخل الحيوان.. هذا هو المهم... ثم صاح، بعد أن نسى نفسه.. أليس كذلك؟!

بدا على الوجوه الامتعاض وعدم الرضا، ثم تنحنح جنباوي وقال: أنا لا أثق كثيرًا بالحمير... ثم تابع.. عُنُد وأغبياء.. ومن ثمَّ الحمار لا يعرف الجلوس إلا ما ندر وشذ، وهذه مشكلة، فالحمار يعمل ويأكل وينام وهو واقف، فكيف سنستدل على الأرض التي نزرع فيها النخلة والحال هكذا؟... ثم صرخ بهم منفعلًا.. ها... هل منكم من يجيب؟.. والله سيسير بنا الحمار إلى ما شاء الله أو أن يقف، كالصنم لا يأتي بحركة.. وعلى مزاجه، حمار.. ماذا نقول؟... ثم واصل.. أنا لا أوافق، وأفضل أن يكون كلبًا، وأرضنا مشهورة بكلابها الأليفة والمسعورة، نختار منها ما يناسبنا، ثم أنهى خطبته بكلمة، يا ساتر، لا نطلب سوى عفوك ومن ثمَّ رحمتك!!... تدخل شملاوي وهو يلهث، وزمجر: ماذا تقول؟ نحتكم ونمتثل إلى كلب؟! على جثتي.. لا.. لن يكون، ثم أردف، إذا كان ولابد من التحكم إلى حكمة حيوان، فلنأتِ ببغل من بغالنا الجبلية العتيقة العريقة القوية التي لا تتذمر أو تمل أو تتعب.. فهي رفيقة كفاحنا الطويل وحاملة

متاعنا وهمومنا، لذلك أرشح البغل على الكلب، ثم قال مستهزئًا، كلب... قال!!... نكث غرباوي عباءته مرة أخرى، فأثار عاصفة من التراب، وقال بعد أن استعاذ بالله ثلاثًا: أما إن يكون أحد ثعالبنا الصحراوية أو لا يكون!!، فهذا حيواننا وهو الذي أرهب أعداءنا، وبه نستدل... ثم عقب متممًا.. أراهم يريدون تلويث شرف تاريخنا؟ لا.. لن يكون لهم هذا ما دمتُ حيًا... مص شرقاوي شفتيه، وخطب: أقسم بالله العظيم.. أن كل ما جاء فهو افتراء على الحقيقة.. ثم واصل بنفس النغمة، فكل تلك الحيوانات ليستْ راقية وغير جديرة بالتقدير أو الاحترام، فهي لا تنفع بشيء، ونحن وحسب علومنا وإنسانيتنا التي ترعرعنا عليها، لا نرضى ولا نؤمن إلا بالخراف، فهي صديقة الإنسان ومطعمته وليس لنا غيرها... ثم دعا ـ حفظها الله لنا من كل سوء!!... تقدم العاقل منهم مهمومًا، بعد أن فشلتْ فكرته فشلًا ذريعًا، فصاح بهم دون حذر: يقولون اسمع كلام الواعظ ولا تفعل ما يفعله!!.. إنكم يا إخوان جميعكم تكذبون، تقولون نعمل لكم ولمصلحتكم وهذا غير صحيح، ومصيبتنا هي أننا نصدقكم وننتظر أفعالكم.. ولكن إذا بقي الحال كما هو عليه (وهو يصرخ وكأنه يجرب حنجرته)..فلن نستطيع زرع هذه النخلة ولا حتى غيرها.

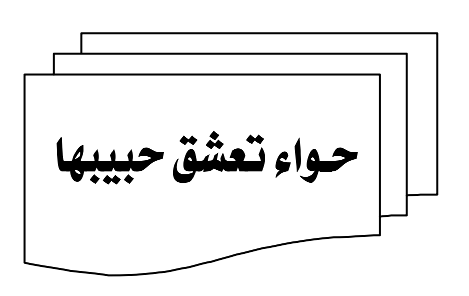
ـ هتف الزعماء الأربعة بنسق واحد وكأنهم ينشدون: بلا، سنتفق وسنزرع النخلة، ولكن لا تغضب!

ـ أجابهم العاقل بمكر غائم غير واضح، بعد أن استيقظ الخبيث الذي كان نائمًا في داخله، فأصبح كالمسخ ممتقعًا شريرًا، لا يعرف

ما يضمره وما يختلج به قلبه من هواجس كإبليس بعد أن مسح الكتابة المقروءة على صفحة وجهه: ما دام الأمر كذلك، إذًا اسمعوا ما سأقوله لكم، وأنا متأكد بأنكم ستصفقون لهذه الفكرة وترقصون لها، داعين لي بكل ما يطيب النفس ويلذ الجسد.

- قاطعوه برنَّة مستغيثة وبصوت مبحوح: قل ما تريد قوله يا عاقل... ثم ناحوا.. خلصنا وليأخذ عزرائيل روحك؛ ليستطيب بها ويفرح!

- همس في سره، علي وعلى أعدائي.. لعناء كالبق الذي يسرح ويمرح في آفاقهم، خسف الله بهم الأرض الواقفين عليها، كما خسفها بقارون، ثم نوه بنوع من المباهاة، وقال: لنحتكم إذًا للقوة، توقف قليلًا ليجس وقع كلماته عليهم... ثم تابع.. تلك اللغة التي تجيدون النطق بها، بل تحبونها كأولادكم وربما أكثر!!، وكل رئيس منكم.. يدفع برجل، والخاسر أو المتقهقر أو الذي يموت.. تنتهي مهمته، والفائز ومَنْ يبقى في الحلبة.. تزرع في أرضه النخلة... وعندها هتف بجسارة: ها... ماذا تقولون؟!.. في حين ظلتْ النخلة ممدودة على حالها، يبس سعفها واصفر لونها، وهي تئن وتنوح بصمت جنائزي مكبوت وهي تسمع مجروحة.. صهيل الموت.



تعرف نرمين زوجها جيدًا، فهو من النوع الأول الذي يُقال عنه "إنسان من فئة الناس" لا كائن من صِنف البشر! في ناموسها تمقتُ الذين يدبون على الأرض.. كالقطط، كائنات حية، بشرية، لكنهم قطط تائهة تعيش حياتها بطولها وعرضها من أجل الأكل والشرب والتكاثر.. لكن زوجها هزار كان مختلفًا.. رجل صالح، مفكر، له قلب أبيض من الثلج، يبكي ويفرح متى ما يكون الموقف متطلب والحالة، يساعد، ينتج، يبدع، وفوق كل ذلك كان له عقل حكيم راجح.. لا يتكلم إلا عندما يحن موعد الكلام كالصلاة، ويصمت حين يستدع الصمت، فيكون كالقتيل... تعلم نرمين كذلك، أن زوجها ليس فقط كونه إنسان متعلم، بل ماهر في شرح الكلمات مبدع في ترجمتها وتوصيلها للآخرين دون أن يجرح إحساس، أو يخدش حياء.. تحبه بجنون، تعشقه مذ تعرفتْ عليه قبل عشرين عامًا، لم تفارقه لحظة - في مخيلتها - عندما كان يغيب عنها أثناء العمل أو لأمر آخر ما عليه إنجازه، والحقيقة أنه لم يغب عليها كثيرًا.. فهو يعمل معها في مكان واحد.. لكن شعورها المحب المتشوق والمبهور به، هو الذي يدفعها أن تحسب الثواني التي لا

تراه فيها، وتعتبرها دهرًا بل تصف تلك اللحظات، بأنها لم تعشها ولم تمر عليها كجزء من الحياة أو العمر.. إنها حواء حين تعشق حبيبها!!... كانتْ نرمين فتاة نائمة، أقصد حالمة.. رقيقة كالنسمة، يخجل الجمال من فتنتها، تمتلك شجاعة وقوة ما تعادل قبيلة، متعلمة، مستدركة لشأنها وموقعها من الحياة، متوازنة في تصرفاتها، عادلة مع أولادها وزوجها وتعشق هزار كما قلتُ، كما يعشق النورس البحر... لنرمين صفات جميلة رائعة، ومثار حسد أقرانها في بعض الأحيان، تتمتع بحب للحياة يفوق التصور، كعشقها لزوجها.. تعيش لحظاتها بعفوية خارقة، كالطفل عندما ينسى نفسه في اللعب!.. تضحك من صدرها، تبكي من قلبها، تئن وتتنهد من عظامها، وتساعد بكل ما تملك ومن أعماقها وحتى نخاع كيانها.. امرأة عاملة ومفكرة، مؤمنة وصادقة من نفسها كراهبة لم تندم على قرارها.. بدخولها الدير.. لها إرادة لا تقهر ولا تلين كالصخر، وهي دائمة الترديد: لا يقهر مَنْ يريد ألَّا يقهر، تستفزك وتفحمك بعلمها وبمعرفتها وتبحرها.. لها معرفة عجيبة - لا يعلم المرء الذي يعاشرها - من أين أتت بكل تلك المعارف والعلوم؟!! تفهم في كل شيء، وبشكل يثير الدهشة والتساؤل، فهي مثلًا تكره العقاقير الطبية، ولا تتناولها حتى وهي في أشد حالات مرضها، وترفض بشدة استدعاء طبيب في حالة انتكاستها صحيًا، وأثناء نوبة مرضها.. الكل يردد بأسف: إن رفضتْ العلاج، ستموت حواء في هذه الموقعة، لا محالة!!.. لكنها وبقدرة خالقها وتناولها لبعض الأعشاب وورق بعض النباتات التي يجهل حتى الشيطان نوعها أو

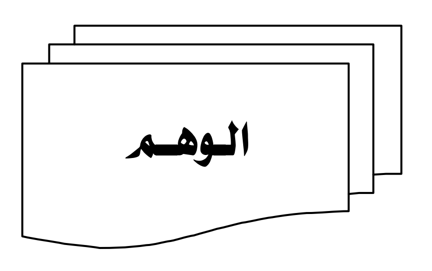
اسمها بعد غليها وشربها، وما إن يحل اليوم الرابع من نكستها، إلا وتجدها فاردة طولها بكل عنفوان، كسارية مركب وهو يخب البحر بكل كبرياء وشموخ، وهي تواجه الشمس والريح والأقدار... سبحان الله في طبع حواء تلك، لها خفة الظل وهو يتحرك خلف صاحبه، لا يعجز ولا يهن، يختفي فجأة وإلى العدم، لا تعلم من سره شيئًا، ثم يظهر ثانية، كما اختفى يسامر صاحبه، يلعب معه، يذهب ويأتي دون أمر ملل، ويحافظ على أسرار صاحبه بصمت وسكون دون كلام، وهنا يكمن، سر قوة الخيال!!

عشرون عامًا مضتْ على علاقتهما ولم يتغير أو يتبدل فيهما شيء، كماء انسدل على صخرة، لم يمسه تغيير.. لا في جوهره ولا في طبيعته، عشرون عامًا من الزواج وحبهما ما كدره همّ أو أحزان.. سوى خوفها الوحيد الذي كان ينتابها من حين لآخر من المجهول.. ذلك القلق الذي بدأ يكبر، كجنين في رحم أمه.. يكبر في هواجسها، بأفكارها حتى تسلسل خفية إلى قلبها.. فباتت متكدرة، لا يغمض لها جفن ولا يهدأ لها بال، كأنها مريضة وستفارق مَنْ تحب والحياة... لم تتعود نرمين على الجلوس في الدار دون عمل، ولم يكن لها وقت فراغ، لا يملؤه واجب أو مسئولية، حياتها كما تعودتها كانتْ حركة دائبة ومستمرة منتجة، وهي سعيدة بصحبة زوجها وراضية عن أولادها وهي تراهم يكبرون، كفسائل نخيل أمام ناظريها.. لكن خوفها من المجهول كان يتغلغل في أعماقها وينتشر كالسرطان.. ليس هناك من طريقة أو علاج لإيقافه، كانتْ تشعر بذلك باستسلام وعجز لا حدود له.. ذلك الخوف الذي كان يمثل لها كسر في بئر..

ذلك المجهول الذي لا يعني بالضرورة الموت مثلًا، بل قد يكون لبعض الناس سر الحياة، الظلمة والعتمة، الخوف من السكون، من التأمل العميق الذي يغوص فيه المرء، كما تغوص القدم في الرمل، وقد يكون شيئًا آخر.. كأن يجعلك صديقًا أو حبيبًا وحيدًا فجأة.. يتركك دون استئذان.. يودعك دون أن ينبس بكلمة واحدة ولا حتى بإيمائه، فالمجهول يمكن أن يكون كل هذه الأمور وأكثر أو أوسع، وقد يكون بالفعل سر الموت أو الهدف من الحياة برمتها، وقد يكون الخوف من القدر وظلمه، وما يخبئه؟... لا تعرف نرمين النوم إلا بعد أن تتأكد بأن هزار وأولادها قد غطوا في نومهم بعمق.. عندها تشعر بأن واجبها لهذا اليوم قد انتهى فتخلد للراحة والنوم، وهي مطمئنة.. كم غريب عالم المرأة خاصة عندما تشعر الواحدة منهن.. بأنها تحيا وتعيش فقط من أجل أسرتها وهي مقتنعة بما تفعل!!... نهضتْ في إحدى الأيام عند الصباح، كعادتها... قبل الجميع، جهزتْ الفطور وهي تشعر بفوز عظيم يغمر كيانها كله، وبنشاط وحيوية وهمة غريبة كالصحوة التي تسبق الموت.. أيقظتْ أولادها ومن ثمَّ ذهبتْ إلى زوجها.. تلاطفه كما كل يوم، قبل أن يصحو بشكل كامل.. حدثته كالطفل، وهي تقول بانبهار ورغبة: يا حبيبي، يا مهجة قلبي.. هل تعلم كم أحبك؟... ثم أردفتْ بحنان: أنا لا أستطيع إلا أن أراك دائمًا معي وبقربي، وكلما ابتعدتُ.. زدتُ شوقًا إليك، أرجوك لا تكن قاسيًا ولا تفكر يومًا أن تهجرني مثلًا!... ثم ضحكتْ كموجة بحر واستطردتْ: من دونك أشعر بفراغ قاتل هذه الأيام فراغ يهزني، يجعلني قلقة وكأنني مريضة أو سأفارق الحياة، أرجوك تفهم وضعي وها أنا أقول لك ذلك بكل وضوح وأنت

تعرفني.. لا أجيد المراوغة، ولا أبوح بسري إلا بموتي.. أنا لم أرَ في حياتي سواك، ولم أعش إلا من أجلك.. أتفهم ما أقول؟، وهي تمرر أناملها على خصلات شعره برفق، وحتى أطراف أناملها ودعتْ الصمت وبدأتْ بالكلام، وهي تعبر عن عشقها وحبها لآدم.. آدم الذي إن استيقظ فجأة نرى حواء تستيقظ، وإن نام نامتْ، وإن تألم صلتْ ودعتْ وسهدتْ ورجتْ وبكتْ وناحتْ وتألمتْ، وكأنَّ الوجع فيها!!.. ماذا أقول؟، فنرمين عندما عشقتْ هزار وأحبته، تخلصتْ من رقابة عقلها عليها، تصرفتْ معه بعفوية شديدة دون قيود، وكأنها طفل يلهو على شاطئ. لم تنسَ نرمين نفسها، ولم تكن مستهترة بحبها إطلاقًا، بل على العكس كانتْ امرأة ناسك، أحبتْ بإخلاص، بصدق، بعمق، وكان صمتها حديث ناطق، وسكونها حركة وانطلاق، حياتها نذر، صلاتها دعاء، موتها فداء، ووقتها وما تملك.. طوع حبيبها دون طلب أو رجاء؛ والتعيس الذي لا يعرف ذلك أو يقدره!!.. والسعيد هو مَنْ يعرف طبع الرجال... لاذتْ بالصمت وكأنها تتعبد، وأناملها المحمومة مازالتْ تسبح في بحر شعره، غاصتْ فيه بلا كلام كالشمع عندما يذوب.. أيضًا دون كلام!.. لكنه لم يستجيب لنداءاتها ولا إلى حركاتها، أو أصواتها، أو حتى قبلاتها أو صمتها.. تركها تتكلم دون أن يصغي لها، ولم يسمع صمتها المحموم المحترق المعذب الذي عذبه الشوق، فاللحظات من دونه كانتْ دهرًا مخنوق، بلا تاريخ.. لقد كان لئيمًا، بل جاحدًا وناكرًا للجميل.. ودع الحياة دون أن يقول لها أو يخبرها، لم ينذرها أو يحذرها.. يا له من رجل قاس!!، وهو يعلم مقدار حبها وعشقها وتعلقها.. هو يعلم بأنها من دونه، لا يستطيع الدم أن يتدفق إلى

قلبها.. ومع ذلك، تركها دون أن يودعها، وهذا هو شأن وعادة الرجال... في كل مكان!!... عند ذلك الصباح البهيج - الذي كان بهيجًا - ثم تبدد، اختفى فرحها ونشاطها فجأة، كما يختفي بخار الماء في الفضاء.. بعدها لم يسمع في دارها إلا عوائها، الذي كان يصدح كشخص في نوبة صرع، وهي ترثي حياتها، هزار زوجها.. آدم حبيبها.



▪ تنـويـه:

الكتابة، في نظر الكثيرين، هي الوسيلة التي تنطق فيها الكلمات معبرة بالاعتماد على ما هو مخزون في الذاكرة من رصيد أدبي؛ لكنني ـ هنا ـ وجدتُ نفسي مضطرًا لأن أكتب ما رأته عيناي، وما خزنته ذاكرتي اعتمادًا على ما قاله موليير في هذا الخصوص: "إني آخذ ما ينفعني حيثما وجدته".

كان الصمت عميقًا، والجو حارًا يكتم الأنفاس يضارع جهنم في حرارته بعد أن انتصف النهار، وهو يطلبني برجاء سمج كالقرار؛ للترجمة.. تلك كانتْ بداية القصة، التي أخجل من ذكرها لولا العبرة التي من ورائها، يكمن سر الحكمة في كتابتها ونشرها وإذاعتها... لم أتهاون يومًا في تلبية طلب كهذا، ولم أقل لأحدهم، كلا، لا أستطيع، فهم أبناء جلدتي، وحقهم هذا في عنقي، مادمتُ قادرًا على سداده، وهذه المرة لم يختلف الطلب عن إخوته السابقين؛ لولا

المفاجأة التي غرقتْ فيها.. مجنونًا، مذهولًا، مصحوبًا برهبة مكتومة وغيظ كظيم.. جعلني أُملي هذه القصة...

ترجمة لبرم عقد إيجار متجر من شخص ألماني، يدعى سيد نتن.. الذي أنهى العقد الخامس بسلام، رغم الشيب الذي غطى شعره باللون الأبيض الذي يشبه لون الكفن، يجلس في وجهه شارب قروي ثخين غليظ، يمكن حياكة بساط كامل من وبره!!، وفي صوته رنَّة لا مجال لوصفها.. إلا أن لها نفس رنَّة الصوت الذي تطلقه الضفادع أثناء الزواج!!... لم يكن هذا السيد النتن طويلًا، لكنه يتمتع بجسم أسمنتي صلب، وله عينان حمراوتان غير صحيتين، وتوقعتْ أن أشم فيه تلك الرائحة التي يتميز بها اسمه، ولم أكتشفها أو أستدل عليها، ولكن مع الوقت وأثناء الترجمة، شممتُ الرائحة النتنة التي كنتُ أبحث عنها، والتي تزكم الأنوف وتعمي العيون... فالإنسان قد يكون جسده نظيفًا، وهندامه أنيقًا.. لكن هذا لا يعني أن يكون داخله كذلك!!، فالرائحة النتنة لا تنبعث فقط من الأجساد العفنة، بل من الأفكار والأرواح والعقول.. وهذا ما وجدته في سيد نتن المبجل!، فنتانته كانتْ طافحة بالسموم، طاغية على عقله، طافية في بحر من العنصرية، معافاة بالهوس والمس، والتجبر والتكبر!!

المتجر كان صغيرًا جدًا، كقبو مسكون أو بالكثير يشبه وكر الجنِّ أو الوحوش المركون!.. لا يصله ضوء الشمس، مغروز في ركن ضيق المسلك، لا يصلح إلا لسير الأقدام العابرة.. يتمتع صدره بواجهة من الخشب الداكن الغامق، وكأنه محروق، يعلوها زجاج

سميك قذر كحيطان المراحيض العامة المنتشرة في المدن الآسيوية!!، وبجانب المتجر من جهة اليمين حانة تبعث روائح كريهة، وكأنها صادرة من سرداب شبه مهجورة وغير مرغوب في ارتيادها... ربما بسبب اسمها أو سمعتها أو رائحة عطرها!!... في حين كان المستأجر مجن، الذي لم ألتقِ به من قبل.. رجلًا يميل لونه إلى السمار الغامق كثيرًا، بدينًا، ممتلئًا باللحوم، مسرفًا في السمنة والشحوم من قومي، إنسان كأخي في الدين والدم والإيمان، في نهاية الحلقة الرابعة تقريبًا، قصير القامة، حليق الرأس، وتوقعتُ من أول وهلة رأيته فيها.. أن يكون بطيء الفهم، حاد الغباء، كثير الدهاء (ويقول عن نفسه ببهاء وزهو: أنه مازال في طور المراهقة والشباب دون ذرة حياء)، وهناك.. تحت أذنه اليسرى علامة فارقة، ما إن تراها حتى تكرهها وتمقتها وتبتعد عن شرها متقززًا.. عقدة من اللحم المتدلية نحو الأسفل كحلمة بز نعجة!، ولا أعلم كيف وفق الله ووضع تلك الحلمة "النعجية " في وجه إنسان؟!، وقلتُ في نفسي متليًا: سبحان خالق الأكوان، تُرى ما العبرة من خلق تلك العقدة في وجه إنسان؟!... حضرتُ، وحضر معي صاحب الحلمة الكريهة تلك، تجنبتُ النظر إليها ما استطعتْ أثناء الحديث والترجمة.. ليخزه الشيطان، كان لا يحلو له الحديث إلا وهو يدير لي وجهه من جهة اليسار، كي أُصدم برؤية المخفي حلمة بز النعجة المتدلي، فأعود وألتف حول نفسي محاولًا، متمنيًا تلافي نقطة التلاقي، دون رحمة أو نجاح كبير، وكدتُ أصيب بالدوار، وكأني في بحر عميق الغور والأسرار فلعنتُ حظي، ووجه

المسكين مجن الذي لا ذنب له ولا حول.. جاء فقط لكي يستأجر المتجر!!... بعد مداولات عدة، ومحاولات إقناع كثيرة، بين شدٍ وجذب، عرض وطلب، واستماع ورؤيا الأوراق التي تثبت صحة الأقوال.. حدد سيد نتن قيمة عقد الإيجار، وكانتْ في الحقيقة باهظة الثمن، لكن الفرص المتاحة لصاحبنا كانتْ شبه معدومة؛ لذلك حاول بجهد جهيد، أن يثبت لصاحب المتجر العتيد عجزه الأكيد في التسديد أو الوفاء بقيمة هذا الرقم شبه الخيالي؛ لقبو صغير، في قرية من ريف مدينة ميونخ، التي لا يتعدى عدد سكانها أكثر من خمس عشرة ألف نسمة!!، ولكن طمع وجشع الرجل الألماني الخسيس، صاحب المتجر النفيس.. جعله يتمسك برأيه، وكأنه وثيقة عهد نازلة بدهاء، بقدرة وحي من السماء!!

نظر لي مجن (وهو يرني حلمته النعجية بشكل كامل، لعنهُ الشيطان حتى يوم الدين)، وهو ينوح مستغيثًا، متوسلًا، متنهدًا دون تبصر كثير: أرجوك، قل له شيئًا... تدخل، أرني مهارتك في الترجمة الفورية!.. لا تقف هكذا كالتمثال الذي لا فائدة منه، وليس له عمل سوى التحليق بالبشر هكذا بشرود وهبل... ثم أنهى رغاءه (أقصد نواحه) بشكل مهين وقبيح: تحرك ولا تبقَ واجمًا، سارحًا ومطرقًا كفزاعة الطيور.

- سامحك الله يا أخي على ما قلته في حقي، وليغفر لك غفار الذنوب على ما تفعله من أجلي!!، ثم أدركتُ داعيًا بسوء طالع: أخرج الله عينيك من رأسك المفلطح هذا، أنت يا مجن، مصيبة حمراء نزلتْ عليَّ كالشهب من عالم الجحيم!، وتابعتُ بشهقة صدرتْ رغمًا

عني، بعد أن توليتُ زمام الحديث: ألَّا تنظر إليه؟!.. إنه كالتيس العنيد الهائج، لا يتزحزح من مكانة قيد أُنملة، ورأيه ثابت لا يتحرك أو يميل، جاثم على قلب الأرض وقلبي كالصخرة، ماذا عليّ أن أفعل؟... ومن ثمَّ أردفتُ وبلهجة هادئة، مطمئنة، وغير متوترة بعد أن أشفقتُ عليه: لا عليك، سأحاول معه مرةً أخرى.. فرمقتُ الرجل الألماني، بنظرة ملؤها التحدي (وأنا أستفزه بالتحديق في عينيه الحمراوتين غير المعافيتين)، وسألته من غير تلذذ: تُرى لو كان المستأجر ليس أجنبيًا، كحالة صديقي المسكين هذا.. هل ستطلب منه هذا الرقم الكبير حقًّا لاستئجار متجرك؟!

- ضحك بريبة، ضحكة خالطها العجب وعدم الرضا كالسفيه، وذكرني ولا أعلم .. لماذا بذلك المرابي اليهودي "شايلوك" بطل قصة تاجر البندقية لشكسبير؛ وأجاب متهكمًا، ببرود كالمريض المعزول: من الطبيعي سيختلف الأمر!!، ثم رنَّ نقيقه بعد أن اتخذ وجهه هيئة الجد: ولكن.. هل أنت هنا لتحاسبني على ما أريد وما أرغب؟!

- الحقيقة، كلا... وتابعتُ بتصميم وعناد، ولكننا إزاء موقف إنساني من المفترض ألَّا يختلف كثيرًا، وألَّا يعتمد على اللون أو الجنس أو الدين أو القومية... تدخل مجن دون فهم مسبق بما يدور من حديث بيني وبين "شايلوك" المرابي الحقير هذا، ومع ذلك قطع علينا الكلام، وخطب هاذيًا بصوت عالٍ: ما الذي يحصل؟.. لقد انقضى وطر من النهار ولم نقضِ شيئًا!!، ثم أعلن مستنكرًا مستعطفًا:

أرجوك، ترجم لي كل ما يقوله، ولا تجعلني أقف هنا كبقرة وسط ثورين!!

ضحكتُ في سري، وحاولتُ أن أكتم ضحكتي، وقلتُ مداريًا أهمس في ذاتي وأخاطب نفسي: كان الأجدر بك أن تقول، نعجة وسط كبشين!!

- نبح مجن بانفعال: ماذا تقول؟!

- لا شيء يا عزيزي، وأردفتُ صادقًا: إنه يضع اللون والقومية والجنسية والدين في أولويات حساباته؛ لذلك أنتقى الرقم الأعلى كحق قسط الإيجار.

- فحَّ مجن كالثعبان مهتاجًا وهو يسعل مجاهرًا كالمسلول في نوبة سعاله: تبًا له من منافق، زنديق، خنزير، عنصري نازي.. ثم أضاف غامزًا: إنه يمثل دور المتسلط تمامًا كتسلط تأنيب الضمير على الزاهد.. عندما تراوضه نفسه!!... وهنا تدخل النتن مقاطعًا خطبة مجن بإسكاتة وهو في حالة عسيرة، غير بهيجة، ويوجه السؤال لي: ترجم لي ما يقوله حرفيًا؟... ثم أردف حانقًا؛ لأنني أشك بأنه يوجه لي الشتيمة؟!

- حملقتُ في عينيه الحمراوتين غير الصحيتين، وكذبتُ قائلًا: إنه يعبر عن رأيه بقليل من الحرية!!

وصَّ النتن، كالجرذ ضاحكًا وهو يدمدم كعفريت فرح بخروجه وتغلبه على قمقمة: ليعبر بحرية تامة وكما يشاء، وفي كل ما تخالج نفسه من شقاء... ثم استطرد كصعلوك وقح: هنا بلد التعبير، ولولا

هذه الحرية، لوجدنا نصف سكان ألمانيا يتساقطون في الشوارع، جنونًا!!... دسَّ مجن نفسه بيني وبين صاحب المتجر من جديد، وبدا وكأنه يضارع العفريت في مقامه، وقال مرتاعًا آمرًا، وهو يوجه الكلام لي، وبغباء غير مسبوق لا مثيل له: لا تتدخل!.. سأحاول أن أقنعه بنفسي، وهو يغمغم ويتمتم، سترى... بطلاقة، ولباقة... ثم أردف: لا حاجة لي بك بعد الآن! (قال ذلك وجسمه كله يهتز، كواقف في زورق وسط بحر هائج)... وتابع بهوس: لقد خربت بيتي، وسوّدت عليَّ عيشي بترجمتك المنحوسة، اللعينة هذه.. فالتفت إلى صاحب المتجر وحاول الكلام.. فلم يقدر على النطق، فعاد أدراجه يمثل حال الكسير، وبدجل نبر: أرجوك يا أخي.. يا رجل يا طيب.. يا شهم، سأقول لك ما أريد قوله، وترجمه بصورة حرفية وهذه آخر ورقة أملكها وسألعب عليها، وهي الحقيقة دون كذب أو مبالغة... شرعتُ من فوري أقول بعد أن أدركتُ مرامه، وانكشف لي المخفي من أسراره في حدة وغضب: ما هذا؟ تشتمني كما تريد، وتترجاني كما تشاء وترغب، كيف هذا؟... ثم أنهيتُ كلامي متماسكًا بالكاد بعد أن تمالكتُ نفسي: أنا لا أراك إلا مغامرًا، عندما تفقر تكفر، وعندما تتسلط تبطش وحين تفوز تبطر، ثم رفعتُ درجة صوتي حانقًا حاسمًا قراري قائلًا: سأتركك وأذهب، وتصرف معه كما تريد، يأخذكما الشيطان -أنت وهذا النتن- إلى الجحيم معًا في ساعة واحدة، وهممتُ بالانصراف... والرجل الألماني الجامد، يميل إلى التثاؤب.. يسايرنا في حديثنا ويبتسم، وكأنه يفهم لغتنا التي نرطن بها!.

- مسك مجن يدي متوسلًا، وصاح كالمخمور: لا تتركني أرجوك، وبدأ يدمدم ويدعو لي بأغلظ الإيمان وأجمل الدعوات.

- رق قلبي له فجأة وقلتُ: حسنًا قل ما تريد قوله، وسأكون أمينًا جدًا في الترجمة كعادتي دائمًا، أعدك بذلك... قفز من مكانه بقامته القصيرة الغليظة، الممتلئة بالشحوم واللحوم فرحًا، وماءَ كالقطة هائمًا، هامسًا: أربعة وعشرين قيراطًا، أنت!!... ثم تابع: قل له بأنني أصبحتُ مسيحيًا منذ ثلاثة سنوات، وابني البكر يعمل اليوم راهبًا يعظ الناس في دير القرية التي نقطنها، بعد أن تزوج بفتاة ألمانية؛ لبشرتها... لون القيمر (قال هذا وهو يغمز بمكر، لم أفهم قصده)، وأضاف مباغتًا دون توقف: أنجب منها ابنًا، الخالق الناظر يشبهني كثيرًا، وقد قام ابني بتغيير اسمه من يحيى إلى لوقا، ويدلعونه ويدللونه فيطلقون عليه، لوقي... استوقفته بخبث، سائلًا: ماذا قلتُ؟.. لوطي؟!

- بانفعال وتجهم صرخ ناعقًا، كالغراب بعد أن تجمع الدم في وجهه واحتقن: أنا لم أقل لوطي، بل قلتُ لوقي!!، ثم استمر هائجًا كثور مطعون في رقبته برمح إسباني: ليسأل عنه إن أراد، فسمعته باتت كسمعة الياسمين هناك، بل أكثر من ذلك.. ثم جلجل المكان بقهقهة مخنوقة، معكرة كقهقهة ساحر مهووس، وهو يردد: لن تصدق إذا قلتُ بأن سمعته، فاقتْ سمعة مايكل چاكسون على نطاق القرية التي نسكنها... ثم هتف مشرعًا بوقاحة وعند وتحد: هل تصدق بالرب؟! ولم يعطِ فرصة للرد عليه، وعوى: فأنا صادق وحق الله وابنه يسوع... فيما أقول!!

- أجبته سائلًا بغيظ مستنكرًا، محاولًا إظهار الغباء وعدم الفهم: وماذا تريد أن أقول له؟!

- ماج وهاج كالسكران، وهو يحك رأسه، ويقول: عجبًا، ترجم له ما سمعتْ!!.. ثم أضاف بتفاخر رديء: حدثه عن تغيير ديانتي، وبأنني أصبحتُ مسيحيًا مثله، ولا أخشى شيئًا بعد الآن... وتابع يشرح نظريته، مدافعًا عن وجهة نظرته.. أينما تكون المسيحية، تكون السعادة، أو تجدها صاغرة بين يديك كعفريت المصباح السحري!... ثم سألني برعونة: ألَّا تعرف ذلك؟!، واستمر خاطبًا تاليًا: يا رجل إنه الطريق لتتحقق كل الأحلام.

- طفقتُ مسترسلًا، مترجيًا: مستحيل!!.. ما هذا الذي تقوله؟، ثم نوهتُ: ربما أنت ليس في وعيك؟، أقصد.. كل ما تفكر فيه الآن وتريده هو استئجار المتجر، حتى لو كان هذا على حساب نفسك وسمعتك وما تعتقد وتؤمن به؟!... لم يجعلني أُكمل لغطي ولا هوسي.. تركني أنوح بعد أن قاطعني معترضًا، وبلهجة حادة لا تنم عن عاقل: كي تعلم يا صاحبي، أني أستطيع أن أعمل المستحيل!!.

- شرفٌ رفيع، هذا المستحيل الذي صنعته (همستُ ذلك أُسرّ ذاتي) ثم وطنتُ العزم وأجبته مستهزئًا: أنعم وأكرم!... وبأسى وباستماتة سألته مجددًا: هل أنت متأكد مما تقول؟، أعني.. هل ستحقق فعلًا أحلامك؟!

- ولول كالمعتوه: بالتأكيد، قطعًا دون ريب أو شك... ثم أردف متحاملًا، نافد الصبر: ترجم له ما قلته للتو وسترى النتائج بعينيك.. وردد بصوت خفيف، سمعته بشكل واضح.. هل متأكد، قال؟ سترى

بنفسك، دينك أم ديني الجديد؟! (تلا ذلك وهو يهرش رأسه هرشًا متصلًا، وكأنه مسكون بالقمل)

- عفا الله عنك، ومن أمثالك الظالمين.

- بعنف واجهني مستفسرًا: ماذا تقول؟

- يائسًا: لا شيء!... ثم استدركتُ مستعرضًا: سأخبره بكل ما قلته، ولكن ذنبك على جنبك (وهمستُ دون أن أجعله يسمعني، ليكن ذنبك الملعون هذا قرب حلمة بز النعجة التي تعتلي صدغك)، ثم توجهتُ (وأنا قلق جدًا من النتائج) إلى المؤجر البارد، الثلجي، الرابي، السمسار القابع في ركن شبه مظلم من متجره، وأسقطتُ في أذنه مذعنًا، واجمًا، خجلًا، قانطًا، وجلاً، والعرق يتصبب من جبيني، بعد أن خارتْ مقاومتي، وكأنني أنا الذي غيرتُ ديني!.. كل اللغو الذي قاله مجن.. ذلك القصير، العريض، البدين، ناقص العقل والدين، عديم الأخلاق والانتماء، الذي لا يبحث إلا عن ظل الأرزاق، ومَنْ يراه يقول: أنه يحيا لآخرته، وكأنه يموت غدًا، ويعيش دنياه، وكأنه فيها باقٍ خالد أبدًا!!... استمع لي النتن بهدوء وهو يغالب إغفاءة، استغربتُ تصرفه، نهبني القلق، وغصتُ في عمق الشك، خفتُ، توجستُ الخطر، وهمستُ في سري بحذر: هل ما قام به مجن، له تأثير فريد، سحري، قوي وطيب على سريرة هذا الرجل فعلًا؟!.. وهل سيخفض له من قيمة الإيجار؟، كما يحلم به صاحب حلمة بز النعجة.. إذًا ما يقوله صحيحًا؟!، وقد أتى بالمستحيل، وأنا لا أعلم!!... ثم شعرتُ والنتن يقترب منِّي، كوحش أصابه المس، وهو يردد لاغطًا كمَنْ في نفسه مآرب أو غاية

وباستخفاف: قل لصديقك المعتوه، المسكين، العبوس، ذي الجلد الأسمر، المدبوغ، المحسود على لونه!.. وتلك التي لا أعرف سبب وجودها بهذا الشكل اللعين الكريه!.. تلك... وهو يشير إلى الجزء اللحمي المتدلي تحت أُذن مجن، بإصبعه... ثم لفظ أنفاسه الضائعة، التائهة وتابع بسخط: إذا كان يعتقد بأنه بتغيير دينه، سنأخذه بالأحضان، ونهوي علي وجهه الأجرب هذا بالقبلات الحارة، ونمسح عنه الأحزان، ونزيل منه الأدران، ونزفه كعريس في ليلة زفافه؛ لتفتح له كل الأبواب ويصبح من الأحباب.. لأنه اعتنق المسيحية وزادها فردًا شبه إنسان، لا من فصيلة البشر ولا الحيوان.. فإنه واهم!!... ثم صرخ بنا ناعقًا، حانقًا، محتجًا، كالمجنون: اغربا من هنا... هيا، لا أريد أن أراكما أمامي، تبًا لكم ولساعة الحظ المنحوس الذي جعلني ألتقي بكما... ماذا تنتظران؟.. قلتُ: اغربا عن وجهي.. ثم قهقهة فجأة وبشكل مريب مغتبطًا، وهو يردد: أنا أُخاطبكما لحد الآن، بأدب!!.. اعلموا ذلك!.. وتابع قلقًا، مرتجفًا وهو يدمدم، غيَّر دينه.. وابنه.. راهب قال؟!.... وجهتُ كلامي إلى مجن، وقلتُ دون أن أعيره التفاتًا وبغير اكتراث، وأنا أداري ثورتي وهيجاني، وبقلب راجف وبنفس مهزوزة منكسرة، متكدرة تعبة: أنتَ كالمقامر الأرعن، إذا خسر نفر، وإذا جاع باع، وإذا آمن خان، وإذا أسرّ نشر... ثم تابعتُ بذات الألم الذي استعمرني واستولى على كياني كله: أحرق الله كبدك وأخزاك، وبصقتُ بمغزى على الأرض، تفوه... يا حامل الحلمة الكبيرة المتدلية لبز النعجة، ثم سألته دون أن أنتظر أو أحتاج إلى جواب منه: ألم تنظر في المرآة يومًا؟!.. ألم ترَ بوزك القبيح هذا؟ الذي

يشبه بوز ذبابة عجوز!!.. وتابعتُ متسلطًا مستنبطًا ناقمًا: يا وجه آخر من صورة إبليس، يا عقل منطفئًا كشمعة بلا فتيلة، يا عود ثقاب محروق لا فائدة منه تُرجى، يا روحًا متدنية مسحوقة غائبة الإدراك والشعور، ونفسًا فارغة فانية مغرورة ومتكبرة.. ثم أضفتُ متعمدًا، مشمئزًا: والله الحمار أفضل وأعلم وأذكى منك؛ لأنه بسيط ويعلم بأنه جاهل!.. بينما أنت لا تعرف حقيقتك.. ثم ختمتُ كلامي بقولي: سأبتعد عنك؛ لأجل أن تصل إلى نفسك وتكون قريبًا منها!!، ثم وصفته دون شعور.. شيطان بقرنين.. وتابعتُ بحزم: لعلك عندها تدرك بأن الهروب من الواقع بالرهبنة، أو الجنون، أو حتى الموت الإرادي، ليس هو الحل ولا يمكن للسعادة أن تكمن فيه، أو أن تتحقق الأحلام من خلاله.. وإنما بالخلق الذي لا يعني الهروب من الواقع، بل بالتغلب عليه عندما تبدأ بالتجربة بشكليها (النجاح والإخفاق) وصولًا إلى الإنجاز والعودة إلى الواقع بعد أن تتحرر من الجهل، ثم بإصرار نوهتُ: لا أريد أن أقول ـ هنا ـ التحرر من الخطيئة، فالخطيئة موجودة في داخل كل فرد منا، ولكن قصدتُ الرجوع إلى الواقع الذي هو الوجه الحقيقي للحياة والمعرفة من بعد اكتشاف وتجربة!!.. بعدها تصل إلى حالة الإدراك الخالصة تلك التي تكشف وتتكشف فيها الأشياء والموجودات بشكلها الحقيقي، لا بصورتها المقلوبة، حينها فقط ستجد كل شيء.. الأشياء والموجودات والحياة برمتها بين يديك طيعة، لينة صاغرة، وهذا كله وبشكل مبسط، هو خلاصة تعريف ديننا الصابئي المندائي، المعرفي الأزلي القيوم... ثم سألته ممتعضًا، ساخطًا، كارهًا، قانطًا وأنا أشعر بالقهر والغثيان: تُرى.. هل كنت تعرف من قبل كل هذا،

قبل أن تقدم على فعلتك الشنيعة تلك؟!، ولم أترك له فرصة للإجابة، بل بادرته مجددًا وبنفس رنَّة الغضب: أم تراك كنت تحتاج إلى التوعية التي هي أصل عمل القيادة التي يجب أن يكون لها شأن أكبر في مد الجسور المعرفية بين أبنائها حرصًا على الطائفة وحبًا لدينها ولديمومة بقائها؟! (توقفتُ للحظة، وأنا أحدق بالنتن وأغرس عيني فيه غرسًا، وهو يتراجع متقهقرًا، وربما خوفًا منِّي، ففضل الصمت والسكوت، بعد أن لاحظ الطريقة والرنَّة القاصفة التي أتحدث بها مع هذا المخلوق الذي يدعى، مجن)... تقربتُ من مجن لا شعوريًا، وأسقطتُ في أذنه كلماتي التي لم أجد يومًا لذة في قولها أكثر من تلك اللحظات: المسيحية لا تعني أكثر من اعتقاد، والسعادة تبرق لمَنْ يكتشفها، وتحقيق الأحلام تنجز لمَنْ يطلبها بعد سعي... لا أن تتمناها بالكلمات، كما يتمنى العجوز الشباب!... استمع لأسئلتي وفحيح كلماتي، وهو يبتسم ببرود قاتل قاس لا ينم عن جسد يدق بداخله قلب ينبض بالحياة.. يا لها من ابتسامة!.. كأنها تعود إلى وجه ميت فارق الحياة منذ ثلاث ليالٍ!.. عندها لم أطق الصبر أو الانتظار... أعطيتُ للريح ساقي وهربتُ قبل أن يهرب!، وأنا أداري غضبي وانفعالي، متوجهًا إلى داري، محاولًا اغتصاب ابتسامة على وجهي تقلل من توتري، الذي أصبح في تلك اللحظة لا يطاق، ولم أحر جوابًا ولم أسمع منه نداء.



كم هم سهلو الانقياد، سريعو التأثر؟!.. جهلاء، وكأن عقولهم كعقول دجاجهم!!، لقد كذبت، فصدقوا، ثم آمنوا... ادعى صالح يومًا بعد أن كان عاطلًا، وهو يسكن أحد الأحياء الفقيرة من الشرق، بأنه من أولياء الله الصالحين.. فأطلق لحيته تنمو كما تحب وتشاء... فطالتْ وأصبحتْ كلحية شيخ صيني، وظهر الشيب الأبيض فيها واضحًا كلون الرصاص.. لبس الجلباب الأبيض، وعقد رأسه بلفافة بيضاء، واقتنى عصا معقوفة، مثل تلك التي يستعملها الندافون، وهام في الأرجاء يوهم الناس بأقواله وأفعاله وأحلامه ورؤاه التي لا ينفك من ذكر جلساته الوهمية مع أنبياء وأتقياء وأولياء الله ورسله باستمرار.. فصدقه الناس قانعين، راغبين، ومع الوقت غدا قديسًا يتوسط بين الله وعباده وهو يدر عليهم الخير والبركات.. فارتفعتْ مكانته الاجتماعية والدينية والاقتصادية، وبات يعيش في نعيم يحلم به حتى الزعيم!!... عُرف صالح بطلعته الوقورة وضحكته المسرورة.. له أنف دقيق، وعينان براقتان تلمعان، وشفتان عريضتان متورمتان مفلطحتان، وكأنهما ملتصقتان اصطناعيًا في وجهه... اتسم بالهدوء والرزانة، وقلة

الصحبة، والانطواء والوحدة.. ترك التعليم مبكرًا وتنقل للعمل هنا وهناك، وظل هكذا في عوز وفاقة..حتى قرر قراره الرهيب؛ ليأتي بكل ما هو غريب وعجيب... كبر الرجل الصالح ومرض.. وكأنَّ دمه نضب، تقوس ظهره، ولونه شحب، نحف هيكله، وأصبح كالشبح، ولكن لم تنزل من عيون الناس هيبته، ولا عن أسماعهم سمعته..فظل شامخًا عاليًا عملاقًا رغم تهدمه وتقدمه في السن، رمزًا دينيًا تخافه وتهابه الناس، تسعى جاهدة إلى رضاه ما وسعها إلى ذلك سبيلا.... فكر صالح يومًا، وهو يشعر بالوهن والملل، وقال مختلجًا مخاطبًا نفسه: لماذا لا أذيع في الناس خبر مماتي؟.. ولأرى ما سيحصل؟!.. فما رأيته بأم عيني وأنا حي، ربما غير ما سأراه وأنا ميت؟.. لأجرب و لن أخسر شيئًا!!، واختار يومًا ماطرًا؛ لنشر خبر وفاته عن طريق خادمه... انتشر الخبر بين الناس سريعًا، كالحريق..فناحوا وصاحوا: مات الرجل في يوم ماطر، والسماء أبت إلا أن تنتحب هي الأخرى باكية، راثية، ناعية لموته وعلى طريقتها وهي تودعه!!.. يا له من رجل صالح كريم، تقي ونقي!، ولم يخب ظننا فيه يومًا ـ سبحان الخالق ـ كان اسمًا على مسمى!!... تجمهر الناس حول رفاته وقرروا أن يبنوا له ضريحًا غاليًا كبيرًا واسعًا فخمًا يليق بذكراه العزيزة وقدرته الفائقة العجيبة، فالمرحوم صالح، أحد أولياء الله الصالحين، وأعماله كانتْ تمضي في نفوس الناس كالسحر، ويخرجون من ورطاتهم سالمين غانمين، وكله بفضله!!... سكن صالح الضريح مفكرًا، مهمومًا وحزينًا.. يستلقي وينام في التابوت نهارًا، ويظهر في الليل ماشيًا

مترجلًا ساهرًا متنزهًا، وكأنه في داره، وهو يتلمظ بريقه ويردد: ماذا فعلت بنفسك يا صالح؟!، لقد قبرت نفسك قبل موتها وبإرادتك!!.. ثم وبخ نفسه ساخطًا شاتمًا: يا لك من وغد، جاهل وغبي.. لقد أفسدت حياتك بفعلتك هذه، وها أنت اليوم تعيش ميتًا في قبر، كالفأر!!... في حين ظل الناس في كل مسألة إليه يسعون زائرين، سائلين، يطلبون منه النصح وبدموعهم يغتسلون.. حتى أصبحتْ زيارة ضريحه من المسلمات البديهية التي يركن إليها الناس في كل مناسبة دينية تصبح عليهم!!.. ناهيك عن القرابين التي تقدم عند بابه، وأعواد البخور التي تحرق في عتبة شباكه، والخراف والدجاج التي تذبح نذرًا على قدم جداره، وهكذا عاش ومات صالح وهو يتمتع بحياة وموت قلَّ مَنْ تمتع بها، ومَنْ هم على شاكلته، والقوم يجهلون حقيقته، وبهذا الجهل ينامون ويستيقظون... لم يرتح صالح في مماته، كما كان ينعم في حياته.. رغم وفاء خادمه وعنايته به ليلًا، فهو الذي كان يأتيه بالطعام والشراب والثياب، وظل مخلصًا وعلى سره مغلقًا... أنبه ضميره الراقد تحته ومعه في القبر، وظل ينتابه شعور بالأسى والندم، وهمس يخاطب نفسه مسبل الأجفان: لم أعد أمتلك شيئًا كي أخسره، لقد عشتُ حياتي طولًا وعرضًا، وأنا أتمتع بنعم وهبات وسمعة... حتى ولا في الأحلام يمكن لها أن تراودني، ومع ذلك كانتْ لي واستمتعتُ بها وكنتُ من الصالحين!!.. لكنني اليوم في الضريح، والناس يقلقون راحتي، ويوسخون بأقدامهم بيتي! أقصد.. تربتي وهم لا يعلمون، بأنني مثلهم حي أُرزق، ولا أريد منهم شيئًا الآن

سوى تركي وشأني، ثم رفع درجة صوته قليلًا.. وقال ساخطًا محتدًا ممتعضًا: ما هذا الذي يحصل؟ سامحهم الله.. عندها اتخذ قرارًا لا رجعة فيه: " أن يخرج لهم ويخطب فيهم من جديد كما كان، وليقول لهم بكل صراحة ووضوح أنه قد كذب عليهم كذبتين، الأولى صالح والأخرى ميت"... ثم ناح، وشفته العليا المنتفخة تلطم أختها السفلى: وليكن ما يكون، فأنا قد ودعتُ الحياة في نظرهم، ولم تعد تهمني بشيء.. وليذهبوا إن أرادوا إلى الشيطان أو إلى الجحيم، وارتاح لقراره، ونام مطمئنًا في نهاره... اختار صالح أول أيام العيد للظهور.. فتوافد الناس والغبار والتراب يكسو الوجوه والأبدان بعدة ألوان فرادى وجماعات، وكأنهم ينوون الغزو!! بكباشهم ودجاجهم وسمكهم وعنبهم وتمرهم ولبنهم ونقودهم وبخورهم وشموعهم وصغارهم وكلابهم وماعزهم.. فضج المكان وضاق بهم، وزلزلتْ الأرض من تحتهم، لوزنهم ولعددهم... فلم يطق صاحبنا الصبر، فتح تابوته وخرج منه، نكث عنه التراب والغبار، واتجه صوب الباب فتحه بعنف وقوة، فأحدث صخبًا وضجيجًا وصريرًا، كما يحدثه باب السجن، وهمَ خاطبًا بالقوم كما قرر وخطط له، وصاح:

يا قوم.. تجمعوا أمامي، فلي حديث جاد صادق نابع من القلب أحب أن أحدثكم بشأنه... انبهر الناس عند سماع صوته ورؤية رسمه، فركضوا ملبين كالمسحورين، وهم يدمدمون ويتمتمون: يا ألله، لقد بعث رجلنا الصالح وظهر من جديد، سبحان الله الباري عزَّ وجلَّ، يميت ويقعد مَنْ يشاء وبقدرته هذه مؤمنون، ثم هتف نفر منهم بخبل: هبوا يا رجال، تعالوا انظروا المعجزة.. ولي الله ظهر، وها

نحن نراه بأم أعيننا منتصرًا.. هبوا يا رجال ويا نساء... وتجمهر الناس حوله، سجدوا أمامه منحين، وكأنهم لإقامة الصلاة راغبين جالسين مقرفصين.. وبعد أن خف الصياح وعمَّ السكون وخيَّم الصمت عليهم كالسحب، فقال متأتًا زاعمًا خاطبًا: لا تجادلوا فيما سأقوله، فبعض الجدل كفر.. وهذا لا نرتضيه!، ثم بتعنت غمغم: الجميع ـ هنا ـ يعرفني، فأنا صالح الطيب، تقي الله ووليه.. ورنا ببصره حول الجموع المتجمهرة، فرآها بالمئات.. وحيواناتهم تمعمع وتهدهد وتنبش وتهبش وتصيح وترغى وبجانبهم ترعى وهي مرحى، وقال يسر ذاته: كم هم سهلو الانقياد، سريعو التأثر؟!.. جهلاء، وكأن عقولهم كعقول دجاجهم!!، لقد كذبت، فصدقوا، ثم آمنوا... وسأل نفسه مستفسرًا: تُرى.. هل يؤمن الإنسان بالأشياء التي حوله بهذه البساطة وبهذا القدر من السذاجة؟!، ثم أردف: ماذا عن تراثنا الديني القديم إذًا؟!، فنحن نعيش في هذا الزمن المتحضر، وهم يفعلون كل هذا عن طيب خاطر عجيب!... وتابع مسترسلًا: كنتُ صعلوكًا، لا أجد ما أسد به رمقي، وما إن مثلتُ دور الولي التقي، حتى انهال الناس عليَّ بالكثير واللذيذ الثري!! يا لهم من مجانين!... ثم دعا عليهم قائلًا: أصدع الله رؤوسهم على تفاهتهم!!، وما إن وعى على نفسه حتى لوح صائحًا، مرددًا بثقة عالية والجد يعلو محياه، وشفاهه الثقيلة الكبيرة المنتفخة تهتز لكل كلمة ينطق بها: جاء الأوان أن نكشف الأسرار ونفسر الأوهام ونرفع الغطاء عن حقيقة الأحلام.

ـ فصاح القوم مجلجلين: الله أكبر.

- بتململ: اسمعوا أولًا ما أريد قوله، ثم اهتفوا... (قال ذلك، وهو يمطرهم بسباب مكتوم)

- هتفوا مجددًا: الله أكبر.. له نصلي وبه نستعين.

- (بصوت مبحوح مخنوق بالعبرة، وهو يزفر زفرة ملتهبة) همس، وكأنَّ شجاعته خانته، مواجهًا بقوله: أريد أن أقول، أقصد.. لقد كذبتُ عليكم والسلام!!

- همهم الناس يسألون أنفسهم وبعضهم: ماذا يقول؟

- بصدق وغيض وبصوت مرتفع: لقد كذبتُ عليكم جهرًا، فأنا صالح صحيح، لكني لستُ بتقي ولا ولي ولا من أحباب الله ولا من الصالحين... أرجوكم، لا تذبحوا لي شيئًا، ولا تقربوا قرابينكم، فأولادكم أولى بها، خذوا ما جئتم به واذهبوا من هنا، فأنا لا أستحق منكم كل هذا، لا تشعلوا الشموع والبخور على قبري، ولا تقبلوا شبابيك ضريحي، فأنا وكما قلتُ لكم مجرد عبد الله الذي كذب عليكم.. ثم نوه مصرحًا: أنا أصلًا لم أمت!!، أعني.. لقد مثلتُ عليكم دور الميت أيضًا، لقد كانتْ مجرد مزحة لا أكثر ولا أقل.

- فعلى اللغط، وارتفع النواح والصياح والصراخ، اهتزتْ الأرض من تحت أقدامهم بعد أن نهضوا ناقمين مذعورين لما يسمعون ويرون، ثم قفز أحدهم من مكانه هاتفًا لاعنًا: لا تصدقوا هذا الوغد الشرير القبيح الذي فعله أشد كفرًا من فسقه... ونحن ـ هنا ـ في حضرة ضريح رجلنا السيد صالح الطيب، تقي الله ووليه، ثم عوى متابعًا، وهو يرنو بنظره صوب الضريح: نرجو رحمتك يا صالح

ونخشى نقمتك، فلا تغضب منا على ما يفعله بنا هذا الصعلوك الكافر!

- بتشفي خطب رجل آخر هائجًا ناطحنًا مَنْ كان بجانبه واقفًا كالثور: لنرجم هذا المس، فإن فيه روحًا من عزرائيل قابض الأرواح، لعنة الله عليه.

- رد عليهم ثالث بتبلد غاضبًا متبرمًا، وهو يزبد من بين أسنانه الأمامية الكبيرة البارزة: بل لنقتله، ليكون عبرة، لكل من تراود له نفسه، ويدعي أنه الرجل صالح.

تراجع صالح إلى الوراء متقهقرًا خائفًا مستغربًا مما يسمع ويرى... فإنه اعترف أمامهم جهرًا بكذبه، وهم لا يصدقون!!.. تُرى.. أين وصل غباؤهم؟.. وما هي نسبة جهلهم؟! (قال لنفسه ذلك وهو يستعد للهرب)... ثم بدأ القوم برميه بالحجارة أولًا، ومن ثمَّ مسكوه ومزقوا ثيابه البيضاء التي كانتْ قبل شهور رمزًا لوقاره، وهيبته وعلمه ودينه وصدق حدسه، ثم نتفوا لحيته البيضاء التي ما كانتْ تنزل يده من تمسيدها وتسريحها وتمشيطها، وبدلًا من تقبيل يده كما في السابق، تسارعوا للبصق عليها وعضها!! وهمَّ الأطفال بالركض وراءه وهم يصيحون ويضحكون: انظروا إليه.. إنه ساحر شيطان عفريت بهيئة رجل!!... والرجال والنساء مغبري الوجوه يصرخون لشحذ وحزم الهمم وهم يرددون: امسكوه، لا تجعلوه يهرب منكم.. انظروا إلى صورته كما صوته يشبهان سيدنا وشيخ منطقتنا وحبيبنا، الذي يريد إيهامنا منتحلًا شخصيته!.. يخلق الله من الشبه أربعين!!... اضربوا هذا الكذاب، الدجال، الذي يدعي بأنه

شيخنا الذي نحبه ويحبنا.. هيا اضربوه يا أولاد، وافعلوا هذا من أجل رجلنا التقي صالح ولي الله، فهو حتمًا سيرى ويسمع كل ما نفعله الآن؛ لأن ذلك من أجله فقط، فهو الخير والطمأنينة والبركة... جعلنا الله نقدر ونستطيع على رد الجميل له!.. في حين ظلَّ الذباب والبعوض يحوم فوقهم ويتبعهم وكأنه يحميهم، وهم يلوحون بأيدهم بقرب النصر والفوز العظيم!! .



لم يتوقع أبدًا أن تكون الدعوة بهذا الشكل والجو والترتيب.. فلا شيء يحزن الخاطر، ولا منظر يكدِّر الناظر... جاءتْ الدعوة إلى مثيل، وحيث هو يعمل في العاصمة السويدية التي لا ترى فيها رجلًا يركض وراء امرأة؛ كي يغازلها أو يسقط في أُذنها كلمات جنس فاحشة، يقشعر لها البدن، كما في شرقنا... وصلتْ، تلك التي كان ينتظرها بصبر نافد كجمرة أُبعدتْ قسرًا عن موقدها، فباتتْ تنتظر رجوعها حيث تكون بين أخواتها، كما كانتْ.. وها هي بطاقة الدعوة تصله لتهمس له بلغة رقيقة عذبة محببة للقلب والروح... وهي تدعوه مجددًا إلى الرجوع حيث يتوق ويسعى!!... تمتع مثيل منذ الصغر بجمال معتدل، وبسمعة صافية كسمعة الورد، وهو الآن يتخطى الأربعين قليلًا، لكنه ظل محافظًا على صحته ولياقته، وذلك من خلال ممارسته للرياضة بعد انتهاء عمله مرتين أو ثلاثة في الأسبوع.. ووزنه لا يتناسب مع طوله، فالجميع كانوا يقولون له بأن عليه زيادة وزنه بما يتناسب وطوله، لكنه كان يرفض مقترحاتهم بخفة دم نادرة.. ناهيك عن أكله المنظم بقدر محسوب، ولم يدخن سيجارة في حياته ولم يذق فمه الخمر.. حتى تميز وعرف بنشاطه وحيويته بين أصحابه والمقربين... ذهب إلى المكان الذي حددته

الدعوة، مساءً بعد أن أنهى عمله ومن هناك توجه، ووصل قبل الوقت المتفق عليه بخمس دقائق.. هكذا هو دائمًا، وهذا هو طبعه، أن يكون موجودًا قبل الموعد المضروب، ولم يختلف الموقف هذه المرة عن سابقاتها.. لكن الموقف ذاته كان مختلفًا فعلًا، وهذا ما رآه بنظرات مأخوذة، وبعيون مسحورة.. لم يتوقع أبدًا أن تكون الدعوة بهذا الشكل والجو والترتيب.. فلا شيء يحزن الخاطر، ولا منظر يكدِّر الناظر... دخل وهو يحك بلاط القاعة بحذائه.. فتفاجأ بعدد الحضور الذين حضروا قبل قدومه، وهو الذي كان يعتقد أنه ممن يعتنون بالمواعيد ودقتها، والحضور قبل أوانها بدقائق!... فاتضح الأمر له في حينه، بأن الأوروبيين أكثر دقة وحرصًا على الوقت منه.. وهو القادم من الشرق... كانتْ القاعة كبيرة، مربعة الشكل، عالية السقف، عارية الجدران، وشبابيكها واسعة مطرزة الزجاج، وكأنها تعود إلى كنيسة، وجو القاعة كان مهيبًا شبه صامت، وكأنهم جاؤوا ليحيوا حفلة للأشباح... امتدتْ بعض الطاولات غير المنفردة، تلك التي كانتْ تؤنس وحدتها كراسي نظيفة للغاية، صفتْ بشكل منسق وجميل حولها، مع إبقاء مسافات متساوية الأبعاد بين الواحدة والأخرى ككراسي قاعات دور السينما، ووضع فوق الطاولات وبنسق واحد متشابه كؤوس وأطباق وزجاجات عصير الفاكهة وخبز فرنسي، كالعصي، وترامس الشاي والقهوة وتوزعتْ شرائح اللحوم الباردة على الطاولات في أطباق زجاجية جميلة الزخرفة، نقشتْ بألوان زرقاء، كالصحون الصينية...

لم يكن قد تناول بعد طعام العشاء، فحضوره مباشرة بعد العمل، جعله يشعر بالجوع والعطش قليلًا.. ناهيك عن برودة الجو الذي

كان لا يقبل بأقل من الثلج، تعويضًا!!؛ لذلك كان متعبًا، منهكًا وأحس بالبرد يدق مساميره في عظامه الدقيقة الرفيعة... وما إن دخل القاعة، حتى شعر بالدفء والارتياح والهدوء، ثم تلقفته يد فتاة شقراء رائعة الجمال، ما إن يراها المرء حتى يدمن النظر إليها.. لها قوام رشيق متناسق وخصرها يشبه خصر راقصة بالية، تتحدَّث بطلاقة ولباقة ورقة ودقة وعذوبة، وكأنها ممثلة تجيد دورها على أحسن وجه، فتجدها بعد لحظات، تحبب فيك حتى رائحة زفر السمك!!، وكأن القيامة ستقوم الليلة على شرف جمال الشقراء... أخذتْ منه معطفه الذي كان يتلفلف ويتدثر به، وأشارتْ له بيدها العاجية البيضاء المصقولة بالتوجُّه إلى ركن صغير من القاعة، وأطاعها مأخوذًا ولم تنزل عيناه عنها أبدًا.. صلاها بنظرات نهمه، نهب من خلالها جسدها.. حتى شعرتْ هي بحرقتها وحرارتها وربما بوقاحتها والنهب المفضوح!!، لكنه لم يكن في موقف يستطيع إلا أن يفعل ذلك، حتى همس مخاطبًا نفسه: مَنْ قال لها أن تخلق بهذا الجمال؟!.. لتتحمل العواقب إذًا!!... ذهب كما طلبتْ منه، وإذا به أمام امرأة كبيرة في السن، لها وجه دائري بدين يقاس بالشبر، كقرص الرغيف المنتفخ، وجثتها طويلة وعريضة تقاس بالمتر، وقورة كراهبة في دير، لا تتحرك إلا بمقياس، ولا تتحدَّث إلا بوزن كحركتها.. ثم حركتْ شفتيها (وصاح في سره، حمدًا للرب ستنطق)، ثم قالت، وهي تمدُّ له ورقة فيها بعض البيانات والجداول: املأ - إن أردت - هذه البيانات بما يناسبها من أجوبة، ثم أُدخل إلى هذه الغرفة.. وهي تشير له بيدها (فرأى يدها صغيرة جدًا، وكأنها يد طفل)، وفعل ما طلبتْ منه وهو ينظر لما حوله

بصمت ورهبة كالتائه... دخل الغرفة الموعودة، فشاهد فيها شخصين.. رجل وامرأة، وأمامهما طاولة واحدة بيضاء نظيفة، لا يوجد عليها شيء يسترعي الانتباه.. إلا بعض الأوراق والأقلام وجهاز تليفون قديم، أسود اللون.... قدم البيانات التي كان قد أنهى كتابة أجوبتها، وهو ما زال يجهل مصيره وما ينتظره، رغم شوقه وصبره على هذه الدعوة، لكنه وكما قلتْ لم يتوقع أن يكون الموقف هكذا، وبهذه الرسميات والشكليات والهدوء.. ولا مع الفتاة الشقراء الجميلة التي استغرب من وجودها أصلًا، في مثل هكذا مناسبة!!... خرج من الغرفة وهو سعيد بالنتائج، لقد وافقوا أخيرًا بعد طول عذاب وانتظار.. فذهب حيث أشاروا مجددًا، ما عليه أن يفعله بالضبط، وكان حريصًا دقيقًا على تنفيذ كل ما كان يطلب منه وبطاعة عمياء وبسرور داخلي عجيب... أخذ مثيل مجلسه وهو يرنو بنظره باحثًا عن الشقراء..حتى سمع أحدهم يناديه مبتسمًا:

تفضل هنا يا سيِّد... جلس قُبالته حائرًا، يلوذ بالصمت والجوع والعطش اللذان أخذا منه مأخذًا.. ثم مدَّ له الرجل المبتسم يده، بعد أن درس كل البيانات والأوراق التي كانتْ أمامه والتي تخصه، ورؤية هويته الشخصية التي طلبها منه بكل احترام، وقال مندفعًا بحرص: خذ هذه العلبة التي فيها كل ما يلزم، وانتظر دورك، وهو يشير له مرة أخرى وهو ما زال يبتسم عن ثغر عذب، بتغيير موقعه حيث يتوجب عليه أن يكون، فلبى مطيعًا، كطفل يتيم... انتظر.. ولم يطل الانتظار كثيرًا، حتى نادته الشقراء بجمالها وهيبتها وطلعتها الأخاذة: سيِّد مثيل.. فقاطعها قائلًا: عيون مثيل!!، فابتسمتْ وهي تستأنف كلامها بدلال وحنية: تفضل، لقد حان

دورك... شربتْ عيناه منها كثيرًا، ولم يرتوِ.. وظل منكمشًا على نفسه وهو يبتسم، مجيبًا: شكرًا على عطفك... فضحكتْ بسحر وادع أخاذ، وكأنها ستسافر بعدها في رحلة!... أخذ مجلسه هادئًا مطمئنًا وسعيدًا لنهاية الإجراءات.. عندها سيكون حرًا، كما كان قبل أن يدخل هذه القاعة وقبل أن يلبي الدعوة... بعد أن أنهى واجبه الذي كان يسميه موقفًا؛ سلمه أحدهم ورقة بيضاء كتبتْ عليها جملتان، لم يعتنِ كثيرًا بقراءتها؛ لأن الجوع والعطش كانا قد استوليا على كل جسده، فشعر بخور قواه.. ثم نادته المرأة العجوز قليلة الحركة والكلام ذات الوجه الذي يشبه قرص الرغيف المنتفخ، وقالتْ: تفضل يا سيِّد مثيل، خذ مكانك من الطاولة رقم ٣.. كل واشرب قدر ما تستطيع.. وتركته وذهبتْ، وهي تخطو بخطوات واثقة مدروسة، وكأنها في كلية حربية!!... لم يأكل كثيرًا.. فشبع بعد نصف رغيف من الخبز الفرنسي الطويل، وشريحة من الجبن الأصفر الهولندي اللذيذ، وشريحة تقابلها من اللحم البافاري البارد وكوب من الشاي الأسود.. وبعد أن اكتفى وأدى واجبه.. همَ بمغادرة المكان، فتلقفته من جديد الشقراء التي أسكرته بعطرها الذي يخزي ويتخاذل أمامها عطر بساتين العالم مجتمعة، وناولته معطفه وهي تهمس له بإغراء (رآه مفضوحًا): هل وقعت الورقة التي كانت في حوزتك؟

- قال باستغراب مصطنعًا البراءة، وهو يقرِّب ما بين حاجبيه: أيُّ ورقة؟!

- الورقة التي أعطاها لك ذلك الرجل الذي كنت عنده قبل قليل، ذو الصدرية البيضاء... بعد أن أنهى عمله!!

- آه... ثم ضحك ضحكة صافية، وقال: وماذا فيها؟.. ولماذا علي أن أوقعها؟

- عجبًا، ألم تقرؤها؟(قالتْ ذلك، وهي تقترب منه ربما بقصد حتى بات صدرها يلامس صدره)

- احمرتْ والتهبتْ وجنتاه، وبالكاد كان يبلع ريقه، واتقد كالشعلة مختلجًا صادقًا دون عبث: الحقيقة.. أقصد، شغلني الجوع والعطش عن قراءة محتوياتها، ولكن ما دام الأمر بهذه الخطورة، سأقرؤها حالًا.. ثم بحث عنها فلم يجدها!.. فباغتها مغمغمًا: ماذا كانتْ تحوي تلك الورقة؟

- تتكون من سؤالين، إما أن تختار الأول أو الثاني، ولك حرية الاختيار!!

- سألها مجددًا وهو يتفحصها مليًا: وما هذان السؤالان؟

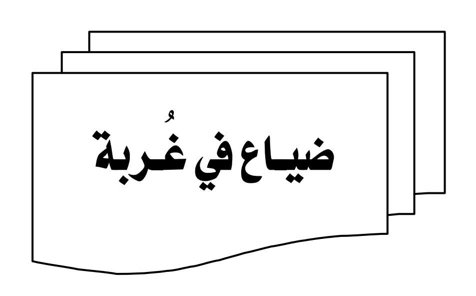
- إما أن تختار رمي الكيس الحاوي على دمك المسحوب منذ قليل في النفايات!، أو أن ينقل إلى المرضى الذين هم بحاجة إليه، ثم نوهتْ متابعة: بدون هذا الإقرار لا يمكن لنا الاستفادة من دمك، هذا يعني سنعتبر الورقة موقعة على أساس إهمال الدم المأخوذ ورميه في النفايات!!

- نبر مستفسرًا: ولماذا تعلنون عن حملة التبرع هذه، وتتركون للناس فيما بعد حق الاختيار؟!

- ببساطة ورقة وصدق همستْ: لأن هناك بعض الناس يودون فقط تجديد دم أجسامهم، فنسحبه نحن مجانًا ثم نرميه بطلباتهم ونزولًا على رغباتهم.. هذا كل ما في الموضوع!!

ـ فهمتُ الآن، الحرية عندكم تشمل كل شيء حتى الدم، وضرب جبينه براحة يده وصاح دون إرادة أو شعور- فلوث السكوت والهدوء اللذين كانا مخيمين على القاعة كالسحب- وهتف: لولا أنتِ لذهبتْ دون إقرار، وهذا يعني بأن كل ما فعلته الليلة سيذهب هباءً!!، فمال برأسه نحوها وقرب فمه بثقة واعتداد من صفحة خدها المتورد، وكان يتوق لفعل ذلك طوال وقت تواجده، ووجد العذر في هذا الوقت مناسبًا ووجيهًا، فقبلها وهو يشكرها... تقبلتْ ذلك منه وهي في غاية السعادة والسرور.. ثم خاطبهما أحد الذين كانوا يجلسون بقرب مثيل على الطاولة أثناء تناول العشاء: ها هي الورقة التي تبحثان عنها... أخذها منه وشكره، ووقعها بعد أن اختار أن يذهب دمه إلى مكانه الصحيح حيث المرضى، ومَنْ هم بحاجة إليه.. ثم صافحها، فغرقتْ راحتها في كفه.. وخرج وهو يسأل نفسه بحيرة: هل كان هذا موقف التبرع بالدم إنسانيًا محضًا أم أنه شعور منِّي نحو الانتماء لهذا الوطن الذي أقطنه منذ ربع قرن تقريبًا؟!

لفحه الهواء البارد في الخارج.. ولم يعد يتذكر ما حدث داخل القاعة، سوى شعوره بالبرد القارس الذي أحس بمساميره، وهي تدق بقوة أليمة في عظامه الدقيقة الرفيعة.. ورغم ذلك سار بزهو واعتداد، مفعمًا بالسرور والرضا والاغتباط.



لقد أخذنا بنصيحة جارتنا العراقية، وقلدنا ما فعلته صديقتي سميَّة، وخالتها رقية، وقلنا لأنفسنا: لماذا لا نجرب أن نفعل مثلهم؟!، ونحن نراهم يعيشون برفاهية وبأحسن حال، وكأنهم ملوك في قصورهم البهية الثرية!!

قرع جرس باب منزلنا بشكل متواصل مرعب كصفارة الإنذار، وكأنَّ القيامة قامتْ... سألتُ زوجتي مرتبكًا: تُرى مَنْ يكون الطارق وفي مثل هذا الوقت؟

- علمي لا يزيد عن علمك.. افتح وستعرف!! (أجابتْ موجزة بتوتر)

نزلتُ من الطابق العلوي مهرولًا دون شعور، وأنا في ملابس النوم، والفزع يركبني.. أغمغم مع نفسي: اللهم رفقًا بنا، اللهم اجعله خيرًا.. ثم فتحتُ الباب... وإذا بميسون زوجة حازم (أصدقاء العائلة) تدخل دون إذن صارخة، باكية، متشنجة، خائرة القوى، وهي تهذي وتزفر وتهز رأسها، قائلة: لقد غلى مرجلي، ولم أعد أتحمله أو أطيق تصرفاته.. الخائن، البشع، المقامر، المغامر الذي غدر بي دون رحمة، تبًا له وليغدر به الشيطان، كما غدر بي!!،

وأتمتْ بتهالك: رجل كثير الخداع، سريع النسيان، بلا مروءة ولا حياء أو وفاء... نظرتُ لها نظرة رثاء، وقلتُ لها في إشفاق: تفضلي، اجلسي هنا أرجوكِ.. وبرفق أجلستها في غرفة الاستقبال، وهممتُ بمناداة زوجتي التي جاءتْ هي الأخرى بملابس النوم؛ لأن الوقت كان قد تأخر، والساعة قاربتْ الحادية عشر ليلًا... قدمنا لها كأسًا من الماء البارد وجلسنا قُبالتها، وقلتُ بلهجة الناصح متثائبًا، صريحًا وصادقًا، مبادرًا في الكلام: أرجوكِ ميسون، لكل مشكلة حل، اهدئي قليلًا، خذِ نفسكِ وحديثينا عن السبب الذي جعلك تنهارين لهذا الحد (وبخبث أردفتْ)، وتستنجدين بنا في مثل هذا الوقت!... عندها انتقلتْ زوجتي من مكانها إلى ميسون حيث هي كانتْ جالسة، فمسكتْ بكتفها وهي تواسيها بلطف وعطف... لكن صديقتنا انفعلتْ وتشنجتْ مجددًا وارتجفتْ أطرافها، وكأنها تشكو من نوبة حمى، ثم بكتْ بصوت عالٍ مفضوح، فخفنا (أنا وزوجتي ونحن نتفرس وجوه بعضنا بقلق) من أن صوتها سيقلق الأولاد في نومهم ويوقظهم... تعرفنا على عائلة حازم في الغربة عن طريق شخص عراقي ثالث، طالما تحدث عنهم بالخير والبركة، فزادنا شوقًا، وتقنا للقائهم، حتى حصل.. ثم استمرتْ العلاقة فيما بيننا ونضجتْ وباتتْ متفتحة، زاهية نقية صادقة، لا تشوبها شائبة.

تخرجت ميسون في جامعة بغداد كلية الصيدلة، في حين كان زوجها مهندسًا ميكانيكيًا، رزقا بولدين وبنت وهم الآن في سن الزواج؛ تجاوز حازم منتصف الحلقة الخامسة من عمره وظل محافظًا على لياقته وصحته، وقور المظهر وله شارب يعتني به

كثيرًا وكأنه يعني له الكثير!!.. قليل الكلام، محايد الفكر والرأي، لا يحب التحزب ويميل إلى الانطواء ويرغب في الهدوء، يتمتع بثقافة مقبولة تساعده على إدارة الحوار أثناء الجلسات.. في حين أطفئتْ زوجته قبل أيام معدودة - وبحضورنا وبغياب زوجها، والسبب كما قالتْ لنا كاذبة: عمله - شمعتها الثامنة والأربعين، طويلة القامة، عريضة الردفين، واسعة العينين، رقيقة الشفتين، كثيرة المدح لنفسها إن تحدثتْ، باردة الطبع، هادئة ومنطوية كزوجها، لكنها كانتْ تفوقه في هذا المجال كثيرًا، حتى يتخيل لبعض مَنْ يعرفها، بأنها تعاني من شذوذ ما، أو تتمتع بحالة من الكآبة المزمنة! قليلة الاهتمام بأولادها، وفيها شيء من التكبر والغرور وفي أحيان يتجاوز الحدود الدنيا، لكنها طيبة القلب، نقية السريرة، وتحب الأكل والنوم كثيرًا وتفضلهما على كل الهوايات، والحقيقة كنا نستمتع بالحديث واللقاء مع زوجها أكثر منها... وها هي تلمع جبهتها بالعرق، تنوح أمامنا الليلة نادبة، متجهمة، تبكي وتشتم زوجها وتقول ما لم نسمع منها من قبل مثل هذا الكلام خاصة بغياب حازم... وهذا ما جعلني أتذمر وأصرح برأي جهرًا: يعني عذرًا أخت ميسون... لا أظن من حقِّنا، أن نتكلم عن حازم بهذه الطريقة وبغيابه!!

- ماذا تقصد؟.. ستجعلني أتضايق منك (قالتْ ذلك، وهي غاضبة من وراء دموعها)

- كيف هذا؟ عجبًا... فنحن لم نألف لحازم هذا طبعًا فيه!!

- بذعر هادرة متذمرة صاحت: ماذا؟.. هل تكذبني؟!

- عفوًا، أنا لم أقل ذلك.. بل أردتُ أن أقول أننا وحازم أصدقاء، ولا نحب الحديث عنه بهذه الطريقة المشينة وهو غائب.. هذا كل ما في الأمر.

فهمَّتْ ميسون بالوقوف، وكأنها تنوي مغادرتنا غاضبة، لكن زوجتي تدخلتْ بسرعة فأجلستها، وهي تقول: اصبري قليلًا، زوجي لا يقصد إهانتك أبدًا، وأنتِ تعرفين.. كم نحن نحبك ونود خاطرك.

- انتفضتْ مندفعة بحنق مولولة: حازم لا ينقطع عن الصول والجول ولم يفد معه لا أسلوب الوعيد ولا التهديد!!، ثم نوهتْ: ماذا أقول؟ غفر الله له!، وألصقت في زوجها صفات مشينة، فظهر زوجها بهذه الصفات وكأنه الشيطان.

- رددتُ معقبًا: لا إله إلا الله.

- أجابتْ باختصار: صدقت وهو لا يصدق!

- ومَنْ هو الذي لا يصدق؟

- بتأفف زمجرت (فبدتْ وكأنها قد ركبها ألف عفريت): عجيب أمرك يا أخي، هو طبعًا زوجي حازم، مَنْ يكون غيره؟!

- خاطبتُ نفسي هامسًا: غفر الله لكِ إذًا!

- ماذا تقول؟

- لا شيء، إنها مجرد غصة، تأتيني كلما تجاوزتْ الساعة الحادية عشر ليلًا!!، ثم همستُ مجددًا دون أن أجعلها تسمع: أيُّ شيء وضع الله في رأسك بدل العقل؟!، ثم سألتها بحرص: أرجوكِ،

حدثينا بهدوء عمَّا حدث بينكما إن أردتِ، لعلَّنا نستطيع مساعدتكما، ولكن بصراحة (شعرتُ وأنا أنظر إليها بأنها تضايقتْ وانزعجتْ من الكلمة الأخيرة)، فأردفتُ مضيفًا.. أقصد ما حصل بالضبط!!... ترددتُ لبرهة قصيرة، وهي زائغة النظر (اعتقدتُ من خلال ترددها وتأملها، أن المسألة كانتْ كبيرة وخطيرة، بحيث توقعتُ أنها ستخبرنا بالحقيقة كاملة؛ لأجل تدخلنا ومساعدتهما، وقد صدق حدسي) حيث عدلتْ من جلستها وبدتْ بمظهر الجد الحصيف، فرفعتْ حاجبها الرفيع المطلي بالصبغ الأسود، وقالتْ شارحة، وهي تهز كتفها القريب من زوجتي: لقد أخذنا بنصيحة جارتنا العراقية، وقلدنا ما فعلته صديقتي سميَّة، وخالتها رقية، وقلنا لأنفسنا.. لماذا لا نجرب أن نفعل مثلهم؟!، ونحن نراهم يعيشون برفاهية، وبأحسن حال، وكأنهم ملوك في قصورهم البهية الثرية!!

- قاطعتها زوجتي بفضول واستغراب: هل تقصدين بأنهم وجدوا عملًا لائقًا، يتناسب وشهاداتهم أو وضعهم الاجتماعي مثلًا؟!

- بمكر لعلعتْ غامزة: يا عزيزتي، وزوجة أخي، لا تكوني ساذجة إلى هذا الحد من التفكير المتواضع!!.. أيُّ فرص عمل وأيُّ شهادات تقصدين؟.. أنا أتحدث عن شيء آخر تمامًا.. ثم استمرتْ بطلاقة ولباقة ودون تلكؤ: لقد قررنا بجلسة خاصة، خلتْ من الأولاد.. واتفقنا على كل الإجراءات التي يجب مراعاتها والأخذ بها، ومن ثمَّ قمنا بتقديمها إلى الجهات المختصة في الدولة.

- قلتُ وأنا أُداري إغفاءه: جلسة سرية؟ دون أولادكم؟، وقرارات خطيرة؟ ومن ثمَّ إجراءات ومراعاة.. ثم انطلقتُ مستفسرًا بحرارة

ولهفة: أرجوكِ ميسون، لا داعي للرموز، قولي كل شيء دون ألغاز، فنحن في الحقيقة لم نفهم شيئًا!!، ثم وجهتُ سؤالي إلى زوجتي: أليس كذلك يا عزيزتي؟

- أكدتْ زوجتي كلامي بقولها: هذا صحيح، ثم نظرتْ إلى ميسون وهي توجه الكلام لها: أنا لم أفهم ما يدور في خلدك، أو ما تقصدين!!

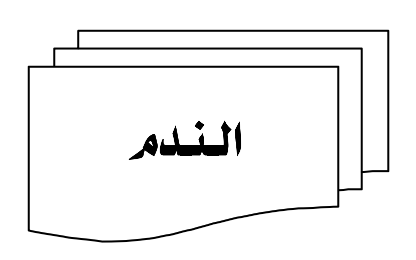
- فتراجعت ميسون إلى الوراء، ورصت ظهرها بالمقعد التي هي جالسة عليه، وقالتْ بغمغمة وتردد: أردتُ أن أقول.. في الحقيقة، قصدتُ أننا اتفقنا على الطلاق، فالمميزات والمنح والرواتب والمحفزات كلها كانتْ أمور مغرية، لم نستطع أن نمنع أنفسنا عنها.. ثم انطلقتْ باكية بصوت مبحوح، مخنوق، خائف ومرتبك...

- بادرتها زوجتي بكلمات طيبة، رقيقة وحاولتْ تهدئتها بقولها: لا تكدري نفسك، ولا تجهديها أكثر من طاقتها، إذا كان الأمر قد حصل، فلابد من الروية والتفكير قليلًا، لكي نستطيع أن نجد مخرجًا لهذه المشكلة الغريبة العجيبة التي أسمعها، ثم أردفتْ بجد وخيبة: أنا لم أسمع من قبل بأن هناك زوجين متحابين ينفصلا بالاتفاق لقاء منح أو رواتب أو أي شكل من أشكال المادة، ثم قستْ عليها بالتأنيب والتقريظ: كيف طاوعتك نفسك؟.. ألم تفكري بأولادك عندما يعرفون؟.. ماذا لو تقدم أحدهم لخطبة ابنتك مثلًا، ماذا ستقولين له مطلقة وتعيشين مع زوجك في دار واحدة؟.. كيف هذا؟، وصاحتْ زوجتي بانفعال لم أتوقع حدوثه: لقد أفسدتنا الغربة والله!!

ـ شعرتُ بأن ميسون أصيبتْ بانتكاسة بعد أن صدمتْ بقول زوجتي الحقيقي، الصادق الذي لم يعنِ سوى ترجمة لفعلهم الطائش ذاك، فتدخلتُ لتخفيف الوطء، واندفعت باستكانة، وكأني أخفي جرحًا، موجهًا الكلام إلى صديقتنا: لكنكِ لم تقولي بعد، مادام الاتفاق كان برضا الطرفين، فما المشكلة؟، أقصد.. ما الذي استجد وجعلك تنهارين بهذا الشكل؟!

ـ (برهة صمت) جففتْ من خلالها دموعها بكم قميصها، وربما رتبتْ فيها أفكارها رغم اضطرابها، وعدلتْ من جلستها وانطلقتْ بجرأة وبسطوة غير متوقعة، قائلة: هذا ما جئتُ من أجله.. ثم تابعتْ بلوعة: لقد عرفتُ وبطريقتي الخاصة.. أنه قد استأجر شقة، وبات يسكنها ويتغيب عن حضوره إلى بيته كثيرًا، وبحجج واهية، منها عمله الجديد الذي لا أعرف عنه شيئًا (توقفتُ من جديد، وهي تغص بالعبرات والحسرات)، ثم أضافتْ بصوت محشور، كالخوار: لقد اكتشفتُ أن هناك امرأة في حياته، وهو مشغول كثيرًا هذه الأيام بها.. بعد أن قرر الزواج منها!، وهذا ما جعلني أنهار وأنفجر؛ ألوم نفسي على مطاوعتي له وقبولي بفكرة الطلاق بالاتفاق، ثم علا نحيبها وبكاؤها دون شعور منها، وهي ترتعد ومن بين شفتيها خرج صوتها قاصف عاصف كالريح: كم كنتُ غبية، طائشة، معتوهة وجشعة، ولم أفكر ببأس القرار ونتيجة المصير، لم أفكر لحظة واحدة في أولادي الذين هم في سن الزواج، وصرختْ جزعة، متلعثمة ومنهارة: لماذا وافقته؟!.. ليأخذني الشيطان، وليرَ زوجي الخائن جهنم في حياته وقبل أوانه... ثم همَّتْ بمغادرتنا

بخطوات نادمة، ثائرة وقلبها يتمزق لوعة وندم وهي في حالة كانتْ أقل ما تكون بين الجنون والانتحار.. دون أن نستطيع اللحاق بها.. ولِمَ نلحق بها؟!... وبقيتُ أحدق بخيالها الشارد، فغمغمتُ أودعها بكلمات خرجتْ من صدري ومن بين أضلعي حارة، ملتهبة، متقدة بالغضب: إنكم كفر لا يطاق!!، ثم همستُ لزوجتي وأنا أشهق وعيناي فائضتان بعد محاولات يائسة لكبح الدموع.. ولا أعلم لماذا؟!.. بحسرة وغيظ قائلًا: نحيا وكأننا لن ننتعش في الغربة إلا بالتنهدات؟!.. وساد الصمت الذائب، كالسحر، منزلنا وعمَّ الهدوء أرجاءه من جديد، واعتبرتُ السكون المخيم، كالسحب في تلك اللحظات، صلاة وفضيلة.



النـدم

هزَّتْ ياسمين رأسها متوجعة، وقالتْ وهي تنظر إلى الأرض: الموضوع كبير يا أمي!!... ثم تابعتْ بغصة وحرقة، وكأنَّ شيئًا ما في داخلها قد تمزق: أكبر مما تتوقعينه للأسف!!.. وهمتْ باكية بألم ولوعة... أطلتْ الأم بنظرات حيرى وهي تتوجس الخطر، فقالتْ مخاطبة ابنتها بنبرة مرتجفة وبأنفاس متهدجة، بعد أن استحل القلق كيانها: غاليتي وعزيزتي، أرجوكِ.. اشربي عصير الليمون هذا، واهدئي قليلًا وحدثيني بروية وحكمة عمَّا حصل، ثم أردفت بتأثر: يا إلهي، ما هذا؟ إنك مازلتِ عروسًا... هدئي من روعكِ واشرحي لي ما جرى؟.. وما حدث؟!.. فما إن طلبتيني في الهاتف وفي هذا الوقت المتأخر من الليل، حتى جعلتيني لا أستطيع الوقوف على أطرافي، وتمنيتُ أن يكون الخطب خيرًا وسهلًا... في حين استمرتْ ياسمين بالتقلب في فراشها بأرقٍ قاسي شديد كاد يقتلها، وشعرها يهتز كأنَّه يرقص فوق رأسها، وهي تئن وتتنهد وترثي حالها المنحوس وحظها العاثر، الذي جعلها وهي حديثة العهد في زواجها.. تتلوى وتتأوه وتنوح شاهقة، كأنها تعاني من مغص حاد يقطع أوصالها: تبًا لي من إنسانة غبية، مغامرة، ساذجة، رعناء

وبلهاء.. وأستحق كل ما يحصل لي، ثم بتشنج تابعتْ: لم أعد أثق بأحد بعد الآن أبدًا.. وها أنا مازلتُ عروسًا وأستقبل أيامي كالسجينة لوحدي، وكأنَّ زوجي قد مات!!.. وكم أرغب الآن أن أجده قد فارق الحياة فعلًا!!، ثم تعود وتتقلب وتتشنج ويرتفع صوتها تارةً، وبكاؤها تارةً أخرى فيشق ويلوث هدوء وسكينة الليل.

لم تتجاوز ياسمين عامها الثالث والعشرين، رقيقة كالنغم، جميلة ونقية كقطرة الندى، دقيقة الملامح، ساحرة الكلام، رشيقة القوام، فارعة الطول ولها هيبة امتزجتْ فيها الرقة والغنج مع الكبرياء، وحين تتحدث تخرج الكلمات من فمها، وهي توحي بالمعرفة والذكاء، طيبة القلب، نقية السريرة وحالمة أبدًا... تزوجتْ زواجًا تقليديًا بعدنان قبل شهر ونصف تقريبًا، وهما يعيشان الغربة وبكل تناقضاتها وغرابتها، ولم يكن زواجهما في منأى عن تلك التناقضات.. وها هي الليلة غارقة في دموعها الحارة، الملتهبة، تدق صدرها بيدها الرقيقة الدقيقة الجميلة بألم مضنٍ دون شعور منكسرة متحطمة، وأمها تنظر لها بعينين يائستين متأسفتين على حال ابنتها التي مازالتْ في بداية عهدها بالزواج!!... في حين كان عدنان رجلًا متزنًا ـ كما عرفه الجميع ـ رسامًا وعلى موهبة وذوق فني رائع، لكنه كثير العلاقات، واسع الصداقات من كلا الجنسين، سريع التأقلم مع الآخرين، بخيل الطبع، قليل النقد، راضٍ على حياته، وتزوج من ياسمين بعد أن قرر الزواج وهو في منتصف الحلقة الثالثة... أشيب الرأس، طويل القامة كعملاق، وفي أعلى وجهه حفرتان عميقتان تنمان عن شر أو توحيان بذكاء من خلالهما

ينظر إلى الآخرين بسخرية مفرطة، وكأنه يلعن حظه في الحياة! وفوقهما يجلس حاجبان كثيفان كأنهما لشيطان، ولنبرة صوته صدى زجاجي غريب، كأنَّ في داخله عفريت يقهقه... بللتْ ياسمين ريقها بعصير الليمون قليلاً، ثم حدقتْ بأمها بخوف حقيقي، ونوهتْ قائلة:

أنا مازلتُ لم أخبركم بكل ما حدث أو يحدث!!.. ولاذتْ بالصمت وكأنه سينقذها!

فزعتْ الأم من قولها، وفجأة اصفر وجهها، ومدتْ يدها فأمسكتْ بكتف ابنتها، ونبرتْ: ما هذا الأمر الذي لم تخبرينا به بعد؟!

- هزتْ ياسمين رأسها متوجعة، وقالتْ وشفتاها ترتجفان، وهي تنظر إلى الأرض: الموضوع كبير يا أمي!!... ثم تابعتْ بغصة وحرقة، وكأن شيئًا ما في داخلها قد تمزق: أكبر مما تتوقعينه للأسف!!.. وهمَّتْ باكية بألم ولوعة.

- ردتْ الأم بنبرة كأنها تبكي: لا تجعلينني صريعة أفكاري السوداء التي تتراقص في ذهني الآن كالعفاريت، قولي: ما الذي تعنيه؟

- عدنان!!

- بعينين محنطتين، شاخصتين: ما له؟

- لقد... (وغاصتْ هائمة بالصمت اللعين من جديد)

- بجزع: أجيبي، ردي أرجوكِ... أنتِ بسكوتكِ هذا، تقتلينني!!

- دمدمتْ وهي تلهث في ذعر، وكأنها تعاني من لوثة: ماذا أقول؟ تبًا لي من غشيمة وساذجة.. ثم شهقتْ تبكي وتشد شعرها براحة يديها بانفعال جنوني غريب... حنتْ عليها أمها، وهي تقبِّلها من

رأسها برقة وحنان مستدرجة، وكأنها تخفف عن ابنتها يأسها: كل شيء يمكن أن يحل بالتفاهم والنقاش... ثم تابعتْ بعطف زائد مفتعل: ما عليكِ إلا أن تشرحي لي بالضبط ما حصل، واتركي لي الباقي سأجد طريقة لحله... واستطردت مازحة؛ لتقليل وطأة الموقف على ابنتها الغارقة بالدموع: أنتِ تعرفين حكمة أمك جيدًا.. ولا داعي لتذكيرك بها.. وسألتها مباغته: أليس كذلك؟!... رنتْ ابتسامة صافية على وجه ياسمين، وهي تمسح الدموع من على خديها وعينيها اللتين التهبتا واحمرتا نتيجة البكاء المتواصل.. فدنتْ من يد أمها وركعتْ على الأرض بمشهد بان مسرحيًا، وقبلتْ يدها بحرارة وقوة، وقالتْ: الحقيقة يا أمي.. أقصد أنا وعدنان وكما تعرفين قد تزوجنا، ولكن اكتشفتُ بعد أسبوع واحد من الزواج أنه على علاقة بامرأة أخرى، أعني له زوجة أخرى مازالتْ على ذمته!!... وقفتْ الأم بهبل صارخة، وهي تدق الأرض بقدميها بقوة، وتدفع يد ابنتها بعيدًا عنها، وتهتف بانفعال هاذية: ماذا؟! له زوجة أخرى؟.. كيف هذا؟.. القانون ـ هنا ـ لا يسمح بتعدد الزوجات!! مستحيل، لابد أن تكوني مخطئة!! (قالتْ ذلك، وهي في حالة هياج عصبي شديد، بعد أن بات خوفها على ابنتها سوطًا يلسعها)... دخلتْ ياسمين بنوبة بكاء حاد مجددًا.. وأجابتْ مقتضبة: أتمنى أن أكون مخطئة!!

ـ بأسى واندفاع: ولكن كيف؟!

ـ متنهدة باستكانة: لقد تأكدتُ بنفسي، بعد أن رأيتُ قسيمة زواجهما!!... ثم أردفتْ باحتقار ومقت وشفتاها ترتعش، كأنها

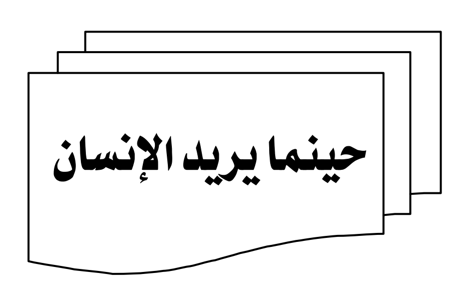
ضاقتْ بترددها وصمتها: لقد باركتما- أنتِ وأبي - زواجنا وأنتما تعلمان!!

- جلجل صوتها: نعلم ماذا؟... ثم باختصار وبصوت قاصف، ناقم سألتها: ماذا تقصدين؟! (لحظة صمت لا يسمع فيها سوى لهاث الأم ونحيب ياسمين).... باستسلام عادتْ الأم قولها بوجوم: ماذا تقصدين، باركنا زواجكما، رغم معرفتنا؟! ها... انطقي...

بوجه مكفهر غرزتْ ياسمين بصرها بوجه أمها، وهمَّتْ قائلة بحنق وامتعاض؛ بعد أن استجمعتْ ما بقي من إرادتها وبتحدٍ، وكأنها تحاول أن تنتصر على مأساتها: هل نسيتما ما تمَّ الاتفاق عليه، بقلوب مبهورة وعقول مأخوذة مع عدنان؟! وها هو؛ وبعد أقل من شهر ونصف من زواجنا، يعلن حريته ويمارسها بكل غطرسة واستهتار، لماذا؟ بسبب غبائي أولًا وثقتي العمياء به ثانيًا، وقبولكما على عرضه، ومباركتكما لزواجنا وبشرطه العجيب ذاك!!... ثم صاحتْ بهوس: هل نسيتِ يا أمي ذلك الاتفاق؟ (قالتْ ذلك والشرر يتطاير من عينيها، وهي لا تزال تنهب أمها تحديقًا، وكأنها تريد ذبحها من خلال نظراتها)...

جفلتْ الأم، كأنها طعنتْ وذبحتْ بخنجر من عذابات ابنتها، تجمدتْ الدماء في أطرافها وعقدتْ الدهشة لسانها، نكستْ رأسها ودموعها تزاحمتْ واختنقتْ في عينيها ولم تغثها أو تنقذها... بقيتْ صامتة كالجبل، ووجهها جامد كالحجر.. وهي تشعر داخلها يتحطم كموجة على صخرة الندم.. وربما هي كانتْ بحاجة إلى هذا التفتت لكي تصحو أو تهدأ وتستريح، بعد أن صارحتها ابنتها بالحقيقة المُرَّة،

القاسية التي كانتْ ثمرة أطماع وقتية زائلة، وماديات غير خلقية عندما وافقوا عدنان على مقترحه بالزواج من ابنتهم دون أوراق رسمية... وبجشع واندفاع وغباء وطمع، جاوز فيه حدود الخطيئة والانحطاط.



لفَّت الأم ذيل ثوبها وطوته تحتها، ثم تنحنحتْ قليلًا، وقالت: الحقيقة.. أعني أنا وأبوكِ بتنا نخاف على مستقبل كمال كثيرًا، والحياة هنا ليستْ كما في العراق... الضعيف منا لا يؤمن بالقوة، كسلاح فتَّاك؛ ليس لأن القوة ليستْ كذلك، بل لأنه لا يمتلكها!!، ثم يتباهى ويتفاخر ويعزو حين ذاك أفعاله إلى أمور غيبية غير مرئية كالله مثلًا، أو شكلية كالنزاهة والشرف والإيمان والصبر والتقوى!؛ لتبقى مشكلته معلقة حيث ينافق كلما دعتْ الحاجة إلى النفاق، ويكذب عندما يتوجب عليه الكذب، ويقترف الخطيئة عندما لا يجد أمامه طريقًا آخر سواها... في حين يبقى عابثًا يبحث عن الفوز والشهرة، رغم عدم النطق أو التلميح بهما، وهذه هي طبيعة الإنسان الشرقي دون رتوش أو ثياب، وعلينا تقبلها رغم مرارتها؛ لأنه ومنذ أمدٍ بعيد تولى بنفسه خداع نفسه، فغالبًا ما نراه يتجمل بقناع التقي النقي ويخفي خلفه صورة الدجال المحتال ـ صاننا الله من أهوال وشرور ما كان يخفي.

جلستْ نهال وحيدة كشهاب يهوى وحشته بثياب البيت البسيطة الجريئة المثيرة، والتي تصلح للنهار والمساء وللنوم أيضًا، في

إحدى ساعات العصر المملة الثقيلة في شقتها العتيقة، ذات الشبابيك الواسعة، والتي تقف خلفها ستائر سميكة كثيفة قاتمة كالجدران، الواقعة في الدور الرابع من منزل يبدو آيلًا للسقوط والمدفون فوق تله، تطهرها الأمطار وتكنسها الرياح في الأيام العاصفة الممطرة، تلك التي تطل على نهر الراين الذي يشقُّ مدينة كولن الألمانية بجسارة، تلك المدينة التي تشتهر بكثرة الأتراك الساكنين والمقيمين فيها في السر والعلن... جلستْ بمفردها تُحادث نفسها، وهي تتذكر يوم تعرفتْ على زوجها آدم، وكيف كانتْ الواقعة عند سماع أهلها، خبر صحبتها وعلاقتها به قبل الخطوبة... حينما رآها كمال أخوها وهي بصحبة آدم، توقعتْ أن يكون مساؤها، عزاء.. أخبرتْ آدم بذلك بكل صراحة وحثته ألَّا يحاول الاتصال بها في الأيام القادمة، حيث لا تعلم ما ستأتي به الأيام، وفرتْ من يديه هاربة كأنها سارقة، متوجهة إلى منزلها الغائص بين حفنة من بيوت المسيحيين غرب بغداد آنذاك... وما إن خطتْ أرجلها عتبة دارهم حتى تلقفتها الأيادي القاسية الغليظة الخشنة الصماء التي لا تعرف في حياتها الرحمة.. الأم والأخ الذي يصغرها بسنوات - لأنه الذكر الذي لا يخطئ وإن أخطأ فهو الذكر- والأب المتزمت السكير الذي لا يخون زوجته ولا يأتي بخطيئة، والذي لم يذكر كلمة الله يومًا على لسانه!!... نزلتْ عليها الصفعات والركلات من كل صوب وجانب، كصفعات الريح المجنونة.. وتناثرتْ على مسامعها الشتائم والكلمات الجارحة البذيئة من فمهم كالمطر... سالتْ دماؤها الحارة النقية، وتورم وجهها الأبيض الصافي الذي يشبه صفحة النور،

خدش حياؤها العذري البريء، تمزقتْ ثيابها وهي تبكي بصوت مكتوم وتتوجع، ولكنها لم تكن تصرخ فصراخها كان بمثابة كبرياؤها الذي لا تتنازل عنه مهما حصل.. كل ذلك حدث بعد أن وشى أخوها بها لأهله فقط؛ لأنه رآها مع آدم الذي من دينها تسير في إحدى شوارع بغداد بوضح النهار، وكأنها بخروجها مع آدم؛ لتحتسي الشاي في إحدى المقاهي المكشوفة، تكون قد سلمتْ شرفها الذي تُهان وتُضرب وتُركل من أجله.

أحستْ نهال، التي كانتْ تتمتع بحس فني رائع، وبصوت ملائكي عذب.. لها عينان كفصين من زمرد.. وأنف دقيق كأنه خلق لشم الورد، وطيبتها كانتْ غالبة على شخصيتها وتصرفاتها كراهبة... أحستْ بنفسها، وهي مازالتْ جالسة بمفردها تشهق، وكأنها وخزتْ بإبرة الذكريات.. فخاطبتْ نفسها بصوت مسموع: إنه العُرف الشرقي!!، ولم تسمع إلا صوتها، وفنجان قهوتها ينظر إليها بصمت كأنه يعطف عليها... ثم سمعتْ جرس الباب يقرع.. لتدخل أمها- التي هجرتْ العراق قبل فترة ليستْ طويلة مع زوجها وابنها كمال وجاءتْ حيث تعيش ابنتها - مهمومة مخنوقة بالغيظ، ووجهها مكفهر.

تزوجتْ نهال بآدم بعد تلك الواقعة المؤلمة.تلك التي دخلتْ بسببها المستشفى لتلقي العلاج ضد التسمم، حيث أقدمتْ بعد الصراع الدامي الذي خاضته مع أهلها.. دخلتْ غرفتها وأوصدتْ بابها عليها، على تناول كمية لا بأس بها من علبة حبوب وجدتها في حينها أمامها، ولم تكذب خبرًا.. تناولتها وكانتْ كافية لإدخالها

المستشفى.. ورغم ذلك فقد ظل حبها لآدم في قلبها لم ينخلع أو يتزعزع، وعندما سمع آدم ما حصل لها... تقدم على الفور طالبًا يدها من أهلها، رغم أنه مازال طالبًا في الكلية، فأثبت لأهلها ولفتاته أنه رجل جاد، لا يعرف المهادنة... وها هي اليوم نهال تتذكر في جلستها الانفرادية تلك الصور المؤلمة الحزينة... لتتلقفها كلمات أمها وتعيدها إلى أرض الواقع، وهي تسألها بصوت منفر حاد: أرجوكِ يا ابنتي، أشيري عليَّ.. ماذا أفعل؟!

- باقتضاب، وهي مازالتْ سارحة في عالمها الخاص قبل نحو عشرين عامًا: تفعلين في.. ماذا يا أمي؟

- بنبرة ساخرة: عجبًا!! أخوكِ كمال طبعًا.. ومَنْ يكون غيره أقلق عليه وأخاف؟، وأضافتْ بقسوة.. وهل لي في الحياة، وهذه الغربة اللعينة الغدارة غيره؟!

- بأنوثة: وأنا؟.. أين أكون من كل هذا الحب؟

- بحنان مفتعل: أنتِ الخير والبركة يا بنتي، ولكنكِ تزوجتِ ممن أحببتِ، وها أنا أراكِ - ما شاء الله - مستقرة وسعيدة في حياتك، الدور والباقي على كمال!!

- ما به؟.. لقد قلقتُ عليه فعلًا... ثم أردفتْ بتوتر صادق: أخبريني.. ما القصة؟

لفت الأم ذيل ثوبها وطوته تحتها، ثم تنحنحتْ قليلًا، وقالت: الحقيقة.. أعني أنا وأبوكِ بتنا نخاف على مستقبل كمال كثيرًا، والحياة - هنا - ليستْ كما في العراق ، وطبائع الناس تختلف عن

طبائعنا، والحرية المتاحة.. ثم سكتتْ، وكأنها وصلتْ إلى النقطة الخجلة التي لا تستطيع البوح بها!!

- لماذا سكتتِ يا أمي؟.. أرجوكِ أنتِ تعذبينني هكذا!

- ماذا أقول؟.. أستغفر الله، أقصد من وراء زيارتي إليكِ أن تساعدينا وتقنعي كمال!!

- أقنعه!!

- بصوت خافتْ، وكأنها تسرُّها: نعم، تقنعينه... وتابعتْ بحنية: ومَنْ لنا في الغربة غيرك؟.. أنتِ أخته الكبيرة الحكيمة العاقلة، صاحبة القلب الطيب...

- لكنكِ لم تقولي بعد، أقنعه.. في ماذا؟

- نوهتْ باستحياء: أن يتعرف على ابنة عمكِ سمر، أخت زوجكِ آدم الصغيرة.. فهي فتاة جميلة، ومتعلمة وفي سنه، ونحن في غربة، والأمر ليس كما هو في العراق - كما قلتُ، فما أراه بأم عيني يصرعني ويجعلني لا أنام الليل غيظًا وقلقًا... وتابعتْ، وهي منقبضة الصدر: ما إن تبتسم الفتاة الأوروبية إلى شاب شرقي، حتى ينسى أهله ومَنْ أنجبوه، ويذهب وراءها بغية امتلاكها وكأنها سلعة، وهي ليستْ كذلك!، ثم يعمل المستحيل لإرضائها، للنيل منها بأسرع وقت ممكن!!، وعندها سوف يتعلق بها كما يتعلق الطفل بأمه..حينها لا نستطيع أن نفعل شيئًا إزاءه، ويكون الوقت قد فات كما يترك القطار المحطة، وكما تعرفين، فهو لن يرجع إلى الوراء أبدًا.

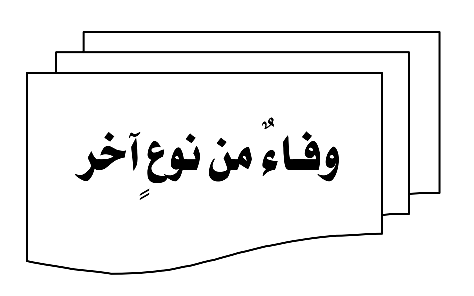
- عجيب أمركم.. يا أمي!!

- بثقة زائدة وتندر: وما هو العجيب فينا يا بنتي؟

- لا شيء!!، وهي تنظر إلى الأرض بحزن.

- رفعتْ الأم حاجبها في دهشة أشبه بالاحتقار، وأعادتْ سؤالها، وكأنها لم تسمع جواب ابنتها: ما هو العجيب؟

- قبل لحظات، وقبل أن تحضري لزيارتي.. كنتُ أعيش قصة حبي لآدم في حياة، كنا فيها محبوسين بين صياح مؤذن وصراخ ناقوس كنيسة وهو يلطم نفسه! لقد كانتْ حياة كأعشاش العصافير، مستباحة للهر والنسر والبشر!!، وكيف جعلتم تلك القصة مأساة وقضية شرف مطعون وربما منهوب؟.. وكيف تصرفتم معي بوحشية وقسوة دون مبرر فقط لأن كمال رآني أسير مع آدم في إحدى شوارع بغداد في وضح النهار ونتحدث لنتعرف على بعضنا البعض قبل الارتباط الرسمي؟!!، فبقيتْ تلك الذكرى في نفسي محفورة، كوشم الجمر... واليوم (لحظة صمت)، وكأنها عادتْ تتذكر ما حصل لها، واستطردتْ بعد برهة بشفقة: سامحكم الله وغفر لكم.. تطلبون منِّي أن أتدخل، وأقنع أخي كي يقيم علاقة مع فتاة؛ لمنعه من الانحراف أو الزواج بأجنبية!!، ثم سألتْ أمها مباغتة، كأنها تسخر منها: أليس عجيبًا أن نفكر بأمر كنا قد جعلناه في عُرفنا خطيئة وجرمًا لا يغتفر ثم نأتي بمثله؟!... ثم أضافتْ باقتضاب موجزة بحسرة وألم: فقط لأن الوضع والبيئة قد تغيرتا! .



الذكاء.. ليس أن يكون المرء حاذقًا في حلِّ مسألة حسابية صعبة، أو ينطق لسانه بعدة لغات أجنبية، بل أن يعرف.. كيف يكون سعيدًا هو ومَنْ حوله، مع الاحتفاظ بكرامته وكبريائه من جهة وبعظمة وقوة إرادته وعزيمته من جهة أخرى؟.. هذا هو الذكاء الحقيقي الذي يحتاجه الإنسان الناجح في حياته.. فأرجو من الله أن يقبل دعوتي وأن يعينني، على أن أكون معدمًا في الحالة الأولى، ومتوهجًا متقدًا في الحالة الأخرى.

بعد مراسلات عدة، حصلتْ بين هشام وصديقه الذي تعرف إليه في رومانيا بالصدفة، عندما كان هشام يزور أهله مع عائلته في حينها.. فتعرف إلى خلدون، الذي كان يتمتع برأس كبيرة مستديرة، وخدان منتفخان، بشفتين باهتتين، وعينين مجهدتين، وذي سحنة شاحبة تميل إلى الصفار، وكأنه يعاني من مرض مزمن... أُعجب هشام به لهدوئه وأسلوبه في الحديث، وعندما رجع هشام إلى بلده الثاني "ألمانيا" الذي يعيش فيه منذ أكثر من ربع قرن، حصلتْ بينهما مراسلات واتصالات هاتفية، وآخرها كان اتصال خلدون به (بعد أن استقر في النمسا)، وهو يحدِّثه مخنوقًا بالعبرات وبقلبٍ راجف،

قائلًا: لقد تخلى عنِّي أقرب الناس حتى أهلي؛ لذلك التجأتُ إليكم، وليس عندي سواكم بعد.

- باسترخاء وجدية: اهدأ قليلًا، وقل.. ما المشكلة؟!

- بصوت متهالك صدح: في الحقيقة.. أقصد، أحتاج لبعض المال كي أعطيه إلى المهرب التركي الذي اتفقتُ معه لتوصيلي إلى ألمانيا، بعد أن ضاقتْ بي السبل في النمسا.

- كم تحتاج لرحلتك هذه؟

- ستمائة دولار فقط.

- نظر هشام إلى زوجته، وسألها دون تردد: لدينا في البنك أربعمائة يورو في السالب.. ونحن من حقنا ألف، يمكن لنا إذًا مساعدته.. ثم صرح لخلدون ما أزمع عليه دون تفكير طويل: اتفقنا، قل لمهربك التركي، عندما تصل سأعطيه المال هنا.

- اهتز جسم خلدون كله وكأنه واقف على أطراف أصابعه، وهو يستمع إلى كلمات هشام، فهتف منتشيًا فرحًا، كشراع لثمته النسمات بعد طول شتاء وركود: ألف، ألف شكر... لن أنسى فضلك هذا أبدًا... ثم صاح: يا رجل يا طيب، أهلي لم يقفوا معي هكذا، وبكى كالأطفال متحسرًا ومنتشيًا.

في مساء يوم الأحد.. رنَّ جرس الهاتف في شقة هشام؛ ليبلغه خلدون بوصوله... خرج هشام؛ لاستقباله بعد أن جهز المبلغ المطلوب.. وإذا به يفاجأ بعدد الحاضرين (المُهرَّبين)، فقد كانوا ثلاث عائلات عراقية مع أطفالهم، وخلدون والمهربين الأتراك،

وبدا تجمعهم هكذا وكأنهم خارجون لإحياء تظاهرة... رحب بهم هشام بكل أدب، وبنفس مطمئنة راضية، وقال لهم: حمدًا لله على... ولم يكمل بعد جملته؛ ليبادره أحد الأتراك الأشداء بالقول: أين النقود؟

- نعم.. ها هي ستمائة دولار أخضر، وحسب الاتفاق.

- لا نحب المزح في هذه المسائل، وأنتَ تعرفنا، أتراك!!.. نريد ثمانية آلاف دولار، وهذا ما وعدنا به خلدون، ثم أردف بتحد صارخ: لكل شخص ستمائة، وعدد البالغين ثلاثة عشر ما عدا الأطفال، وصمت وهو يزر بعينه كسنجاب خائف رغم القسوة التي كانتْ مرتسمة على وجهه.. حتى بدا وجهه وهو مشدود كساعد تمثال إغريقي.

- بترف مبالغ فيه، أجابهم: في الحقيقة اختلاطي بالأتراك قليل جدًا، ولي صديق واحد اسمه مراد ساعي البريد، واستدرك: شهادة لله إنه رجل كريم ومؤمن.. إنسان طيب القلب.. نقي السريرة، ثم التفت نحو خلدون وهتف: ها هو عندكم واسألوه!.... تدخل خلدون يائسًا: نعم.. يا هشام، هذا صحيح، لكنني.. لكنني (وهو يفرك فروة رأسه كالقرد).. أعني.. أُجبرتْ على وعدهم بذلك!!.. أقصد.. بأنك ستكون كفيلنا جميعًا، فهم لا يهربون شخصًا واحدًا فقط؛ لذلك التجأتُ إلى الحيلة... ثم همس خجلًا متوترًا ومتهالكًا: أنا أعتذرُ منك كثيرًا.

- باستغراب ممتعض وبتأنيب: هل أنتَ أبله؟!.. تأتيني في ساعة مثل هذه، وفي يوم أحد؛ لتقول لي ادفع ثمانية آلاف دولار.. هكذا، ألجأتم إلى الحيلة؟!... ثم انفجر ثائرًا بعد أن لبسه الغضب: يا لك

من دنيء، إنك بالتأكيد شخص مجنون، وأنا لا أحب الكلام مع المجانين؛ لأنهم كالذين لا يملكون شيئًا يقولونه ومع ذلك تجدهم يتحدثون كثيرًا، وهمَّ بمغادرتهم... استوقفه أحد الأتراك وهو يزمجر ناعقًا: لا نسمح لك بالذهاب دون إعطائنا حقنا!!

- أيُّ حق هذا الذي تتكلم عنه؟.. أأنت الآخر مجنون مثله؟

- نغر كالفيل، وبنبرة لا تخلو من وقاحة، وهو يدنو منه؛ ليبدو كشرير آتٍ من الجحيم: لا، لا تعتقد بأن حيلكم ستنطلي علينا هكذا بسهولة... كالذي يريد أن يلبسنا العمة!

- هل تعرفون أنتم أيضًا هذا المثل؟!(أجابه هشام وهو يتصنع الجد والحزم، تاركًا الابتسام والسخرية)... خاصة بعد أن لمح أصابع يد الرجل التركي الذي كان يكلِّمه ويصرخ في وجهه، وهو يلوح بها عاليًا، فرآها متورمة كأصابع شيطان!... ثم استطرد بذات الرنَّة المتصنعة: كنتُ أعتقد بأن المثل من أصل عربي، ويخص العرب فقط!

- برعونة وحدَّة: أنت تثير أعصابي يا هذا، وأضاف وبدنه يهتز كمدمن لم يعد في حوزته ما أدمن عليه: نحن لا نريد أكثر من حقِّنا!

- نعم.. هذا جميل، ولكن أنتم ومن الواضح لا تنظرون.. فحقكم عند هؤلاء (وهو يشير بسبابته نحو المجموعة المتجمهرة)، وليس عندي... ثم تابع بتهكم: كان الله في عونكم.. أستودعكم الله، وهمّ بمغادرتهم.

- بنبرة واعدة مهددة، وبصوت عالٍ كالرعد: يمكنك أن تذهب، بل مع ألف سلامة!.. ولكن، عليك أن تعرف بأننا أتراك.. مهربون.. مافيا، ألم تسمع بهذه الكلمة من قبل؟!... ثم عوى مضيفًا: هذا يعني لو كان عندك ذرة عقل وتفكير، فستفهم.. نحن لا نملك شيئًا لنخسره، سنخطف ابنتك يا هذا، وعندنا كل المعلومات التي تساعدنا على فعل ذلك، فخلدون قدمها لنا كضمان لو خلفتم بوعدكم لنا، وقد كان حدسنا صحيحًا، فنحن نمتلك خبرة عريضة وواسعة كالصحراء في مجال عملنا هذا، والتجارب علمتنا.. كيف نحمي أنفسنا من دجال مثلك؟.. هيا أعطنا نقودنا ولا تجعلنا نتأخر أو نغامر أكثر!!

لم ينبس هشام بأيٍّ كلمة..توقف في مكانه صامتًا كالملسوع، لقد بهر وذهل مما سمعه ورآه... ثم فاق على نفسه بعد برهة، والتفت إلى خلدون بعيون مفتوحة واسعة كعيون بوم عجوز، وسأله حانقًا:

هل ما يقوله هذا الأبله، صحيح؟

- ينظر إلى الأرض كأسير في قبضة منتصر: للأسف، نعم... ثم صمت ساهمًا، فبان وكأنه تحوَّل فجأة إلى تمثال من الحجر... هجم هشام عليه كالذئب الجائع، وبوجه متجهم مكفهر غاضب، ورفع يده في الهواء عاليًا؛ لتنزل على وجه خلدون كالمطرقة... صفعة، سمع دويها في الآفاق... ثم صاح متألمًا: تبًا لك يا وغد، يا شرير وتافه... ثم تابع غضبه: الظاهر أن الإنسان يعاني أو يعيش غصة الموت في الحياة أحيانًا، عندما يعرف الآخرين... أقصد.. عندما يعرف دواخلهم وكيف؟.. وبماذا يفكرون؟، يصدم بتصرفاتهم التي تفننوا

بإخفائها، ويسمع أقولهم التي لم يصرحوا بها، وها أنا قد عرفتْ أحدهم.. وهو يشير بترفع إلى خلدون الذي بقي في مكانه جامدًا لا يتحرك... في هذه الأثناء الحامية الوطيس بين سحب وجذب، مرتْ من أمامهم سيارة شرطة.. فاستوقفها هشام دون تردد أو تفكير؛ ليشرح لهم الموقف كاملًا وبصدق وكأنه يسرد القصة لزوجته!، ومن أثرها غُرِّم أربعمائة يورو لمساعدته أناسًا يدخلون الأراضي الألمانية بدون جوازات رسمية، على أن تبقى تلك الحادثة مسجلة في وثيقتهِ الشخصية عند الشرطة لمدة عشر سنوات.

كانتْ تلك التجربة قاسية جدًا عليه، كالحروق التي تترك أثرًا حتى بعد شفائها.. اعتذر من أسرته، ووعدهم بأنه سوف يكون في تعامله مع الآخرين أكثر حرصًا وحذرًا.. ولم يسمع عن خلدون بعد ذلك أي أخبار تطمئنه، ولم يرَ خلدون من بعد تلك الواقعة إلا بعد خمس سنوات بالصدفة.. عندما حضر مجلس عزاء كتبتْ عنه الصحافة، وذلك بغرق أسرة عراقية كاملة.. تتألف من الأب والأم وأربعة من أولادهم في المحيط، بعدما تحطمتْ سفينتهم وهم يحاولون العبور إلى أستراليا دون جوازات رسمية... فذهب إلى هناك ليقدِّم التعازي ليفاجأ بأنَّ الذي يُقدَّم له التعازي.. هو خلدون بلحمه ودمه.



يتمشى الشيخ صلاح ابن الثلاثين عامًا، ذو العيون الصافية الهادئة التي تثير في الخاطر صورة لهب الشموع المحترقة دائمًا في الكنائس، صاحب اللحية الحمراء الطويلة التي تغطي وجهه، والشاربين العريضين اللذين يتصلان ببعض من الأذن إلى الأذن، يذرع الغرفة من ركنٍ إلى ركن ببطء كالحيران، وهو ينظر إلى الأرض عاقدًا يديه خلف ظهره، ويهمهم بصوتٍ قاس: آه .. ثم يصرخ فجأة بيأس عاليًا، كمَنْ فقدَ الأمل تمامًا، ويقف مواجهًا للمرآة التي تتوسط الغرفة، فيقول مهتاجًا بعد أن مدَّ يده إلى الأمام كالرجل الضرير: أريدُ أن أجرب ولو لساعة واحدة، لقد حان الوقت لأكون عبدًا لنوازعي وأحلامي (بعد أن نما الشوق الشرير في مخيلته)، ثم همس باحتقار: يكفي ما عشتْ، وأنا لا أحيد عن مسار الله قِيد أُنملة.... وأضاف: ماذا يعني؟، لقد كنتُ طوال حياتي تقيًا نقيًا، وأرغب أن أخرج من طوري هذا لأكون شخصًا آخر، ثم يسأل نفسه كالمجنون: ما الضير يا صاح في هذا؟..لن أخسر كثيرًا، وكأنَّ حسابه عند الله وفيرًا لا ينضب!.... واستطرد، وهو يزمجر بخوف وكأنَّ أحلامه التي يفكر بها ترعبه!!.. قطب حاجبيه

كالشيطان عندما يغضب، وخطب بخبث: أعوذُ بالله، ما هذا؟.. أنا لم أشعر بأني أستطيع أن أكون حرًا هكذا وبسهولة!.. ليصعقني الشيطان... ثم دمدم مع نفسه: كيف لم يتسنَ لي النظر في الأمر من قبل؟!... صك أسنانه بقوة كالذئب وقت الهجوم على ضحيته، ودق بقبضة يده على صدره، فخرج صوته مرعبًا كريهًا، متهالكًا: آه .. لقد بات قلبي يحترق شوقًا ولوعةً، وهو يلوح بسبابته كالسكين عاليًا: سأعيش كما أحب وكما أشتهي، ويمكنني الرجوع بعد ذلك إلى حظيرة المؤمنين!.... قفز فجأة أمام المرآة التي تتوسط الغرفة؛ ليواجهها كالخصم ممسكًا بطرف لحيته الحمراء الطويلة، ورفعها كي تصل إلى عينيه وهو يهمهم بصوت أجش: سأقصها من جذورها، سأخلع عني جبتي البيضاء الدينية، وأقص شعري قصيرًا.... ثم همس بفرح مبتسمًا: سأكون إنسانًا مختلفًا، بل لن أعرف نفسي بعدها مهما حاولتُ.... يهز بدنه ويضحك ساخرًا مغتبطًا بغرور كالطفل لشجاعته هه.. هه.. هه... ثم أضاف: سأكون كما أريد.. لا كما يريد الله!.... وستطرد بتفاؤل: مَنْ لا عقل له.. لا ضرر منه!، وهو ينقر على المرآة بأطراف أصابعه، وكأنه يضرب على الدف، ودندن كالمطرب:

لِما الخوف يا صاح؟

فاليوم له طعم التفاح

عش حياتك بانفتاح

ممن تخاف يا شيخ صلاح؟

هزَّ رأسه يمينًا وشمالًا، وكأنه يطرد ذبابة تضايقه بعد أن لمعَ وجهه الشاحب عن ابتسامة، ينقبض لها قلب كل مَنْ يراه.. ووسط انشغاله وهو يحدق بالمرآة بعيون وحشية كالمصلوب، رنَّ في داخله صوت مدوٍ كزئير الرياح، يردد في رأسه مؤنبًا كوخز الضمير: ماذا، هل أصاب الهوس عقلك؟.. هل ستفعل ما عزمتْ عليه حقًّا؟.. تبًا لك من وقح وشرير!... يتراجع إلى الوراء مبهورًا وهو يتلفت حول نفسه، يرفع رأسه نحو الأعلى والأسفل ببطئ كحصان هرم... بعد أن وقفَ مذهولًا منعقد اللسان للحظات، ثم ندت عنه صرخة خافتة مخنوقة: ماذا يا شيخ صلاح؟.. هل فقدت صوابك؟.. لقد أصبحت تعيسًا ويطفح قلبك بشعور أقرب ما يكون إلى اليأس، ثم شرع يعوى: منظرك وهيئتك الجديدة ستجعل الآخرين يهزؤون بك ويسخرون منك يا هذا... ثم علا صوته قليلًا، فقال مصرحًا: اللعنة على أفكاري الشريرة التي هجمتْ علي هكذا دفعة واحدة كأسراب الصراصير.. والعرق يتصبب على وجهه المنهك، وتصدر من جسمه رائحة شبه كريهة.. فبكى متألمًا وأصابعه ترتجف انفعالًا وهو يتابع: ألَّا تخجل من نفسك يا شيخ صلاح؟!.. إذًا لتنشق الأرض وتبتلعني حيًا ثم تسوى!.. كيف أجرؤ على التخطيط لارتكاب الإثم واقتراف الخطيئة؟.. ليخطفني الشيطان... ثم بصق في صورته على المرآة.. تفو.. بصوتٍ عالٍ... واستطرد متشنجًا: ماذا، ها... يا شيخ، أيُّ نوع أنتَ من الشيوخ؟!... وبعد لحظات من صراع الروح المرير.. وفيما كان رأسه خاشعًا، وقامته منتصبة، بدأ يردد كلمات كالذي يصلي.. لكنه كان يبدو وكأنه يبكي أو ينوح

وهو يهمهم: لقد كنتُ ورعًا صادقًا محافظًا وتخاف الله وتحبه، ولكن ما الذي حصل لك؟... وتابع: لتسيطر عليك النوازع الغريبة التي لم تعهدها طبعًا فيك!، وسرعان ما تغلبتْ الروح الشريرة التي كانتْ نائمة لسنوات طويلة.. فيرجع قافلًا مستنكرًا مطمئنًا، فيقول باقتدار وانتصار: لن أجعل الله يغضب منِّي، ولن أؤذي أو أضر أحدًا.. أقنع نفسه بهذه العبارات التي بدتْ له مرضية، تقبلها بروح مسالمة منتصرة فخورة وصافية، فسكن الخير ونام في داخله وتراجع كما تضمر السلحفاة رأسها عند بيان الخطر... فزأرَ كالأسد صائحًا: سنبدأ العمل إذًا.. تردد صداه في أرجاء الغرفة.. نزع الجبة البيضاء التي طالما كان بداخلها كالنواة في الثمر، ويتغنى طلقًا وثرثارًا بعد أن كان بخيلًا في الكلام!!... فقال مغتبطًا بمرح وفرح: أحلى ما في الحب عذابه!، والتقط المقص وإذا به يقص شعره بسرعة فائقة، كأنه حلاقٌ متمرس، وحلق لحيته... وقال هامسًا مخاطبًا نفسه: انظر إلى صورتك يا رجل.. كم تبدو جميلًا وأنت هكذا حليقًا!، ثم قهقه بسخرية غريبة عاليًا... وأردف.. ها.. هو الوقار يغادرك ووجهك ساحر، كوجه امرأة شابة!، ثم ضحك بوقاحة وبصوت مجلجل هه.. هه.. هه... وأضاف مستطردًا: ماذا يعني؟.. ليكن لوجهي طلعة وجه فتاة شابة، فهذا ـ وحق الذي خلق الشيطان ـ شيءٌ حسن!.... أخذ الشيخ صلاح حمامًا ساخنًا، وهو يشعر بأنَّ وزنه قلَّ إلى النصف!.. بدأ يدقُ على كرشه كما يدق الطبال على الرق، وهو يتغنى بكبرياء: آه... آن الأوان أن نمحي آثار السمنة كذلك!، ثم غمغم بنبرة حزينة فاجأته على حين غرة دون إرادة منه:

يا لكَ من وغد وحقير!!.. إنك إنسان مبتذل... وفي هذه اللحظة أطلق صرخة قوية دوتْ في الغرفة فهزتها، عندما رأى طيرًا كبيرًا يرفرف فوقه دون صوت، ذي أجنحة شفافة بيضاء بلون الثلج؛ ليبدو الطير كالملاك... بهت الشيخ وتجمدتْ نظراته وسبح المكان بالصمت الخافت الثقيل.. وبعد أن استعاد شيئًا من وعيه... همهم بصعوبة وهو ينبر بصوت خافت شحيح: ليتحطم رأسي كآنية من الفخار.. لتأخذني العفاريت الشريرة معها إلى الطبقة السابعة تحت الأرض... ثم رفع بصره نحو الطائر، وهو يقول بصوت خائف متردد بُح: ماذا... تريد... منِّي؟، ولم يستطع النطق أكثر من ذلك، بعدما تحجرتْ الكلمات في فمه وهو يحاول التراجع أو الاختفاء.. ولكن أين يستطيع الهرب وهو يريد أن يصنع لنفسه قدرًا جديدًا غير الذي كُتب له؟!... اقترب الطائر الوسيم منه بوجل، وحمله برفق دون أن يلمسه وخرج به إلى الفضاء محلقًا عاليًا فوق السحب... بينما ظل الشيخ مصعوقًا، فيما كبرتْ عيناه وتوسعتْ فأصبحتْ بحجم ثمرة الخوخ البري، وتغضن وجهه... وبدأ يلهث وهو يكشر عن أسنانه وكأنه يشتم أحدًا في سره... وفي إحدى الزوايا الزرقاء المتباعدة الأطراف، حطَّ الطائر برفقة الشيخ، وأجلسه أمام كتلة من النور الساطع التي تعمي البصر.. لا يمكن النظر إليها أبدًا كوهج الشمس، وإذا بالشيخ يسمع صوتًا هائلًا هادرًا خارج من الوهج، يقول بكل حزم واعتداد:

- لماذا يا شيخ صلاح حاولتَ الخروج عن الطاعة التي وعدتَ نفسك بدخولها بمحض إرادتك، ولم يجبرك أحدٌ عليها بعد أن

ودعتَ كل الماديات الأرضية، وقبلتَ العيش لأجل العالم الآخر الخالد فقط؟

- (يمسح العرق المتصبب على وجهه بكم قميصه)، وهو يزفر بصوت أجش مضطرب: في الحقيقة.. أقصد، حقيقتي مؤلمة كالمرض الخبيث!... ثم أدرك: عذرًا، أعني حقيقتي قاتلة كالعار لا يستطيع أيٌّ شخص حمله بسهولة، إنها متأصلة في طبع الإنسان منذ ولد!.. لكن قليلين هم الذين يواجهونها بإباء وعزيمة، وكما ترون.. (وهو يحيد النظر لقوة الوهج الصادر نحوه) إني من النوع الذي يكسر بسهولة؛ لذلك كان سقوطي مخجلًا وسريعًا... ثم غرق في الصمت دون حراك وكأن على رأسه طيرًا.

- ما تقوله، أعرفه!... ثم أضاف بوقار: هل هناك من جديد؟... واستطرد الصوت الهادئ، يقول وكأنه يسبح عبر النور: ما الذي قلق روحك وجعلها تتصارع هكذا بكل شناعة مع ظلها؟

- تتدحرج من فم الشيخ كلمات ثقيلة وهو يرنو ببصره بعيدًا عن مصدر الصوت، ويرتجف رعبًا وعيناه جاحظتان، مثل: بوم عجوز، فأجاب بعد تردد: هل لي أن أسألكَ؟

- نفخ الوهج الهادر كالبرق ،وقال بحزم وصرامة: كلا.

- عجبًا!! (رد الشيخ عليه) وتابع: هذا ما كنتُ أفعله تمامًا، اعتقادًا منِّي بأن طرق التفكير والنضج والوصول إلى حالة السؤال.. ستجعل المرء ملحدًا وكافرًا؛ لذلك فرضتُ على طلابي ألَّا يتوجهوا بأيِّ سؤال.. عندها لا خوف عليهم ولا هم يحزنون!، وهو يدمدم ببيت من شعر لبيد:

أُكذب النفسَ إذا حدَّثتُها إنَّ صدّق النفسِ يزري بالأملِ

ثم أردف منهالًا متحاملًا: لكني أبقى إنسانًا، وقد جبلتُ على طبعي هذا وأنتم تعلمون... وما أثار حنقي على نفسي هو أنني لم أرَ العدل على الأرض أبدًا!!، فبدأتُ أسأل نفسي بعد أن منعتُ الآخرين من السؤال لماذا!... وهبَ واقفًا منتصبًا وسط المكان، وهو يمشي ببطء وبحذر.. لكنه تفاجأ بصورة الوهج ولونه إذ أخذ بالتبدل حيث الرمادي ومن ثمَّ الأسود.. فاختفى كما أتى؛ ليترك الشيخ غارقًا في أفكاره، جاهلًا مصير أحلامه وعقابه غائرًا مستسلمًا لقدره، محطمًا لا يستقر على حال كطير مقصوص الجناح... وفي هذه اللحظة الحاسمة القلقة، المنذرة بالشؤم والخراب... دق جرس المنبه الذي كان يجلس بجسارة بجانب رأسه على طاولة صغيرة عتيقة متهالكة.. ليصحو من النوم مرعوبًا متعبًا متأثرًا كالمحموم.



قبل وأثناء حرب الخليج الأولى... عاش عزيز سلام مع زوجته إلهام عواد في مدينة بغداد، لا يملكان في حياتهما سوى كرامتهما وعزة نفسيهما التي توارثاها بجدارة عن أجدادهما... كان يحيى وحيدهما.. عاشَ وشبَ على الدلال المفرط، خاصةً من أمه التي لا ترفض له طلبًا مهما كان، ومرات قبل أن يشير إليها بإصبعه الصغير... يعمل أبوه الصائغ بورشة تابعة له في نفس المنطقة التي يسكنها، يصوغ فيها خواتم الزواج الرجالية، تلك التي يصنعها من مادة الفضة.. ينقش عليها من الداخل اسم الزوجة وتاريخ الزواج بيده الخشنة، التي يظهر عليها آثار جراح قديمة مازالتْ وكأنها لم تندمل بعد؛ لاستعماله أدوات الصياغة البدائية التي لا يفكر بتغييرها لنقص المال؛ لذلك كان يصوغها بطرقها ومعالجتها حراريًا في نفس الوقت، بينما ينقش الأسماء والتواريخ بقطعة حديدية مدببة من طرف واحد.. غالبًا ما تنزلق أثناء النقش جانبًا، فتأكل من لحم يده أكثر مما تحفره في الخواتم... في حين كانتْ أمه ربة بيت وعلى قدر بسيط من التعليم، تتعامل مع مَنْ يحيطون بها بالفطرة، ولا تطمح إلا لإسعادهم، لتعيش من أجلهم كراهبة.

عاش يحيى بلا كفاءة تذكر، واستمر يأخذ مصروفه اليومي من أبيه... وفي أحد الأيام التي كان يقضي فيها عطلته الربيعية في منطقة الحبانية مع أصدقائه للترفيه عن نفسه بعد فصل دراسي منهك!، وعلى شاطئ البحيرة الجميلة آنذاك، تعرف على طيف قاسم والتي تعتنق نفس ديانته، وهذا ما شجعه أكثر ليقدِّم على الخطوة التالية، وهو يعلم علم اليقين بأن في مجتمعه الضيق لا يعترفون ولا يسمحون بالعلاقات التي تسبق الزواج، فطيف كانتْ بالنسبة له حلمًا يراه في الحقيقة.

طيف، تلك الشابة الجميلة، ذات العينين الخضراوين بلون الشجر.. انجذب لها؛ لتبادله الشعور ذاته.. ليكونا بعد ثلاثة أشهر من تعارفهما خطيبين دون تخطيط مسبق لحياتهما القادمة، بعد أن أقنع أبويه بخبث وحيلة ومكر الثعلب بجدوى الزواج المبكر.. سمعه الأب وهو صامت لا يعرف.. ماذا يجيب؟، بينما فرحتْ الأم بطيبتها الساذجة بقرار ابنها الوحيد... لم يعش بعد زواجه أكثر من تسعة أشهر في منزلهم القديم؛ ليقرر فجأة السفر إلى خارج العراق برفقة زوجته، على الرغم من أنه ما زال طالبًا جامعيًا.. صعقتْ الأم بالخبر، وبدأتْ توسلاتها المكوكية أولًا مع الزوجة، وعندما لم تصل معها إلى أيِّ اتفاق، ولم تجد فيها أذنًا صاغية.. استغفرتْ ربها، وقالتْ في سرها: مسكينة لا تعلم.. ماذا ينتظرها هناك في الغربة؟.. ثم حاولتْ مع ابنها تترجاه بقلب يعتصره الألم في كل كلمة تنطقها: يا بني لا تجعل حسرتي عليك تأكلني، فأنا لم أعش إلا من أجلك، لا تفكر بأنانية الطفل، فكر بأبيك المريض الذي أصبح

نظره ضعيفًا جدًا، لا يرى الخواتم التي يصوغها إلا بشق النفس، وأنا.. ماذا تظنني؟.. كيف سأعيش بدونك؟.. هل فكرتْ بنا؟، لا تكن قاسيًا كالصخر، أتوسل إليك ألَّا ترحل وتتركنا، لا تقتلنا في الحياة، أرجوك، وأجهشتْ في بكاء متواصل مُر يُقطع أوصال مَنْ يراها إلا ابنها الجامد كقالب من الثلج، يسمعها ويراها تبكي وتنتحب، وهو يتأفف من الضجر!... سمع الأب بالخبر، فأوصى ابنه بأن يزوره في ورشته بعد انتهاء دوامه الرسمي؛ كي لا تسمع الأم ما سيدور من حديث فيؤذيها.. انتظر الأب طوال النهار ولم يأته!، وفي المساء كرر طلبه بعد أن تعذر يحيى بأسباب وجدها والده أنها واهية غير مقنعة، لكنه لا يملك الكثير من الأوراق في يده، وهو يعلم بأن ابنه يستطيع السفر دون الرجوع إليهما، رغم ذلك أصرَّ على مفاتحته بالموضوع لعلَّه يتراجع فيغيِّر رأيه، لكن انتظار الأيام القادمة لم تُجدِ نفعًا؛ وفهم الأب تلك النوايا على أنها أجوبة صريحة، لا يريد يحيى المواجهة في موضوع قد حسمه وأصبح في حيز التنفيذ، فأجبرهما على الخضوع، وهما صاغران... ودعتهما الأم بالدموع، والأب بالأحضان والقبلات، بينما يحيى يستعجل الوقت ويأمر زوجته متلذذًا صارخًا: هيا يا طيف، سنتأخر على موعد الطائرة، ألم تنسِ شيئًا؟.. هل أخذتِ معك كل أشيائك الثمينة؟؛ لأننا قد نحتاجها هناك.. مَنْ يعلم؟، ثم يلتفتُ إلى أبيه وهو يغمز قائلًا: وأنتَ يا أبي لا تنسانا، فإننا هناك سننتظر ما ستبعثه لنا من مال، سأتصل بكما كلما احتجتُ إلى شيء، أعدكما بذلك! ثم نادى زوجته مجددًا: هيا يا طيف فالطائرة... ناحتْ أمه: مع السلامة يا بني، كن

حذرًا واعتنِ بنفسك وبزوجتك جيدًا، اتصل بنا كلما سمحتْ الظروف بذلك.. أرجوك، وهي تودعه أجهشتْ بالبكاء، تجعل مَنْ يراها يموت آلاف المرات إلا ابنها... سافر يحيى وهو مازال لم يُنهِ دراسته الجامعية، بينما كانتْ زوجته قد أنهتْ دراستها الإعدادية؛ لتبدأ حياتهما الجديدة في مدينة نيويورك الأمريكية، وسط انبهار وتعجب استمر لعدة أسابيع.. فالحضارة الحديثة، والبنايات الشاهقة، والشوارع المزدحمة حتى بدتْ المدينة لهما وكأنها تدور، كل شيء فيها يجري بسرعة حتى الأطفال الذين مازالوا يحبُّون... اضطرا للعيش على ما تقدمه لهم بلدية المدينة من معونات، تلك التي تقدم للذين هم تحت خط الفقر بالإضافة إلى دعم الكنيسة، ذلك بتزويدهما بالمواد الغذائية التي نفذ تاريخ صلاحيتها، ولكنهم يوزعونها على الفقراء، حتى تعوَّد يحيى على الوقوف في طابور طويل مرة كل بداية أسبوع للتزود بما يفيض من تلك المواد... فكرَ يومًا في الاتصال بأهله عندما بدأ الجوع ينهش بطنيهما، بعد أن فشلتْ كل محاولاته للحصول على فرصة عمل يعيشان منها، خاصة وأنه لم يكمل دراسته الجامعية.. انتظر ذلك اليوم لحين قدوم المساء في توقيت بغداد:

- آلو... مرحبًا يا ماما، أنا يحيى.

- نعم يا حبيبي.. كيف هي صحتك؟.. وكيف حال زوجتك؟.. ألم تصبح زوجتك حاملًا بعد؟.. هل تأكل جيدًا؟.. قل لي بصراحة ولا تخبئ شيء على أمك يا ولد.

- نحن.. نحن بخير يا ماما، كيف حال أبي؟.. قولي له أرجوكِ بأننا نحتاج إلى بعض المال، والعنوان قد أرسلته في رسالتي الأخيرة لهذا الغرض!! أرجو أن يعجل الإرسال يا ماما.

- رددتْ منزعجة: آلو... آلو... انقطع الخط، ولم يقل أيَّ كلمة وداع.. لا أحبك يا ماما، ولا أيَّ كلمة اشتياق... ثم استطردتْ، وهي تدافعُ عنه: قد لا يملك حقَّ الاتصال؟؛ لذلك انقطع الخط!... ثم أردفتْ متألمة: لم يعطني فرصة للكلام؛ كي أخبره بما حصل!!.. ولكن.. كيف سيقع الخبر عليه؟.. لا، لن أخبره، آه... يا ربي، ماذا يمكن لي أن أفعل؟.. إنه رجل وعليه أن يتصرف أيضًا كالرجال، لكنه وحيدي وأخاف عليه، لم أعد أملك في الحياة سواه، آه... رأسي يكاد ينفجر، يا إلهي (هكذا كانتْ تخاطب نفسها كالمجنونة)

بعد ثلاثة أسابيع، عاود الاتصال مجددًا:

- آلو... مرحبًا يا ماما، نحن مازلنا ننتظر المساعدة، ألم يرسل أبي شيئًا؟

- ... سكون، كصمت القبور بلا جواب.

- آلو.. ماما.. هل تسمعينني؟

- نعم يا بني أسمعك جيدًا، ولكن...

فضحها صوتها المرتبك، بكت بصوت موجع، كمَنْ تقطع يده دون مخدر.

- ماما.. ماذا حدث؟.. تكلمي أرجوكِ.. هل أبي بخير؟

- بصوتٍ مرتجف، وبنبرة حزن عميق، وبحسرة خانقة كالمرء الذي يشعر بأنه سيموت بعد ساعة أردفتْ قائلة: أبوك يا بني... قد... قد مات قبل خمسة وعشرين يومًا، ودفن في مقبرتنا، وقد تصرفتُ بورشته كي أُسدد تكاليف الدفن حتى أنها لم تكفِ، ولم يسوَ قبره سوى بحفنة من التراب دون زهور يا يحيى.. هل سمعتْ؟ دون زهور... وأجهشتْ في البكاء مجددًا.

- آلو... ماما، أرجوكِ أن تتحلّي بالصبر، وأن تمسكي أعصابك فالوقت يجري، والمكالمة تكلفني كثيرًا أرجو أن تركزي معي، وقولي لي بسرعة.. ماذا ترك لنا أبي؟!

- نعم يا بني، أنا أتفهم ظروفكما جيدًا، لكنَّ أباك لم يترك لنا ما هو ثمين، وأنتَ تعلم أنَّ الفضة التي كانتْ بحوزته لا تساوي شيئًا يذكر الآن، وأدوات الصياغة التي يمتلكها كلها قديمة والصدأ يملؤها، فكل هذه الأشياء لا تساوي اليوم حقَّ كيس من الطحين الأسمر المخلوط بالنخالة، آه... يا بني ماذا أقول لك؟ الأمور لم تعد كما كانتْ عليه في السابق، وعلى الرغم من أنك لم تتركنا سوى ستة أشهر، ولكن كل شيء قد تغير - هنا - وبسرعة مذهلة.

- ماما، سأضطر لغلق الخط.. ينقطع الخط دون أن يودعها، وهي مازالتْ تتحدَّث... مع السلامة يا بني، اعتنيا بصحتكما أرجوكما.. افعلا ذلك لأجلي، واعلم بأني أحبكما كثيرًا جدًا، أجهشتْ في بكاء متواصل، كما يبكي الطفل، وأضافتْ: لقد أصبحتُ وحيدة يا بني، لا أحد باتَ يتكلَّم معي أو يسمعني سوى الجدران، حتى أنني بتُ أصدق إنها فعلًا تتحدث معي وتعيد عليَّ كل ما أقوله!!، أشعر بأنها

تتألم لآلامي بل حتى إنها تبكي معي، فأشعر بدموعها ندية ورطبة عندما ألمسها بحنان أم.. براحة يدي... ثم واصلتْ وهي تتنهد: ألَّا تصدقني؟.. ماذا دهاك يا بني؟، لقد باتتْ كلماتك قاسية كضربات السوط، وثقيلة كالحجر على قلبي، أريد أن أتكلم معك.. ألَّا تشعر أنتَ بهذه الحاجة؟.. أأصبح قلبك إلى هذا الحد صلدًا كحجر الصوان؟، لا أريد منك شيئًا سوى التحدُّث معك.. هل هذا كثير؟، أنا أمك يا يحيى.. هل تفهم ما يعني هذا؟، حتى أني ترددتُ في رفض عرض جارتي الطيبة أم عماد؛ لأن هذا لا يرضي الله ولا أحدًا، فهي مسئولة عن أسرة كبيرة ولها طفلٌ مريض بالربو، قد يختنق في أيِّ لحظة، حتى ابنها عماد الموجود في إيطاليا تأخر عن إرسال الأدوية الضرورية له، وهي قلقة جدًا هذه الأيام وتكاد تجنُّ.. كيف يمكن لي قبول عطفها؟!.. حين قالتْ: لو أحببتِ، أستطيع أن أبقى معك أثناء الليل.

(تتحدثُ مع نفسها، كأنها تحضر روح لعزيزٍ لها أدركها النعاس، غفتْ مع حزنها ووحشتها ببراءة طفل وهي جالسة بلا ظل)

بدأتْ الأم تعاني الوحدة القاتلة، سماعها الأصوات ليلًا جعلها قلقة لا تستطيع النوم، حتى أنها بدأتْ تُصدق الأوهام، كأنها حقيقة تنظر لها كالمرآة، قُطع عنها النور بسبب تأخر الدفع، استعاضتْ عنه بوهج الشموع، حتى ثقب الباب بدا لها في الليل مثل عين وحش يترَّصد حركاتها، باتتْ تتقلب في السرير وكأنها نائمة على جمر، أصبحتْ هزيلة كبالونة أُفرغتْ توًا من الهواء، وعيونها ملتهبة حمراء بلون الدم، أنهكها السُّهد؛ لتنهض في صباح اليوم التالي تستقبله، كي تبيع

فيه قطعة أخرى من أثاث منزلها، بعد أن بدأتْ ببيع جهاز التلفاز، ومن ثمَّ كانتْ قد تصرفتْ بطاولة الطعام والكنبة والأسرَّة واحدًا تلو الآخر، وحتى المذياع الكبير المستقر على الرف الذي شاطرهم حياتهم.. استقطعتْ جزءًا من المال الذي باعتْ به تلك الأشياء؛ لتشتري به بطاقة كي تتصل بابنها...

- آلو... نعم يا ماما إني أسمعك.

- حبيبي، كيف صحتك؟.. وكيف هي زوجتك؟.. لم تعد تتصل بي!.. هل نسيتني يا بني؟.. أرجوك أبقِ الخط مفتوحًا ليلًا، فأنا بدأتُ أشعر بالخوف هنا بمفردي، أريد أن أسمع شهيقكَ وزفيرك، كي أشعر بالأمان، وأعدُ نبضات قلبك لأنام، أرجوك أنا سأتحمل تكاليف المكالمة، لا تقلق من ذلك، لن أُكلفك شيئًا؛ ثم دمدمتْ بتهالك: يا حبيبي أريدك فقط أن تكون معي، فالوضع ـ هنا ـ قد تغير كثيرًا، هناك مَنْ يريد سرقتي أو قتلي، أراهم في كل ليلة يحومون حول المنزل، صدقني يا ولدي... ترتجف وتتلوى كطير مذبوح.

- ماما، أرجوكِ وصلَّي سلامي إلى صديقي جبار، أنتِ تعرفينه.. إنه زميل الدراسة، قولي له إنني مشتاق جدًا لتلك الأيام التي قضيناها معًا، إنها أيام لا يمكن نسيانها، سأحاول الاتصال به قريبًا، حين يكون لدي بعض المال، لا تنسِ يا ماما؛ لأجلي.. وينقطع الخط مجددًا دون مواساة أو كلمة حب أو حتى وداع.

- سأذهب إليه اليوم بعد الظهر يا ولدي.. لا تقلق، سأفعل ذلك من أجلك، ما دام الأمر يجعلك سعيدًا وراضيًا.. لكنك لم تقل لي، هل أستطيع أن أكون بجانبك ليلًا؟، فإنه سيأتي وسيجلب معه

الخوف!!.. هل تعلم؟.. ماذا يعني الشعور بالخوف لامرأة في سني؟!.. أراك كالصنم بلا عواطف.. ماذا جرى لك؟!.. أنسيتْ اهتمامي بك وسهري الليالي.. أجبني ـ بالله عليك ـ ولا تجعلني أُكلم نفسي كالمجنونة، ماذا... ها... ؟.. لماذا لا ترد؟.. هل أنت شيطان بجسد إنسان؟، ثم هتفتْ وهي مجروحة الشعور دون وعي: لا، أنتَ يحيى ابني، حبيبي... ثم تنتحب، ترتجف، تبكي بلا صوت، تغمض عينيها، تنكس رأسها فتغفو وهي جالسة كالميت.... شاختْ في الستة أشهر الأخيرة، كما لو أنها ستون عامًا، غزا الشيب رأسها فجأة وبسرعة غريبة كما تنتشر الغيوم الملبدة بالأمطار في شهر نيسان، انحنى ظهرها؛ ليصبح كقوس الرماية، فتبدو للناظر ذابلة كزهرة قطفتْ من أشهر خلتْ... كَبُرَ القلق في داخلها كما يكبر الجنين في رحم أمه، باعتْ إبريق الشاي الذي كانتْ تحتفظ به، وقالتْ تُحدِّثُ نفسها وهي منهكة: ماذا يعني إبريق الشاي بالنسبة لي؟ لا شيء.. فأنا لم أحضر الشاي منذُ موت زوجي، ولا أرغب في احتسائه من دونه، إذًا لا جدوى من الاحتفاظ به!، واشترتْ بثمنه بطاقة لتتصل بابنها الذي لم تسمع صوته منذ مدة:

ـ آلو (بصوت متثائب) مَنْ هناك؟

ـ أنا أمك يا نظر عيني.

ـ آه يا أمي.. هل تعلمين كم الوقت الآن؟

ـ لا يا ولدي، فعندنا ـ هنا ـ ما زالتْ الشمس تلعب مع الأطفال، فالطفل يحاول أن يهرب من ظله.. لكن الأخير يلاحقه بإصرار لا يعرف التعب، مثلي يا ولدي!

- نعم يا أمي.. نعم، ولكني متعبٌ جدًا الآن؛ لأنني قضيتُ اليوم بطوله في المستشفى مع زوجتي، لقد سقط الجنين للمرة الثالثة.. هل عرفتِ الآن؟.. لماذا أنا متعب؟ وأرجوكِ يا أمي لا تلاحقينني كالظل، فأنا لم أعد طفلًا، سأتصلُ بكِ غدًا، أعدكِ بذلك، يغلق الخط...

- انتظرتُ مكالمتك طويلًا يا بني، وبعتُ آخر إبريق احتفظتُ به ذكرى من أبيك، كي أتصلُ بك.. إن داخلي يا ولدي قد حطمته، كما يتحطم الزجاج، والجراح في داخلي تنزف شوقًا لك.. هل تسمعني يا ولدي؟.. إنَّ حبك يأكل قلبي، كما تأكل آفة السرطان جسم الإنسان، فأنا لم أطهِ الطعام منذ أيام ولا أرغب في الأكل بمفردي، لا أريد إلا أن أكون بجانب أبيك، لقد اشتقتُ إليه كثيرًا، لم أعد أطيق الانتظار.. ما رأيك أنت؟.. هل تسمعني؟

باعتْ فراشها؛ لتفترش الأرض وتلتحف الفراغ؛ كي تشتري بإصرار مرة أخرى بطاقة، فتعاود مجددًا ودون ملل الاتصال.. وهي تشعر بأنها لم تعد تقوى على الحركة أو حتى الكلام، ونهايتها باتتْ مجرد لحظات، ولكنها تريد سماع صوت ابنها، قبل أن ترحل وإلى الأبد.

- آلو.. نعم يا أمي لقد عرفتكِ مباشرةً!.. ما وراءك؟!

- إني جائعة يا ولدي، وخائفة، أشعر بالهزال الشديد، لم أعد أقوى على الوقوف - بالله عليك - لا تغلق الخط، بالله عليك... ينقطع الخط.

فتسقط سماعة الهاتف من يدها الصغيرة المرتعشة، تتوقف الحياة في قلبها كوردة قطعتْ من غصنها... في هذه اللحظة، كانتْ زوجته

تنظر له جامدة مثل عمود ملح، كزوجة لوط.. تنظر له بعينين ثاقبتين، مثل: عيون الصقر، فأدار رأسه نحوها، وسألها بنبرة مشفقة: لا تتأثري يا زوجتي العزيزة على سقوط الأجنة، نحن مازلنا شبابًا، والحياة مازالتْ أمامنا طويلة، لا تيأسي من رحمة الله.. وعندما لم تبدِ أي حركة تقرب منها، رفع يدها فسقطتْ من تلقاء نفسها كجلدة السوط، وأحس ببرودة جسدها، رجع إلى الوراء مذهولًا، يشد شعره بقوة دون شعور، وبدأ يعوي: ماذا يا حبيبتي؟.. هل سترحلين وتتركيني... هكذا؟.. لا، لن أسمح لكِ، ها... لن أسمح لكِ، ماذا... أين الهاتف؟.. يلتفَ حول نفسه كالمجنون، يصرخ عاليًا.. تبًا، أين الهاتف؟، لقد كان للتو هنا، يجده ويطلب أمه.. ما من أحد يجيب.. يفقد أعصابه، يرمي السماعة بقوة على الحائط، فتتحطم، يبكي بهستيريا وكأنَّه في كابوس يرى رأسه في يده.. وينوح: لماذا لا تردين عليَّ يا أمي... ها... لماذا؟، ثم صرخ بتهالك مفضوح: أنا خائف يا أمي، فزوجتي تنظر لي، لكنها يابسة وصلبة كصارية مركب، ماما أجيبيني.. قولي لي بأنكِ مازالتِ تحبينني؟.. قولي أي شيء، أريد أن أسمع صوتكِ الملائكي كي أشعر بالراحة، أني أجنُّ يا أمي، أجنُّ.. وأجهش في البكاء وهو يضرب رأسه بالجدار المقابل له بقوة، ينزف.. فتنزلق الدماء سريعًا على وجه، يفضُ ملابسه دون فتح أزرارها كالسكران، ويخرج إلى الشارع عاريًا، يصرخ برعونة متضرعًا: أماه، أماه أجيبيني، إنني خائف، وحيد... ثم أردف بعد غصة: إنني شيطان، نعم يا أمي أنا شيطان،

لكنني أبقى ابنكِ.. هل تسمعينني؟... في نفس تلك الليلة.. دخل اثنان من السارقين، وهما جائعان إلى أحد المنازل...

- أرى المنزل مظلمًا، كالقبر(قال أحدهما)

- أجابه الآخر مرتبكًا: نعم، ورائحته نتنة كرائحة جثة متفسخة.

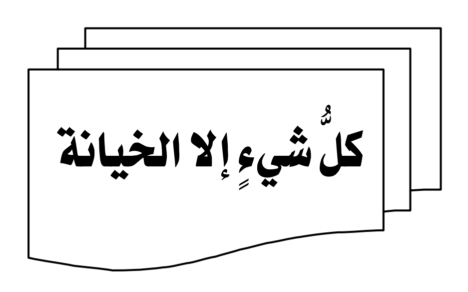
- يرتطم الأول بشيء في الأرض، ويقول هامسًا: ما هذا؟.. كأنَّه صرة مليئة بالخشب.

- لنحملها إلى الخارج، لعلَّنا نجد فيها كنزًا ثمينًا أو شيئًا يؤكل؟!

يحملان ما ضناه صرة، وعند عتبة الباب الخارجي من المنزل، ينظران إليها.. فإذا بهما يفاجآن بجثة امرأة، يتلفتان حولهما بهلع، لا يعرفان.. ماذا يفعلان؟.. شاهدتهما الجارة أم عماد، فصاحتْ في وجهيهما فزعة: ماذا أرى؟.. مَنْ هناك؟.. ماذا تحملان؟ اتركاني أتأكد بنفسي...!... تتقدم أم عماد نحو السارقين ببطء شديد كالضرير، فتصعق صارخة، وهي تضرب صدرها بيدها، وتنوح بصوتٍ موجع: إلهام يا عزيزة قلبي، ومهجة عيني، لقد كنتِ ظلًا لأجسادنا، وصدى لكلماتنا، هكذا تكون نهايتك على يد الشيطان!...ماتتْ الأم العظيمة الصابرة.

بعد معاناة كبيرة، نتيجة حب عظيم منحته إياه، استحقتْ عليه الموت الذليل، بعد رحلة عذاب وجوع ومهانة تلقتها من فلذة قلبها، ولو كان صدرها قد انفجر، لأغرق الدنيا بالوحشة اشتياقًا لابنها الوحيد.

روتْ أم عماد للسارقين الجائعين الحكاية.. وهي في حالة من الذهول، بقلب يعصره الألم وعيون حمراء تملؤها الدموع... يُطبق صمتٌ عميق ورهيب للحظات، يتفرس كل منهما وجه الآخر، تكاد تنطقُ نظراتهما بسؤالٍ واحد: جثة إلهام؟... فاتفقا على دفنها بجانب زوجها في مقبرتهم غرب بغداد، دون الشيطان! .



عزيزي هيثم:

أنا نادية، من أشد القُرَّاء إعجابًا بما تكتب من أدب قصصي؛ لذلك تشجعتُ وبعثتُ لك برسالتي هذه...

أرجو ألَّا تخيب أملي أو ترفض طلبي: أن تكتب حكايتي قصة، فهي وعلى الرغم من مراراتها وقسوتها مفيدة لأبناء جيلي، لعلَّ الأزواج يتعظون، والزوجات يدركن!!... استنادًا إلى قول الجاحظ - رحمه الله: "جعل حاجتنا إلى معرفة أخبار مَنْ قبلنا، كحاجة مَنْ يكون بعدنا إلى أخبارنا..."؛ لذلك ادعوك راجية أن تكتب حكايتي قصة، ولكن دون أن تتقيد بالأصول والشروط الواجب مراعاتها أو اتباعها في كتابة القصة القصيرة؛ لأنني أريد أن تمنح قصتي التي ستكتبها عني بريقًا مذهلًا، يدهش القراء ويدفعهم بلذة لقراءتها، كون التقييد في الفن كالتقييد للحريات.. لا يؤدي إلا إلى القهر والبعد والحرمان.

لقد فكرتُ كثيرًا قبل الشروع في كتابة حكايتي، وخاطبتُ نفسي، وكأني لا أعني ما أقول: من أين أبدأ؟!.. رأف الله بحالي.. ثم قررتُ بسرعة كالعاصفة، وقلتُ: سأبدأ من أهلي أولًا؛ فهم سبب وجودي،

ونواة كياني وشخصيتي، وربما لهم التأثير الأكبر في تركيبتي وصياغة أخلاقي!!

هجرتْ أمي أبي.. لكن أبي لم يرضخ لهجرة أمي، ولم يطلقها، وأمي لم تتنازل وتترك البيت؛ بل اكتفتْ بمقاطعته جنسيًا!.. الأسباب التي دفعتها لفعل ذلك كانتْ كثيرة، أهمها: بخله على أسرته، سكره ومعاقرته المومسات اللائي يترددن على ورشته، تلك التي جعلها للرزق وتعاطي المزاج.... عشق أبي الخمر، أحب النساء، وانغمس في الملذات الشيطانية، وكأنَّه متشرِّد لا أسرة له!!،

لقد كان جاهلًا، أقصد أُميًّا، عكس أمي التي أنهتْ دراستها الابتدائية.. امتاز بقامة عريضة قصيرة، وبصلعة تلمع كالفضة كلما انعكس ضوء الشمس عليها، بينما كانتْ أمي أطول منه بنصف متر تقريبًا؛ ضخمة الجثة، وصوتها هادر عريض، وغالبًا ما كانتْ تندمج مع نفسها بغناء ريفي حزين رائع، فتسقط دموعها بغزارة دون وعي منها أثناء ترتيلها لتلك الترانيم العراقية القروية الشجيَّة الأصيلة.. أدمن أبي على أن يكون مع زوجته قاسيًا جدًا وكأنها عدو!.. عاملها بخشونة وفظاظة، وفي أحيان كثيرة كان يضربها ويشد شعرها الحني الطويل الجميل، برعونة ووحشية خاصة عندما يجنُّ الليل!!.. في حين اختلفتْ معاملته مع بناته، فقد ظل معهن رحيمًا، ودودًا، لطيفًا ومبذرًا... أمي كانت تعلم عن رذائله كل شيء، ومع ذلك بقيتْ له وفيَّة، رؤوفة ورحيمة معه أثناء النهار... وما إن يقبل الليل عليها حتى تلبس شخصية أخرى، وتضع على وجهها ملامح الحزم والصرامة والعبوس، وربما كنتُ أُلاحظ الكره

يعلو نظراتها، عندما تزر أبي بعينيها الخضراوين، وتراه وهو يعاقر الخمر وحيدًا في غرفة الجلوس التي لا يقبل لأحد شراكته بجلسته تلك، مهما حصل!!... وقد تعوَّدنا نحن- بناته الثلاث - أن نترك الغرفة لحظة دخوله البيت عائدًا من عمله، ونختبئ في غرفتنا وننكمش على أنفسنا مذعورات كالقطط (رغم وداعته ولطفه معنا).. لم تستطع أمي - رغم محاولاتها المتكررة - أن تغير من سلوك أبي الشائن شيئًا.. رضختْ للأمر الواقع، قبلتْ بقدرها، فأصبحتْ له زوجة ولكن، بلا رجل!!.. زوجة في الأوراق فقط أمام الناس والمجتمع.. وفي واقع الحال عاشتْ زاهدة فيه، لا تتمتع بأيِّ حقوق زوجية، ووافقتْ على حياتها وتحت وزر القهر والحرمان ذاك.. من أجل بناتها وحياتهن، ومستقبلهن.. في الليل، يتغير لون وجه أمي الأبيض الملائكي.. فيبدوا أسودَ ممتقعًا، ثم أسمع صوتها اللجوج اليائس الخائف يرتفع في أرجاء البيت، وهي تنادي وتطلب ابنتها الصغيرة... ليس لأن تُقبِّلها قبل أن تنام، أو تحكي لها حكاية من حكايات الأطفال، بل لتدعوها أن تتمدد بجانبها، أن تبقى في حضنها.. معها في السرير؛ لتتوسط بين الزوجين، لتحمي الأم من إزعاجات وإلحاح الزوج المهجور!!

البنت الصغيرة كانتْ تسمع توسلات الزوج وهمساته.. أنينه، وشتائمه البذيئة.. ثم ترى الأم وهي تصده وتتمسك بابنتها وترصها إلى جانبها بقوة، فتكاد أضلعها الفتية، الرقيقة تنخلع من مكانها أو تتحطم.. تعي الطفلة، تبكي، تتلوى تحت الغطاء وبين أضلع أمها الدافئة.. مدفونة، محبوسة بالآهة والقلق والرهبة، تنظر بعينين

بريئتين مكبلتين بالخوف إلى أمها، وهي ترى أباها يشد شعر أمها من فوق رأسها ولا تبدي حراكًا.. سوى الكتمان والشعور بالكره لأبيها البغيض.. كل شيء كان على مرأى ومسمع منها، قبل أن تغفو وتنام.. وهما لا يدركان.. تبًا لقهرهما ولرعونتهما ولغبائهما البليد... تلك الساعات البطيئة من الليالي المظلمة، القاسية، المؤلمة التي كانتْ تمرُّ عليها وهي لا تقوى إلا على السكوت والتقهقر والرضوخ، من أجل أمها.. ترعرعتْ تلك الطفلة بين أحضان التمنُّع والقسوة، بين جنون وهوس الزوج المهجور والزوجة الزاهدة، البائسة، المحطمة.. كبرتْ الطفلة وأصبحتْ فتاة في سن الزواج وهي تخاف الليل، وتتمنى ألَّا يكون أو يعود عليها مجددًا!..

عاهدتْ نفسها بألَّا تجعل حياتها امتدادًا من حياة أمها وأبيها، ألَّا تتكرر المأساة في بيتها الزوجي المستقبلي.. ألَّا تمارس الضغط على أبنائها أو أن تشاركهم مأساتها إن حصلتْ.. كان لتلك الفتاة وجه ناصع البياض، يتوسط بين شعر رأسها الأسود الكثيف، فيبدو وجهها كقمر في ليلة ظلماء.. اتسمتْ بقوة الإرادة التي لها صلابة الصخر، وفي ذات الوقت كانتْ رقيقة كالفراشة.. لها ولع العشاق في الحلم، وقوة الأنبياء في الإقناع رغم قلة كلامها، في حين غلبتْ عليها نزعة أدبية رائعة، ملكتْ عليها كل كيانها.. عشقتْ شابًا يكبرها بثلاثة أعوام.. كان نحيفًا ولسحنته لون الأرض، متعلم وعلى درجة من الثقافة، من أسرة فقيرة، وله ميول فنية متواضعة، وأكثر شيء مميز فيه، هي عيناه اللتان لهما لون البن، براقتان ومسرورتان وتضحكان دائمًا؛ لتضيف له وسامة منقطعة النظير،

رغم نحافته وضعفه اللافت وكأنه ابن قديس.. أحبته بجنون، وغزتها الذكريات الأليمة التي عاشتها في تلك الليالي المظلمة، وترددتْ بعد أن نشطتْ ذاكرتها وطغتْ على ذهنها، فأحستْ بالخوف والرهبة، من أن يحصل لها ما حصل لأمها.. وظلتْ تعيش الحيرة والقلق والتردد لشهور طويلة، ثم قررتْ أن تقول لحبيبها عن سرِّ مأساتها وحصل.

عزيزي هيثم:

في الواقع، إن الحكاية التي أريد أن تكتبها لي قصة، ليستْ هذه ولا تتعلق أصلًا بمأساة أهلي، بل حكاية أخرى تمامًا!!، فلنرجع إذًا إلى صلب الموضوع وجوهره:

الطفلة التي حدثتك عنها قبل قليل، كان اسمها نادية.. هذا يعني، أنا التي أكتب لك حكايتي، هل تصدق؟!

وعندما كبرتُ، وتزوجتُ، وأصبحتْ لي أسرة... تورمتْ في حياتي مشكلة كبيرة، حاولتُ معالجتها بسرعة وحكمة وبسرية تامة! خاصة عندما توجستُ الخطر وشعرتُ بقرب انفجارها.. فوصلتُ إلى حالة - دون وعي مقصود - أكاد أكرر فيها، مأساة أمي وأبي في بيت الزوجية!!

وها أنا أكتب لك محاولتي وحكايتي، كما هي.. عارية كالفجر، واضحة وصادقة كالشمس.

تُرى، ماذا تعني الخيانة الزوجية؟!.. بل كيف لنا أن نعرف أن هذا الفعل، خيانة وليس شيئًا آخر؟!.. لا.. أنا لا أقبل بهذا المنطق العقيم،

المفتعل!، فالخيانة هي الخيانة.. سواء كانتْ نظرة، أو لمسة، أو فعلًا شريرًا ينافي الأعراف والأخلاق البشرية والإلهية، وكل ما يقع تحت هذه المدلولات أعتبرها خيانة وجرم، وجرح كرامة، وإهانه لشخصي المتمثل بي، كأنثى، ككيان ثابت موجود، يعيش على الأرض حتى وإن كنتُ متزوجة، فالزواج في عُرفي لا يلغي الثوابت التي أؤمن بها، خاصة فيما يتعلق ويندرج تحت معنى الخيانة.. سواء كانتْ كبيرة أو صغيرة، سواء تعرف زوجي على فتاة، أو نظر إلى أخرى، فالجرم في شريعتي ـ هنا ـ هو ذات الجرم، ولا يختلف عليه الحكم.

في إحدى الأيام وبعد غياب الشمس بقليل، أغلق زوجي سعدون باب غرفة النوم، نصف إغلاقة في شقتنا المتواضعة على نفسه.. اندفع الدم في عروقه حارًا، الهلع يعصر قلبه، وآهة الصراخ المكتوم تتجمع في صدره.. الغرفة التي حاولتُ جاهدة أن أجعلها أنيقة بأثاثها، جميلة في إنارتها وستائرها وساحرة في عطرها وطلائها.. أغلق زوجي العزيز باب الغرفة عليه، نصف إغلاقة ـ كما قلتُ ـ وهو يبحث عن حقيبتي اليدوية، التي لا أخرج بدونها أبدًا، في خزانة الملابس.. وما إن التقطها حتى همَّ بفتحها بأصابع مرتجفة وبسرعة فائقة، وعينيه تتلصصان وتدوران في المكان كالسارق، وهو يتابع البحث فيها بقلب راجف مقهور، ونفس قلقة متهدمة، لا تحمل في ثناياها سوى الشك والغل والتشاؤم، وقلة الحيلة، والعرق يلمع على جبينه فصوصًا.. كنتُ أنظر إليه بطرف خبيث ممزوج بالفرح المغتصب الغريب، معجون بالحزن والخوف والألم.. ويا لها من لحظات!.. كانتْ تمرَّ عليَّ، وكأني في حالة

وضع عسير في أول ولادة.. وبعد جهد مضنٍ، عثر على ما كان يبحث عنه.. رمق الحقيبة بنهم مكظوم وصرخ بصوت مكتوم، وهو يمسح شفتيه اليابستين بلسانه: الخائنة!! ها هي الرسائل في يدي.. المجرمة التي ستنال عقابها دون رحمة، وسأدق رأس شريكها، كائنًا مَنْ يكون، ثم أردف متشنجًا بتأثر: لقد كنتُ على حقٍّ، وشكي كان في محلة!!، وهذا هو الدليل... (وهو ينظر إلى اللفائف الورقية بحقد وغل وكره، ويعصرها بيده بقوة، وكأنه يخنق زوجته) ثم بدأ بأنفاس متقطعة، وبأصابع مرتجفة يفتحها الواحدة تلو الأخرى، وهو يشهق بالعبرات، والدم في وجهه يغلي... فتح إحداها بجرأة اليائس، وقرأ بعينين زائغتين متوترتين: حبيبتي نادية، انتظريني في الوقت والمكان الذي تعرفينه، وسأكون هناك على أحر من الجمر.. لم يعد يستطيع الوقوف.. بعد أن تذكر فجأة عدول زوجته عنه وزهدها في مضاجعته في الأشهر الأخيرة!!.. تذكر قلة كلامها، انطواءها، انعزالها، شرودها وعصبيتها المتفجرة الثائرة في كل صغيرة وكبيرة.. تلك الطباع التي لم يعتدها فيها من قبل!!.. تقهقر مترنحًا وكاد يسقط مغشيًا عليه، ثم مسك بطرف السرير وحاول الجلوس، وهو يبدو كعجوز يحتضر.. ثم فتح الورقة التالية وقرأ بعينين مطفأتين: سأكتفي بما تمنحينني إياه.. فالقُبلة من شفتيكِ الورديتين، التي تشبهان فلقة الثمار الطازجة، تجعلني أعيش أيامي كلها منتشيًا، كالسكران.. فلا تتأخري وكما تعودنا.. عند ذلك المكان الذي بدأتُ أُسميه ـ معبد حبنا .. انتبه إلى نفسه، ثم إلى الرسائل..

قلّبها بسرعة، وبدأ يقرأ نهاياتها، فوجدها جميعها دون توقيع أو اسم!!

سرتْ رعدة ورعشة في بدنه.. أخذ يتنفس ببطء، ثم وقف في وسط الغرفة وهو ينظر إلى حفنة الأوراق التي بين يديه، ويردد بسرعة لها سيولة الهذيان، مخاطبًا نفسه: ماذا يعني ذلك؟!، وتابع بفم جف لعابه، وبوجه شاحب ناشف ممصوص كوجه مَنْ قام من قبره للتو:

إنها من شخص أعرفه!!... لذلك خاف من ذكر اسمه!!... احتمال وارد، بل منطقي!!... تُرى مَنْ يكون؟!... وأين هذا المكان الذي وصفه هذا التافه، بمعبد حبه؟!... كما أعلم، أن زوجتي لم تغب كثيرًا عن البيت أثناء خروجها... إذًا، لابد أن يكون المكان قريبًا، والشخص المزعوم لا يسكن بعيدًا!!، ثم صاح نائحًا دون وعي، كامرأة مات طفلها في بطنها: كل شيء إلا الخيانة!! ثم صال كالجمل: ولكن، مَنْ يكون هذا المعتوه، الغاشم الذي يعرفني، يدخل داري، يسامرني ويخونني؟!... تبًا له ولزوجتي المجرمة، الآثمة!!

لم يكمل قراءة الرسائل التي وجدها ملفوفة، كالقصبة... خرج من الغرفة ودليل الخيانة في يده، وعوى مناديًا بقسوة، وبصوت نحاسي غريب: نادية... نادية، أين أنتِ؟! تعالي إلى هنا... هيا... امتثلتُ بين يديه، وهو في شعور متناقض، بين الحياة والموت، شعور لم يذقه أو يحسه من قبل، كان مزيجًا من الفرحة والألم، من النصر والخسارة، من الضحك والبكاء... وقفتُ منتصبة لا ألوي على شيء وأنا أرخي أهدابي، وقلتُ في هدوء هامسة: نعم، هل تريد منِّي شيئًا؟!

- باستهزاء وهو يلقي رأسه إلى الوراء: وتسألينني كذلك؟

- بحزم وهي تهز كتفها: لقد طلبتني، فلبيتُ، ماذا تريد؟

- الحقيقة!!

- بدهشة مصطنعة: أيَّة حقيقة؟!

- بامتعاض وجزع وصوت مرهق، مليء بالألم والحسرة: لا تتجاهلي الفعل الشائن الذي قمتِ به... ثم أردف بتهور أحمق كحمق نعامة: لا توجهي لي أسئلة!!.. أنا هنا مَنْ يسأل!!

- بكبرياء وعناد يفتت الحجارة: إنها مشيئة الله!!، وأضافتْ بلا مبالاة: ماذا تريد أن تعرف؟

- في عجزٍ، والكلمات كانتْ تخرج من بين شفتيه، كالضجيج: لا تستخفي بعقلي!!... ثم تمتم بشك جامح، وبصوت له رنَّة صفير الريح: كل شيء.. وهو يرفع حفنة الأوراق المعروقة بين يديه عاليًا، كخرقة مبللة.

- قالتْ بنبرة لاهثة، وصدرها يرتفع وينخفض، وهي تداري غضبها: أعلم إذًا، بأننا لو تكاشفنا.. ستكون الخاسر!!

تردد سعدون لبرهة، سعل قليلًا، وماءَ كقطة جائعة: لا يهمني الآن شيء، ولا أفكر إلا بمعرفة الحقيقة، ومدى كبر وحجم الجريمة التي اقترفتها يدك بحقِّ نفسك، وحقي... ثم أضاف في رعب خاطف، متفلسفًا: كرامتي وكبريائي لا يسمحان لي بالتواطؤ أو السكوت على الجريمة؛ لذلك أريد أن أسمع منكِ الحقيقة كلها دون كذب أو تهويل أو اختزال، وقبل أن أتخذ قراري بشأن علاقتنا وحياتنا!!

جلستْ نادية قُبالته وفي عينيها بريق لا يرحم، كبريق شاعر منفعل، وقالتْ بهدوء يطوي بداخله عاصفة من الغضب المكتوم وكأنها

تنوي إفشاء أسرار حواء كلها دفعة واحدة: لم أستطع أن أنسى أو أتسامح فيما فعلته بي وبنفسك، قبل عدة أشهر.. ثم ارتفع صوتها منددًا: هل تذكر ما فعلتْ؟!... وتابعت بنفس الرنَّة المرتبكة، التي تخفي بداخلها بركانًا يغلي: يقولون، إذا نسك الشريف تواضع، وإذا نسك الوضيع تكبر!!، لقد كان ظلمك لي أشد من ظلم الحية، وأكثر من عداوة العقرب!.. رغم صبري الطويل معك، كصبر الكلب على الهون!... ثم استطردتْ بشجاعة: سأذكرك وأقول لك - إن كنت لا تدري - لقد رأيتك وأنت بكل بذاءة تضع يدك هذه التي سأقطعها لك قريبًا بعون الله!! على كتف صديقتي في حفلة عيد ميلادي.. رأيتك وأنت في نشوة وحالة من الجنون الغبي، ذلك الذي ينسى المرء فيها كل ماضيه، ومستقبله، ولا يفكر إلا في لحظته.. كنتَ ساعتها تضحك كالساحر، لقد كرهتك حينها حد الموت والانتقام (توقفتْ لبرهة، التقطتْ فيها أنفاسها)، وأضافت بتذمر سائلة: كيف تظن أو تصدق على أني قد سامحتك، بمجرد كلمات أو قبلات أو حتى بهدايا ثمينة؟!، بل كيف تجرؤ على أن تعيش معي وأنت ملوث بذكريات أليمة مخجلة؟!، يستحق فيها ومَنْ مثلك، أن يدفن نفسه حيًا!! وتابعتْ بعزم: ماذا؟، هل مازلتْ تطلب منِّي المكاشفة؟، ثم بحنق وتحد متقد: هل أستمر؟.. وهي تنوه بخبث لعين: أم يكفي ما قلتُ؟! (قالتْ ذلك، بعد أن انطفأ تألق عينيها وهي في حالة من التعب والإعياء، لا يعلم فيها حتى الشيطان الأعور)

خفض بصره باستحياء شديد، أسقط رأسه على صدره كالمصلوب، وغمغم بتوجع وفي شبه إغماءة: أرجوكِ، قولي لي كل شيء.. مَنْ هذا الذي خنتيني معه؟!.. وكيف؟

- بذعر وصوت يرتجف: لقد حذرتك، ستكون الخاسر!!

- بتبرم وعناد أحمق: قبلتُ التحدي، وهيأتُ نفسي للخسارة... ثم أردف مولولًا، كابن آوى: أفضل من أن أبقى حائرًا، غائرًا والشك ينهش داخلي كالسرطان.

- انفجرتْ بغيظ مروع كوحش جريح، وهي تسدد نظراتها إليه بعنف كسهام تمكنتْ من هدفها: أخوك رفعت!!

- بهوس كالأبله: ماذا؟!

- كما سمعتْ... ثم بإناء وإباء: لا داعي من تكرار الاسم، ثم همستْ داعية: أعماك الله وأطال قلقك وسُّهادك.

- انتفض واقفًا، ومسك كتفي زوجته بعنف، وهزهما حتى كاد يخلعهما وهو يزمجر منتهرًا كشيطان غاضب: كيف سمحتِ لنفسك بإغواء أخي؟!.. ألم تجدي في هذا العالم سواه لكي تصفعينني به؟! يا لكِ من شريرة، آثمة و... ولم تجعله يكمل شتائمه.

- قاطعته بحدة، هاتفه: توقف؛ لن أسمح لك بقول المزيد... ثم تابعتْ دون أن ترأف بحاله: عجبًا!!.. كأنك تريدني ألَّا أنطق إلا بما ترغب وتهوى!.. ومَنْ يسامرك ألَّا ينام إلا بعد نومك!!.. كم أنتَ متناقض وساذج في نفس الوقت متكبر ومغرور، أرعن وبلا حياء.. تخونني في يوم ميلادي، وفي بيتي، ومع صديقتي، ثم تشك بأمانتي وأخلاقي ونزاهتي؟!.. تبًا لك من غاشم فارغ، وفقير الذوق والإحساس، لقد خُدعتَ بك حقًّا عندما أحببتك، وعندما حدثتني عن الصداقة بين الزوج والزوجة، التفاهم الذي تقوم عليه العلاقة الزوجية، الوفاء والإخلاص المتبادل.. لقد كذبتَ عليَّ في كل شيء،

واليوم تأتي بكل وقاحة، وترميني بشتائم بذيئة لا تليق إلا بك، ثم استطردتْ بلوم صارخ: يا من أجله فعلتُ المستحيل لإرضائه!!

احتار سعدون في أمر زوجته!!، ولم يعد يفهم نفسه ولا العالم.. هز رأسه، اختنقتْ في حلقه الكلمات، ولم يعرف بماذا يسأل أو يجيب.. وظلَّ ساهيًا، سارحًا، والجهل يملؤه.. ولم يستطع سوى الركوع تحت قدمي زوجته، كشحاذ مريض.. ثم تحرك لسانه ببطء وهمس بصوت منخفض، كالذي يخاطب نفسه: لا أريد أن يشاع الأمر أو يذاع!! قولي إذًا: ما الذي حصل؟.. وما قصة هذه الرسائل؟.. لمَنْ تعود؟.. وكيف استقرتْ في حقيبتك؟.. وما هو دور أخي في الموضوع؟!

نظرتْ نادية بعمق إلى زوجها وقلبها يعتصر، وروحها تحتضر، وأجابتْ باستنكار: يحضرني الشاعر الذي قال:

يقوم من ميل الغلام المؤدب ولا ينفع التأديب والرأس أشيب

ثم نوهتْ: سأقصّ لك بالضبط كل ما حصل، ولا تقاطعني... كنتُ صادقة عندما قلتُ، بأن أخاك كان له يد في الموضوع ولم أكذب!!

ضرب الطاولة التي بجانبه بقبضة يده بقوة وهو مازال راكعًا تحت قدمي زوجته، فرقص كأس الماء المملوء عليها رعبًا، محاولًا مقاطعتها بقوله: أخي رفعت مرة أخرى!

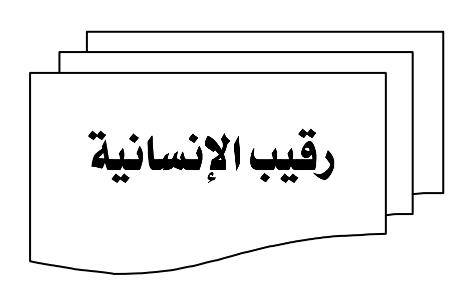
لم تعر له أو لقوله اهتمامًا، واستمرتْ في حديثها، وكأنها تتجاهل وجوده: لقد كنتُ سخيًا جدًا في خيانتك لي، سخاء المجوس على بيت النار!!، وعندما فعلت ما فعلت في تلك الليلة السعيدة، المشئومة.. بقيتُ أيامًا بلياليها أبكي وأنوح وأتألم.. لم أذق طعم

النوم، ولم أشعر معك بعدها بالأمان، وبدأتْ حياتي تميل إلى حافة الضياع.. أقصد حالة أمي وأبي ومأساتهما التي حاولتُ دائمًا أن أتجنب حدوثها ثانيةً.. ألم تشعر بزهدي بك وابتعادي عنك؟!.. ألم تحس أو تسأل نفسك؟!، لماذا بدأتُ أتحجج بالحجج الواهية، كي أتجنب مضاجعتك؟!.. تمنيتُ حينها الموت، هل تصدق؟، ولكن.. أين هو؟!، لقد كان الألم الذي يعصرني ويزهق روحي أقسى من الموت ذاته؛ لذلك تمنيته ولم يحالفني الحظ!!، لقد تصلَّفتْ وتكلَّفتْ ثم طعنتني بسكين حادة، مسمومة في قلبي وكبريائي وفي أنوثتي كلها، لكنك كنتَ وغدًا ولم تقتلني!!، فتركتني أتلوى عذابًا، كشاة نحرتْ من قِبل رجل غير متمرس في عمله، لم يتركها تعيش، ولم يجعلها تموت رغم محاولة ذبحها، فبقيتْ تترنح وفي دمها الحار تسبح، ما بين الحياة والموت... باتتْ حياتي معك كسجينة بلا ذنب في زنزانة رطبة، حقيرة، قذرة ولا تتسع لقامتي وقوفًا، وعلى ما يبدو كنتَ في حينها تتسلى في عذابي كالسادي!، وعندما كنتَ تغادر البيت إلى عملك، كنتُ أخفف حزني بشيء استطعته، وهو البكاء... ثم تابعت منهارة: وكما يقولون، إذا انهار السد، غمرتك المياه... والسد كانتْ إرادتك ساعتها، والمياه شهوتك اللعينة!!؛ لذلك تخبطت فيها شر تخبط وفعلت ما فعلت بكل وقاحة وإصرار... ناسيًا، متجاهلًا وجودي وإحساسي، حتى بقيتُ من أمري حيرى؛ زهدتُ فيك وفي معاشرتك وكدتُ أكفر في كل شيء، حتى شرفي وعفتي!!؛ لأنني لم أهتدِ أو أعرف حينها.. كيف أعاقبك على فعلتك تلك، على تمردك الساذج، على خيانتك الرخيصة لي دون مبرر؟، وكيف أرد لك الصفعة؟، صفعتين، حتى اهتديتُ إلى أخيك...

- هبَّ واقفًا، كالملدوغ وصرخ بصوت منفر، رنَّ صداه في قلبها: رفعت!! يا له من شيطان خسيس!... ثم أضاف بعصبية مفرطة وهو يحدجها بنظرة صارمة، قابلتها بشجاعة: سأدق رأسه... هذا الكلب الذي يدعي أنه أخي، وهو يطلق لدموعه العنان.

- ردتْ صائحة وكأنها تلعن، بعنف وتوتر: قلتُ لك لا تقاطعني، ثم شرعتْ تقول: شرحتُ لرفعت كل ما فعلته بي، وكيف طاوعتك وغوتك نفسك بخيانتي بعد هذا العمر الطويل الذي قضيته معك؟... استمع لي بهدوء ورصانة، ووعدني بأن يقف بجانبي، ووفى بوعده بأمانة وحرص شديدين... حيث جاءني يومًا بعدة رسائل أعدها وكتبها بخط يده، وتفادى ذكر اسمه عليها، ونصحني بأن أضعها قريبة من عينيك، أو في متناول يديك... وقد سعيتُ كثيرًا بتغيير مكانها حتى تعثر عليها وبسرعة، ولم يحالفني الحظ إلا اليوم!! وأردفتْ: مشكلتي الوحيدة هي إني أحببتك بصدق ولم أرغب أن أعيد مأساة أمي وأبي.. ففي ذكراهما دمعة، وفي نفسي لوعة، وخيانتك لي كانت صفعة.. ثم بأسى أضافتْ: أنا مَنْ يقول، كل شيء يا سعدون تحملته منك.. إلا الخيانة.. آه.. كم أشعر الآن بالحزن والسعادة، بالخيبة والانتصار، بالخسارة والفوز والاحتقار.

قالتْ ذلك وهي تشعر بأن هناك دمعتان كبيرتان سقطتا على خديها، ثم خفضتْ بصرها نحو الأرض، وكأنها تنوي أن تسرها شجونها، تلك... كاتمة الأسرار أبدًا كالبحر.



كان مهذبًا، نشطًا ويحب الجميع، وعن المبادئ الخلاقة مدافعًا، التي لم تعتمد إلا من أجل رقي الإنسان ونجاحه، وجعله بمصاف الملائكة التي تعيش خارج محيطه المزدحم بالتفاهات... لكنه تغير!!... بعد أن وجد نفسه يعيش الهزيمة تلو الأخرى... اهتز داخله باضطرابات الفشل الذاتي... ولم يجد ما كان يصبو إليه ويحلم به... فبدأتْ ثورته الداخلية تغلي، ثم تقذف بحممها البركانية بوجه أهله أولًا، وأصدقائه، ومعارفه، والمقربين ثانيًا... بات لا يرغب في النوم، ولا يستسلم إليه، إلا بعد أن يرى أقرب الناس إليه محطمًا خائرًا، مثله فاشلًا!!.

موتٌ على رصيف الغربة

وزنه في ازدياد مستمر، حتى قد تجاوز المائة وعشر كيلو جرامات، حركته قليلة جدًا وتكاد تكون معدومة، وإن تحرك فهي بطيئة وكأنه السلحفاة، ازدادتْ شراهته للتدخين لتصل إلى ما يقارب الستين سيجارة في اليوم، فما تلبث التي بين أنامله على الانطفاء حتى يسارع من عقبها بإشعال الثانية، سعاله أصبح حادًا جدًا وقويًا كسعال كلب عجوز... عيناه لهما شكل لؤلؤتان سوداويتان، حاجباه المعقوفان كمناجل حصاد، وخداه المكتنزان باللحم كوجه الشمس الضاحكة، أسنانه الصفراء بلون الذرة، صوته المميز في بحته كصوت مطرب محترف له رنَّة الدُّف، وصمته الذي يحتفظ به كالسر يشبه صمت النخلة في صيفها وشتائها.

تعوَّد جلال الذهاب في الأيام الأخيرة وبإصرار لا يعرفه سوى مَنْ يريد الموت في وطنه من بعد غربة! إلى حانة لا يسكنها سوى أشباح الليل الذين لا يفقهون من الحياة سوى ظلها، تلك العادة التي بات يمارسها يوميًا، جرفته نحو هاوية الإفلاس، وكلما غاص نحو أعماقها، كلما دنا من حافة الإفلاس الحتمي وهو لا يعلم، وهذا هو سر تلك اللُّعبة اللعينة، التي يكمن خلفها سر الإدمان عليها حيث

تبشر الإنسان بمتعة الفوز المنتظر والتتويج ملكًا بعد عبودية!، وبعد متاهاته الليلية يعود إلى داره متعبًا ومحطمًا نفسيًا ورئتاه تنطقان بالكاد شهيقه وزفيره... تجاهل جلال تمامًا كلام زوجته يومًا، حينما أبلغته بوجود علاقة ما بين ابنتهما سالي وشاب ألماني اسمه هلموت، يكبرها بتسعة أعوام، تقضي معظم وقتها معه.. كانتْ ليلى أثناء حديثها مع زوجها تبكي وترتجف لقرار ابنتها المتسرع جدًا، بالزواج من ذلك الشاب، وهي تلوم زوجها على إهماله لأسرته وبيته... استمع لها كالمسحور، وهو ينظر إليها نظرة متأملة وكأنه يود رسمها، وطال النظر والصمت الرهيب الذي أشبه بصمت قاع البئر العميق، ثم رد عليها باستخفاف عجيب: وما الضير في ذلك؟!.. هي حرة فيما تفعله، ألم أتزوجكِ بمحض إرادتي؟!.. فلماذا تطلبين من سالي أن تفعل العكس وهي على حق؟!

لم تتوقع ليلى بأن تكون ردود فعل زوجها هكذا، فبادرته بالقول: لم أعد أفهمك.

- أجابها بصوت خافت وهو يهزُ رأسه: وأنا أيضًا لم أعد أفهم نفسي، وكأني وترٌ سابع في جيتار!!

ترتبتْ على ليلى مسئوليات مضاعفة بعد أن أخذتْ دور الأم والأب معًا، نتيجة إهمال الزوج لأسرته تمامًا، وهي تردد دائمًا في سرها (لولا حبي الكبير له، ما كنتُ قد تحملتْ ما تحملتْ)، وتمني النفس بإصلاح حاله واسترداده لوعيه.. لقد كانتْ ليلى ذات نظرات ثاقبة، عندما تنظر للشخص الذي أمامها لا ترمش أبدًا، فتجعله يرتبك دون

أن يشعر، لا تتقبل سماع الجملة التي تقال لها من مرةٍ واحدة؛ لتقول: ماذا؟، وهي كانتْ قد سمعتْ جيدًا!.. لكنها تريد إحراج المقابل والتأكد من الكلام، هذه الطبيعة المعقدة والصعبة، تعودتْ عليها مع الوقت بحكم الظروف المربكة والغريبة التي يعيشها الإنسان في غربته؛ لقلبها طيبة عظيمة وكبيرة بحجم كوكب، تقتصد على نفسها كثيرًا، وتبذرُ لأسرتها دون حساب وبسعادة لا يعرفها سوى الأطفال في تبذير نقودهم عند أيام العيد، صريحة جدًا، ومباشرة كالسهم، وعندما لا ترغب بالكلام عن أمر، لا يستطيع أيُّ شخص أن ينتزع منها شيئًا لا تريد أن تبوح به، ومهما كانتْ صلته، فهي صلبة كالصخر، ورقيقة كالزهرة، وتعطي دون أن تفكر بأن تأخذ كالأرض، لكن غضبها صاعقه، وصرختها زئير أسد، وإن بكتْ، فلا تنقطع عنه بسهولة كمطر إنجلترا، ولا تعتذر من أحد كما يجب، لكنها عندما تشعر بأن عليها الاعتذار تقدمه دائمًا بطرق غير مرئية تقريبًا، وحسب قرب الإنسان منها، فمثلًا تعتذر من زوجها عن طريق إسعاده بليلة حب عظيمة، يكون فيها كالملك، لا يقوم بأيِّ جهد سوى الاستمتاع... تمرر لسانها الصغير والرطب كالأفعى على جسمه العاري كما ولدته أمه، صعودًا ونزولًا؛ ليعيش ساعات وكأنه دخل في غيبوبة، وبذهول لذيذ، فيذوب سكرًا ونشوة، يتلوى ويرتعش تحتها كالسمكة الخارجة توًا من الماء وهي مازالتْ حية!، تجعله يتذكر تلك الليلة لعشر سنوات قادمة، وتلك الطريقة من الاعتذار تروق له كثيرًا؛ وقد تفننتْ ليلى بممارسة الحب معه بشكل يدعو إلى الاستغراب أحيانًا، فكانتْ في

كل مرة تعتذر منه، تبتدع مناظر وممارسات حب جديدة لا تخطر ببال زوجها أبدًا، فحين يتذكر تلك الليلة الليلاء التي اتهمته بعد أن شكتْ في تصرفه عندما رأته من بعيد يسير بصحبة امرأة، جنَّ جنونها، وأعدتْ له عند رجوعه في المساء، جلسة محاكمة خرج منها بريئًا، بعد أن قال لها بأنه كان بصحبة صاحبة المتجر لتجديد عقد إيجاره، وعندما تأكدتْ من أقواله... أعدتْ عدتها، وابتسم بمكرٍ لها، وشعر بأنه سيعاقب بممارسة المجون والأنس الليلة معها بكل تأكيد.. حيث قامتْ بتحضير الحمَّام له، وأشارتْ برأسها الصغير كثمرة سندي، عليه بالدخول، فبهر مما رأى، طشت كبير مليء بالماء الساخن يعلوه رغوة من الصابون المعطر، وتسبح فيه قشور البرتقال الإسباني، مع وريقات من ورد الجوري الوردي؛ ليبدو سطح الماء وكأنه جلد نمر، تفوح منه رائحة كرائحة الجنة، وبعد أن تحمم ونشف، أشارتْ له بالتمدد على منشفة بيضاء مغسولة حديثًا، لها عبق زيت الزيتون المغربي، لترش على جسمه العاري وهو منبطح على بطنه وكأنه يعوم، العسل التركي بعد أن سخنته؛ لتدلك جسمه به وهو يئن كالمحتضر بعد أن أجهزتْ عليه.. في حين لو كان الاعتذار يخص بناتها... تقدِّم لهن وجبة غنية وشهية من الحلوى التركية التي تصنعها بنفسها وبمهارة كبيرة، بينما لو كان الموضوع يخص صديقة، فتراها تبعث لها بباقة ورد غالبًا ما تكون من الياسمين أو زجاجة عطر فرنسي غالي الثمن، لكنها تتحمل ذلك بنفس طيبة وصابرة، لكنها لا تعتذر مباشرة أبدًا.

وفي إحدى الأيام الممطرة من صباح يوم الإثنين الذي له صفة خاصة من حيث حركة الطلاب الكثيفة وتوجهم نحو المدارس، وتحت وطأة وكآبة العمال وإحساسهم بنهاية العطلة الأسبوعية، والبدء بأسبوع جديد روتيني له إطلالة حزينة يعرفها مَنْ يغادر بيته متوجهًا إلى عمله من بعد استرخاء لا يجدونه إلا في نهاية الأسبوع المقدس!

في مدينة برلين الألمانية المزدحمة بالسكان والبضائع والسيارات والمارة المتجولين، وعلى ناصية الشارع المطل على بناية بلدية برلين كان متجر جلال بلون خشبه الأسود والزجاج المائل إلى الاصفرار من جرَّاء الأتربة المتراكمة عليه، يبيع فيه التحف القديمة وبكل أشكالها وأنواعها والمصنوعة من الفضة الخالصة، المهنة التي توارثها عن أبيه الذي كان يملك أحد أفضل محلات التحف الفضية في شارع النهر آنذاك، الشارع الأكثر شهرة في بغداد.. يبعد منزلهم عن المتجر حوالي سبعة كيلو متر، يستقل الحافلة وقوفًا، والتي كانتْ باستمرار مليئة بركابها، يستغرق الطريق حوالي خمس وعشرين دقيقة رغم قصر المسافة، ومَنْ عاش في برلين يعرف بالضبط.. ماذا تعني الرحلة الصباحية بحافلة في مدينة كهذه؟!

جاء جلال في ذلك الصباح الممطر والبارد وجسمه يزحف خلف ساقيه من جراء إرهاق الأمس وتعبه، ففتح متجره بقوة متراخية وبإحساس منطفئ وكأنَّ الحياة قد تخلتْ عنه للتو وللحظة!.. جلس على كرسيه الجلدي الكبير والوحيد في المتجر وراء طاولة شبه

مستديرة يخدم الزبائن من خلفها وسيجارته في فمه يرفض التخلي عنها وكأنه يتنفس من خلالها، والصدأ والغبار يعلو بضاعته التي توحي للزائر بأنها بضائع صنعتْ قبل عصور التأريخ!.. لم يكن يفكر بشيء سوى النظر إلى الساعة المعلقة على الحائط الجانبي، وكأنه يستعجل الوقت للذهاب إلى الحانة في استراحة الغداء، بعد أن أمسى لا يكتفي بارتيادها ليلًا، بل صار يرتادها في النهار أيضًا، وهذا ما دفعه إلى عدم الاكتراث بمواعيد فتح المتجر في الأوقات المثبتة على واجهته، بات حرًا، يفتح المتجر ويغلقه كما يشاء أو كما تتطلب الرغبة والميول والضرورة لذلك.. وهو في جلسته يغوص في عالم أحلامه المترامية الأطراف، غارقًا في تأملاته.. عند تلك اللحظة رنَّ جرس الهاتف، نظر إليه وهو يخشى الرد!، كأنه قنبلة موقوتة على وشك الانفجار، لكن استمرار الرنين وإزعاجه، أجبره على الانصياع والرد عليه بجفاء:

- آلو... مَنْ المتكلم؟

- صباح الخير يا سيدي، أنا سيِّد موللر، لدي عندك ساعة فضية لتنظيفها منذ شهرين.. هل انتهيتَ من عملك؟

- بخمول: نعم إنها جاهزة، ويمكنك المجيء في الحال.

- شكرًا لكَ يا سيدي، سوف أكون عندك خلال عشر دقائق قادمة... إلى اللقاء.

تنفس جلال الصعداء.. وقال في سره: لقد ضمنتُ إيراد اللُّعبة لنهار اليوم الذي سيجلب لي السعد الأكيد!

فُتح باب المتجر؛ ليدخل ثلاثة شباب يتكلمون اللغة الألمانية باعوجاج واضح، وتدل هيئتهم على أنهم من دول أوروبا الشرقية، وعلى أقرب الاحتمالات من رومانيا، اثنان منهم توجهوا إلى جلال؛ ليكونا متقابلين ولا يفصل بينهما سوى طاولة شبه المستديرة.. أحدهم كان أحول وحدقتا عينيه متنافرتان عن بعض وكأنهما قرصان مغناطيسيان أقطابهما متشابهة، وهذا المنظر جعل جلال يضحك دون إرادة منه، وحاول أن يمسك نفسه لكن دون جدوى، مما أثار كبرياء وحفيظة الزبون، فسأله الأخير بامتعاض:

عن ماذا تضحك؟

ـ أجابه خجلًا، مرتبكًا(متلافيًا النظر إليه): أنا آسف، الموضوع لا يخصك تمامًا، ولكنني تذكرتُ شيئًا قد حصل لي، وأنا متوجه لمتجري جعلني أضحك منه، ومع ذلك أعتذر منكم مجددًا.

بينما بقي الشخص الثالث وهو أكثرهم صحة وقوة وشبابًا، مواجهًا لهم ومعطيًا ظهره للباب، بعد أن حجب دخول الضوء إلى المتجر؛ لقد كانتْ ثياب الثلاثة مازالتْ مبتلة من جراء المطر خارجًا، والمتجر من الصغر حيث لا يمكن أن يستوعب هذا العدد، إضافة إلى الدخان المتصاعد من سجائر جلال المتواصلة ورائحة الملابس المبتلة، كل هذا جعل جو المتجر خانقًا جدًا، وبات التنفس صعب المنال؛ ليبدو الجميع وكأنهم مصابون بالربو...

ـ قال أحدهم لجلال: من فضلك، ناولني هذه التحفة التي وراءك.

ـ نهض جلال متثاقلًا وبكسل شديد، كأنه استفاق من نومه لتوه.. خذ هذه هي.

ـ الثاني: من فضلك ناولني تلك التي في نهاية الرف.

ـ تلك؟

ـ نعم.

ـ يجلبها له بهمة أفضل قليلًا من السابق.. تفضل...

ـ يفركها بكلتا يديه، وكأنها المصباح السحري وهو يهمُّ بالكلام مسترسلًا محدثًا ضجيجًا: هل تستطيع أن تعمل لنا تخفيضًا جيدًا؟ فنحن مستعدون لشراء القطعتين معًا.

لم يصدق ما سمع!، فهو بانتظار رزق من زبون سيأتي حالًا ليسترد ساعته، وهذان يريدان قطعتين من التحف في آن واحد!، وبعد برهة من الزمن رد جلال عليه بغبطة: نعم، يمكن لي أن أعمل لكم تخفيضًا جيدًا.. وقبل أن يكمل جملته تلقى من أحدهم وهو المواجه له تمامًا ضربة على وجهه بمقبض من حديد، عندها لم يشعر جلال بشيء، بعد أن سقط على الأرض سابحًا بدمائه... حينها بدأتْ السرقة الخاطفة والسريعة، وكأنهم في ميدان حرب وجاءهم الأمر بالتقدُّم!... أوصد أحدهم بالمفتاح الذي كان على الطاولة باب المتجر، والآخر كان منشغلًا بضرب جلال وهو مستلق على الأرض، ويقول له بتصميم وعناد وبصوت جهوري غير متردد وغير خائف: إنك ستموت وأنا مَنْ يقرر ذلك، وكأنه فرعون عندما قال لشعبه، أنا إلهكم الأعلى وأنا مَنْ يقرر شئونكم! في لحظة ضعف قاسية، تراءى له شبح الموت، شعر بيده، وهي باردة يضعها على كتفه ويشير له بقبول دعوته، الرحيل معه نحو عالم غير مرئي وليس فيه انبعاث مجدد للحياة، عندها فقط شعر

جلال بحبه للحياة وتمسكه بها، فانفجر باكيًا صارخًا بهم بصوت مبحوح وكأنه يعوي، وهو يشير بيده المتراخية بتوسل: خذوا ما يحلوا لكم، لا تبقوا على شيء، لكن اتركوني أعيش... في هذه اللحظة الحاسمة التي قصمتْ ظهره، عندما تخلى عن كل تناقضاته وهواجسه التي كانتْ تدفعه؛ لرفض الحياة والاستغناء عن ملذاتها الدنيوية، في تلك اللحظة بالذات كشف عن ضعفه، وعن تعلقه بخيط الحياة، ولكن تحت تأثير ورهبة لحظات الموت الصارمة المحققة.. في حين استمر الشخص الثالث بسرق التحف وبسرعة متمرسة كالساحر، ويضعها في كيس أُعد لهذا الغرض.. في هذه الأثناء حضر سيِّد موللر، لكنه تفاجأ بإغلاق المتجر، على الرغم من وجود شخص يقف حائلًا بينه وبين المتجر، عندها طرق على زجاج الباب ليلفت انتباه الشخص الواقف خلف الباب، وكأنه تمثال كبير ضخم من الحجر... التفت عليه السارق وهو يؤشر له، ويقول: المتجر مغلق.

لكن سيِّد موللر رد عليه وبصوت مسموع من الخارج، وأشار بيده إلى أنه اتصل بصاحب المتجر قبل قليل، وهو الذي قال يمكن لي الحضور، وها أنا هنا (تمامًا كأي ألماني، لا يعرف إلا ما هو أمامه ويصدق كل شيء)... عندها شعر السارقون بالحرج والخوف من جراء الموقف الحالي المتأزم، رجل غارق في دمائه، وآخر خارج المتجر ينتظر على الباب، وهم يسرقون بلا تردد ولا يرمش لهم جفن كما يقول العرب.. عندها فتحوا باب المتجر ليهربوا بسرعة، تكاد تفوق سرعة هروب الأرانب عندما يشعر بالخوف أو أكثر

مهارة من اختفاء السناجب وفي فمها جوز.. لم يكن رد فعل سيد موللر سريعًا، فالمفاجئة أربكته إلى حد السهو، ولكن ما إن وعى على نفسه، حتى تذكر صاحب المتجر وما أصابه، فأخرج هاتفه المحمول وسارع للاتصال بالشرطة وهو في حالة ارتباك شديد، وعند هذه الأثناء خرج جلال زاحفًا إلى ناصية الشارع، وهو غارق في دمائه، وجسمه مجهد من أثر اللكمات التي تلقاها، يستعطف النجدة بصوت موجع ومتقطع كالنواح.

هرع سيِّد موللر إلى المطعم الذي بجوار المتجر يجلب منهم ماء كي يغسل وجه جلال من الدماء، تلك التي بدأتْ تنفر من وجهه بغزارة، وقد كان تصرف سيِّد موللر هذا (ومن دون أن يعلم) هو الذي أنقذه من الموت المحقق، بعد أن صعبَ عليه التنفس وبدأتْ حالة الاختناق واضحة من جراء دخول الدماء قصبته الهوائية... بعد أقل من ثلاث دقائق كانتْ سيارة الإسعاف ـ هناك ـ والفريق الطبي المرافق بدأ عمله كي يسعف ويضمد جراحة وعلى السرعة حملوه إلى داخل السيارة متوجهين إلى المستشفى، مع وجود ضابط من الشرطة يستجوبه بكل هدوء وراحة بال، كأنه يتناول غداءه! يسأله ويده على أنفه، تلافيًا لشم الرائحة التي تفوح من جسد جلال، تلك التي تشبه رائحة العظام المحروقة لتوها: أرجو منك يا سيِّد، أن تخبرني عن أوصاف السارقين كي نستطيع القبض عليهم قبل أن يكونوا في مكان يصعب علينا اللحاق بهم.

جلال(وهو يتألم ويئن): لقد كانوا ثلاثة، ولغتهم الألمانية ليستْ جيدة، وأحدهم كان أحول، وتذكر ضحكه قبل قليل، لكنه الآن في حالة لا تسمح له بأن يفعل أي شيء.

- سيكونون بعد قليل في قبضتنا لا تقلق، ولكن.. هل لي أن أحصل على رقم هاتف زوجتك كي نبلغها بما حصل؟

- نعم بالتأكيد، فأنا بحاجة ماسة لها، أرجوك أبلغها وقل لها بأني سأموت، وعليها أن تحضر إلى المستشفى حالًا...

اتصل الضابط المرافق له بزملائه لملاحقة الجناة ، واتصل كذلك بزوجته.

مكث جلال وقتًا طويلًا في غرفة العمليات تجاوزتْ ثماني ساعات، مما أتلف أعصاب عائلته التي كانتْ تنتظر، وهم في حالة يرثى لها من القلق، لقد كانوا أشبه بالطافين على سطح البحر من جراء تحطم سفينتهم، وهم بانتظار مَنْ ينجدهم!... خرج من غرفة العمليات ووجهه مغطى بضمادات كثيرة لا يرى من وجهه سوى عين واحدة مازالتْ ساكنة وداكنة وكأنها مستنقع راكد.. ولكن وبعد ثلاث ساعات كان قد استعاد جزءًا من قوته؛ فحكى لهم ما حصل مع المبالغة وتضخيم تفاصيل المعركة التي دارتْ بينه وبينهم! لكنه كان مرهقًا جدًا، فلم يستطع أن يستمر في الحديث، سوى أنه وعد أسرته الواقفة أمامه، بأنه سيترك كل ما له تأثير سيء على حياته وحياتهم، وأن يترك التدخين، وأن يعتني بنفسه وبأسرته كما كان في السابق، وألّا يعود ثانية لتلك الحانة اللعينة، وأن يقلل من وزنه المتزايد، بعد أن رأى الموت في أكثر لحظات حياته صعوبة وألمًا؛

وها هو الآن يعيش ويبعث من جديد من بعد موت محقق... لم تصدق زوجته ما سمعتْ، فهي مازالتْ مبهورة وغير واعية لما حدث وما يحدث، ولكنها قالتْ وبشكل حازم: أتمنى ذلك من كل قلبي، فنحن بحاجة لك أكثر من ذي قبل، أرجو أن تستعيد صحتك بسرعة، وأن ترجع لنا كما كنتْ وكما عرفتك مرحًا، صبورًا، ومتسامحًا كي تعيش حياتك بإيجابية مفعمة بالتفاؤل والعطاء، وأردفتْ بعد وقفة قصيرة: ليس فقط من أجلك، بل من أجلنا نحن. ثم صلّتْ ودعتْ ربها وبكتْ عندها بكاءً مرًا، لا يبكيه سوى البحر في الشتاء لوحدته وقنوطه.

أول خبر تلقاه جلال من الشرطة هو أنهم قد قبضوا على اثنين من الأشخاص الذين سرقوه وحاولوا قتله، وأن ما سرق كان بحوزة هذين المقبوض عليهما؛ تلك الأخبار جعلتْ من معنوياته أكثر قوة وتصميمًا للحياة من جديد... وبعد ثلاثة أسابيع من مكوثه في المستشفى خرج جلال معافى، وقد استعاد قوته وانخفض وزنه حتى أصبح خمسة وثمانين كيلو جرامًا... كان سعيدًا جدًا بتلك النتائج الإيجابية التي لم يكن يتوقع حدوثها بمثل هذه السرعة، كما أن زوجته قامتْ بتنظيف المتجر، وأعادتْ دهانه أثناء وجود زوجها في المستشفى، وهيئته بشكلٍ جيد لاستقبال مالكه الشرعي عندما يستعيد قواه، كل تلك الأمور قامتْ بها دون أن تخبر زوجها، لكي تعطيه دفعة جديدة من الأمل، وقد دفعها الحب بأن تحاول مرة جديدة معه لتقوية الروابط الأسرية فيما بينهم... حيث خططتْ بعد زياراتها المستمرة إلى المستشفى - عندما كان زوجها يرقد هناك -

بأن تُقدم على خطوات متتالية إيجابية، تعطي حياتهم نبراس أمل نحو الأحسن؛ لذلك جهزتْ نفسها من قبل أن يخرج زوجها من المستشفى، على أن تحاول الجلوس مع زوجها لفترات أطول، وتفتح معه مواضيع ممتعة للحديث فيها، كتاريخ بداية علاقتهما، أو أيام الخطوبة التي هي أجمل أيام المتزوجون دون منافس، تمامًا كأيام الطالب أثناء دراسته الجامعية، أو أن تخرج معه للنزهة، أو للتسوق، تحاول أن تتقرب منه أكثر، كي تكسب صداقته مرة أخرى، هذا ما نوتْ عليه فعلًا.. تسربتْ الحيرة إلى عقل جلال، كالخدر في الرجل أثناء الجلوس الطويل، وبدأ الضجر يغزو أعصابة شيئًا فشيئًا.. لم يعهد تلك الحياة الرتيبة دون شد أو مد، ولم يستطع الصبر أو يطيق الجلوس هكذا بين أحضان زوجته، فلابد لي من الإسراع في التغيير (هذا ما قاله لنفسه) حتى جاءتْ ساعة الصفر؛ ليتحرر من أولى تبعات الحصار المفروض عليه - العلاج الطبي والنفسي - لم يستمر بالطرق المثلى للعلاج، وما إن استعاد قوته البدنية، حتى بدأ يغافل زوجته كي يبدأ بتدخين سيجارة هنا وأخرى هناك... أفرط في الطعام، وعاودته الزيادة في الوزن، حجته كانتْ بأنه يحتاج لذلك كي يعوض ما فقده ولكي يستعيد قواه الضائعة أو بسبب كآبة تلك الأيام الرتيبة والحزينة التي تزامنتْ مع موت أخيه في العراق!

وفي إحدى الأمسيات، استغل انشغال زوجته في تحضير طعام العشاء لأسرتها؛ لينسل كاللص من البيت متوجهًا لحانته القديمة العريقة، فالحنين لتلك الحانة كان أكبر من كل وعوده التي تهاوتْ

أمام أولى لحظات ضعفه، وكأنه حنين الطفل إلى حضن أمه بعد طول غياب.. هكذا عاد جلال إلى حالة الانهيار والضياع مرة أخرى؛ ليعيش حالة العفن المتأصل حتى نخاع العظم من جراء مقامراته ومغامراته الليلة على رصيف الغربة التي لا تريد أن تنتهي!! .

برونو الشافي عبر الأثير

▪ **تنويه:**

هل يستطيع أحدكم أن يقول: ما الذي أريده في هذه القصة؟!.. لقد كتبتها بطلب خاص من صديق عزيز على قلبي، لم يشأ أن أذكر اسمه، تأثره بحياة ذلك الرجل الذي يدعى برونو كَروينيك كان السبب وراء الطلب.. إنه شخصية حقيقية، عاش ومات في ألمانيا في منتصف القرن الماضي، بعد أن بهر العالم بأمور جاء بها لم يصدقها أو يقبلها العقل البشري، ولم يأتِ بمثلها حتى الأنبياء!! كتبتها بأسلوبي الخاص، الذي أحاول دائمًا أن يكون له خط واقعي وخيالي في ذات الوقت، وأترك للقارئ الكريم عملية الفرز والتمييز.

قالوا:

إن بعض القتل إحياء.

وبعض العفو إغراء.

وبعض المنع إعطاء.

قدَّمتُ نفسي إلى زوجته الثانية والمنحدرة من أصول فرنسية عريقة، على أني كاتب قصة قصيرة، وعبرتُ لها عن رغبتي، ونيتي بترجمة حكاية زوجها، قصة... وبعد محاولات عدة، ومكالمات متكررة كثيرة.. رضختْ لطلبي أخيرًا، وسمحتْ لي بلقائها بعيدًا عن ضوضاء وفضول وعيون الناس، كما كانتْ تقول وتدعي، فقابلتني في بيتها وعلى انفراد، فتمتعتُ بسعادة ربما أحسد عليها.. كيف لا؟!، وأنا بحضرة زوجة برونو الشافي عبر الأثير، ولوحدنا!!... مضى فينا زمن اللقاء سريعًا، وظننته مضى بسرعة ظهور واختفاء البرق، دون أن نشعر بملل أو كلل.. كنتُ أسألها بلهفة أعياها الصبر والانتظار، ودون أن أدع أمرًا بلا استفسار، وهي تجيبني برقة، وسحر، ويسر واختصار... خرجتُ منها محملًا بحكاية غريبة كالأسطورة، لم نقرأ مثلها في الأمثال ولم نرها في الأحلام!، فالأمور التي حدثتني عنها لم أستوعبها، ولم أستطع فهمها أو تقبلها.. فهي كانتْ تنافي وتعارض كل قوانين الطبيعة والمنطق الإنساني؛ خاصة بعد أن رأيتُ تسجيلات فيديو لزوجها وهو يعمل، ولشهود وهم يدلون بشهاداتهم ويثبتون صحة أقولهم... فزاد استغرابي، حتى كدتُ أصل إلى قناعة في تكذيبهم أو تكفيرهم.. ها أنا أروي لكم تفاصيل تلك الجلسة التي تشبه جلسة تحضير الأرواح، فليصدقها مَنْ يشاء، وليرفضها مَنْ يريد!!

تهافتتْ الجموع المريضة بالآلاف، المصابة بالعاهات المزمنة التي عجز الطب عن شفائها متوجهين صوب داره، تلك المدفونة بين حفنة من البيوت القديمة المتهالكة، والتي بقيتْ واقفة بعناد وهي تقاوم القنابل والصواريخ التي كانتْ تدك كل بقاع ألمانيا في زمن

الحرب العالمية الثانية.. غير عابئين بقرار الحكومة.. عندما وجهتْ له تهمة ممارسة الطب دون شهادة، ثم حكم عليه بالمنع من ممارسة نشاطه ذاك، وصوروه بأنه أخرق وأنتن من التيس، وأحمق من الحبارى وأجهل من العقرب.. وأنه جد خبيث، وخبثه يذيب الحديد إذا لامسه!!، وعلى الرغم من كل ذلك استمرتْ الجموع البشرية تتهافت نحو ذلك الشاب الألماني الذي يدعى برونو گروينيك... انحدر من عائلة فقيرة، عاصرتْ الحربين الكونيتين الأولى والثانية، غالبًا ما كان يقضي أوقاته بين أحضان الطبيعة حيث البحر والشجر، متنكرًا للحضارة الحديثة، مديرًا ظهره لها، متأملًا، ناسكًا وزاهدًا عن ملذات الحياة الدنيا، قاضيًا جُلَّ وقته في الرياضة الروحية التي يمارسها بقسوة كرجل بوذي أعمى، ناهيك عن سخائه وعطفه غير المحدود، مع كل مَنْ يحيط به، سخاء النصارى في صلبان الذهب وعطف الهندوس على مقدساتهم... تمتع سيِّد برونو بنشاط وعناد لم ينافسه عليه سوى أشد وأقوى البغال، وبذكاء ودهاء حادين كما الثعلب، وبعينين زرقاويتين نقيتين، صافيتين، زجاجيتين، وكأنهما لساحر، لم يكن وسيمًا بل العكس، كان يعاني من تضخم غير طبيعي في رقبته؛ ليبدو عنقه كعنق الثور.. تلك الرقبة التي يقول عنها إنها مصدر قوته وسر إلهامه!!، ولم يعترف بأنها كانتْ كذلك بسبب اضطراب في غدته الدرقية، وأنها حالة مرضية وليستْ مصدرًا من مصادر القوة والإلهام كما كان يدعي، إضافة إلى نحافته والتجاعيد التي انتشرتْ بسرعة في وجهه رغم صغر سنه، وله رأس ـ سبحان الله ـ يشبه إلى حدٍ بعيد رأس الجرادة، وغالبًا ما كان يجعل بنطلونه يتسلق فوق سرته كالبهلوان

الشاطر، فيبدو مظهره هكذا مضحكًا والنظر إليه مسليًا... ما كان يجلب انتباه الآخرين القوى الخارقة التي كان يدعي امتلاكها وهي قوى غير مرئية، فما إن ينظر بعينيه الزجاجيتين إلى مَنْ حوله، حتى يشعر الآخرين بتيار كهربائي يسري في بدنهم، وبحرارة وطاقة فائقة عجيبة تمضي في جسدهم ومع دمائهم.. طاقة لها وقع الخبز من الجائع والماء من العطشان... ودون أن يجعل المرء يشعر بأن تلك القوى كانتْ تصدر من ذلك الرجل صاحب رقبة الثور الغليظة!!... صدقه بضعة آلاف من المرضى، ومَنْ له مصلحة من وراء تصديقه والإيمان بقدرته وإعجازه... في حين وصفه بعضهم بالدجال، وأعماله لا تتعدى السحر والشعوذة والاحتيال.

كتبتْ عنه الصحافة بسخاء واستياء: كلبٌ نابح وكبشٌ ناطح، ونباحه لا يضر السحاب، وشخصه لا يستحق العطف والاحترام، ونعتوه باستهزاء واستصغار: قيمته كقيمة وصام النعام وذرق الحمام...ثم ابتعدوا بشتائمهم وشبهوه بالغراب الذي له أخلاق البوم، وأنه مريض نفسي ويحتاج إلى علاج، فلم يؤمنوا بقدراته، ولم يصبوا إلى تطلعاته، حاربوه ونصبوا له العداء، كعداء الحمار للغراب... ثم تابعوا مصرحين: إنه يعاني من خمول ذكره، لذلك طلقته زوجته!!، وأضافوا بصرامة وقسوة: أعماله سببتْ كارثة اقتصادية في عموم ألمانيا، بسبب هجرة الناس للطب، والتوجه إليه، طالبين الشفاء على يديه.

بعد تلك الحملة المضادة الشعواء... غيَّر من نهجه وتوجه إلى الإعلان عن طريق الإذاعة، وبدأ بممارسة نشاطه عبر الأثير،

وعبر الهاتف وهو يردد كلماته التي بات الناس ينتظرونها، كطلوع الشمس: انتبهوا إلى دواخلكم، تنصتوا السمع إلى أرواحكم، فهي الوحيدة التي تستدعي سماعها وتصديقها، ثم يهتف بالناس الذين يعانون من الإعاقة والمرض وصوته يرنُّ، وكأنه في واد بجهنم: قوموا، تحركوا، صفقوا، اضحكوا، وادعوا لله وصدقوا بوجوده، فهو الشافي.

شاهدته في الفيلم أثناء وجوده، وسط حشوده، يدعوا لهم، يتأملهم، يعالجهم، يشفيهم باللمس أو النظر.. فذاك الكسيح الذي قام، وصاحب المرض المعدي الذي يبرأ فجأة من المرض والآلام، وتلك العجوز المجنونة التي تتغلب على جنونها، فتهدأ روحها وتطيب نفسها بعد سنوات من العزلة والصعاب الجسام .

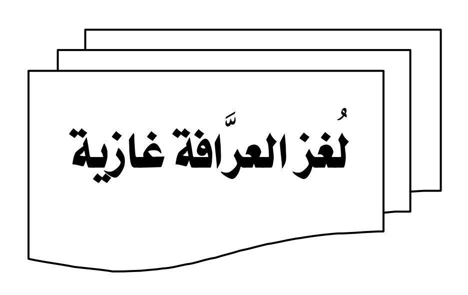
طلقته زوجته الألمانية؛ لأنه كان يمكث معها أقل بكثير من مكوثه بين الناس وهو يهمُّ بمساعدتهم، وينطلق قافلًا فيما بعد نحو أحضان أمه (الطبيعة) التي كان يشعر بأنها مصدر إلهامه وقوته بالإضافة إلى متانة رقبته!!، وهو يردد بين الذين يحاول مساعدتهم، بوقفته المعتادة من على شرفة منزله العتيق، واضعًا يديه على سور الشرفة ويحدق فيهم بعمق، وكأنه لا يراهم: لا تنظروا إلى مرضكم، بل إلى أرواحكم وهي تنطلق فرحة نحو الدعاء والالتصاق، لله وبه... لا تيأسوا من رحمة الله، آمنوا به، تنتصروا..

المرض غالبًا ما يكون من صنع أيديكم كالوهم، لا يصدقه سوى صاحبه... لا تشبكوا الأيادي ولا تضعوا الرِّجل فوق الأخرى، وأنتم بالجلوس تستمتعون... اعتقدوا وآمنوا بالله، أصحاء رغم

المرض، عندها فقط ستشفون... لا يهم ماذا يكون دينكم، لونكم أو جنسكم، بل المهم أن تكونوا موقنون بأن الله وراء كل شيء...ثم يقول جازمًا: أنا لا أشفي أحدًا، بل الشافي هو الله.

قبل وفاته بقليل، تزوج برونو ثانية من امرأة فرنسية، تلك التي منحتني شرف لقائها، والاستماع إلى حديثها وهي تنطلق بسرور، تروي حكاية زوجها... صدقته تلك المرأة الفرنسية الجميلة، وصدقت ما كان يحمله من قوى إيجابية تستطيع أن ترفع المرض والإعاقة من الناس حتى عبر الهاتف أو الأثير، فتزوجته بعد أن أحبها صاحبنا تعالى بعنف وشغف وجنون منقطع النظير، وبقيتْ له وفيه دون تقصير، حتى بعد وفاته... مات سيد برونو گروينيك وهو في منتصف الحلقة الرابعة؛ ظل تلاميذه له أوفياء، كزوجته، وهم الذين نشروا وكتبوا عنه، وأذاعوا ما كان يفعله من أمور غريبة، معقدة وخارقة لا يستسيغها أو يصدقها عقل ولا يقبل بها منطق ولا يؤمن بها طبيب أو عالم!!

فهل تصدقونه أنتم أعزائي القراء؟!.. أو هل تعتقدون بأنه لم يكن يفكر بالزعامة، أو الشهرة، أو المال؟!.. وهل تؤمنون بأن له تلك القوة والهيبة والإلهام والسطوة التي كانتْ عند الأنبياء؟!، وربما فاقهم فيما جاؤوا به وما قدموه من براهين، للبشرية جمعاء؟!... هذا ما أريد أن أعرفه منكم، فيما جاء به سيِّد برونو الشافي العجيب الملهم؟!.



(ليس كل طائر يطير، وليس كل من له أقدام يسير)

قال بطل القصة باستسلام يتصف باليأس والقنوط، وهو يطقطق أصابعه: أنا حمدان ابن العرافة غازية، وبصوت خفيض لا يكاد يسمع حدَّث نفسه وهو يتذكر ما جرى له، ويده ترتجف، محاولًا حبس دموعه بعد أن جفَّ لعابه: لينشف الله الدماء التي في جسدي تسري، كيف فعلتُ ذلك؟.. وكيف طاوعتني يدي؟!.. ثم نوه متعاليًا معاندًا: ربما كنتُ على صواب فيما فعلته؟!... تابع بلوعة تفوق كل وصف، وهو يشعر بتعب جسده وعزاء قلبه، وكأن الدم قد تجلد في شرايينه: أنا لستُ كأمي محظوظًا، بل أجد نفسي محرومًا، رغم حبي الهائل لها إذ تعذبني الغيرة من قدرتها وشجاعتها وتوقد ذكاءها!! بهذه الكلمات التي كانتْ تجلده كالسوط.. كان يتذكر ما فعله بأمه... ها هو الآن يفكر بصوت انتهى عاليًا، بعد أن ملَّ الهمس، وبقناعة راسخة وبصدق كان في بداية حياته يظنه لعينًا: أم حمدان عمَّتْ سمعتها أرجاء الناصرية كلها بممارسة الطب الشعبي من خلال أعشابها ومراهمها، وبعض من الأدعية المكتوبة على لفائف ورقية عتيقة، منها ما هو منقوع بالخل، ومنها ما تعرض إلى

أشعة الشمس بعد دهنه بالعسل، بالإضافة إلى الخلطات العجيبة التي تقوم بصنعها، تلك التي تصعب على الشيطان أن يأتي بمثلها... وتنفي ما يقال بأنها تمارس الحيلة والدجل، وتدعي بقدرتها الخارقة على شفاء كل العلل.

قاربتْ غازية السبعين، لكنها كما أغلب النساء تكذب، وتقول: مازلتُ في الخمسين!.. يعلو أنفها المجدور نظارة طبية، سوداء مستطيلة العدسات رخيصة الثمن.

احتفظتْ بنظارتها وقوتها وطلعتها الجملية البهية، عُرفتْ بشخصيتها الصلبة، الحازمة، الحاسمة، فعاشتْ وهي لا تهاب أحدًا، كالسيل.. تأتي بحركات، يُخال وكأنها سكون!، طغى صيتها على أنها أبصر من غراب، وعينيها أصفى من مقلته، وإذا رأوها تتقدم نحوهم زاحفة بجثتها الثقيلة قالوا: جاء القدر الذي يعمي البصر!!.. رزقتْ من زوجها بابن وحيد سمياه "حمدان"، ثم غادرها زوجها دون رجعة.. الزوج الذي لم يكن في حياته معنى كثير الخطر، ولم يترك بمغادرته أثرًا كحبات مطر لامستْ سطح أرض بقيتْ عطشى لدهر، لا يعرف له مكان، أو كان حيًا أم ميتًا؟، ومع الوقت، تباعد به الزمن وطواه النسيان.. هذا كل ما يتعلق بأبي حمدان.

إن لم يكن حمدان ـ الذي هو أنا ـ رجلًا سيئًا أو شريرًا، فإنه بالتأكيد بليد.. ولم يكن له أعداء في حياته سوى نفسه!، ثم أردف بوحشية كأحمق متطفل، وبطريقة حماسية تتسم بالسخرية: لحمدان صوت مخيف كأنه صادر من قبر!، وفي عينيه لؤم ممزوج بالعتاب، ويُخال لمَنْ يراه أنه كان بحاجة إلى قدر أكبر من العقل،

أكثر من حاجته إلى الصحة!!... ضخم الجثة كأمه، له شعر أسود مجعد يحتار فيه المرء وكأنه شعر مستعار، غالبًا ما كان يرتدي قميصًا طويلًا رماديًا داكنًا، يتعدى فيه حدود ركبتيه، دعكته الأحجار ولطخته الأوساخ، وكانتْ له طريقة لئيمة في الأكل لا تسرّ العين... اتصف بقلة النشاط والحركة، سريع الاشتعال والغضب، ضحل التفكير، كما زادتْ تصرفاته طبع غريب، عبثًا أحاول وصفه، بل إن رؤية الأشباح في الليل، أكثر رحمة وأقل رعبًا من مشاهدته وهو يمشي.. فقد كان - سبحان الله - يتحسس الأرض بقدميه، وكأنه يريد نبشها كالديك!!... يتصرف أو يوحي للآخرين رغم كل صفاته المجنونة الغريبة تلك بأنه محتال كبير!!، فقد كان الناس يخشون بكاءه المسرحي كلما همَّ بالكلام!!، وقد كان يبالغ في مشيته، تلك التي تشبه مشية الحمقى والمهرجين!، وغالبًا ما يردد على مسامع الآخرين قوله بحماسة مفتعلة، وكأنه يريد إيقاظ الحنان في دواخلهم وبطريقة عشوائية غير صادقة: جئتُ من أم تتصف بالغباء، وأب بالرعونة والمغامرة والدهاء، وأقارب بالبخل والسمعة الملوثة بالدناءة ومحكومون منذ ولادتهم بالشقاء، ولا يعرفون في حياتهم سوى الأحزان والأشجان.. ثم يدعو عليهم بلسان سليط متعثر وبكلمات مرعبة، ينخلع القلب من مكانه عند سماعها، يرافقها بحركة آلية من رأسه: ثقب الله قلوبهم وحطمها، وقطع كبدهم وسحقها، أو أن يقول: طفح الله تعالى غباءهم شرًا وحوَّلهم إلى شياطين خرس لا ينطقون!!

ورثتْ غازية - التي هي أمي - بيتًا عن زوجها الضائع المفقود، وكان في الحقيقة بيتًا لا يحتاج إلى الطلاء فقط، بل إلى تغيير النوافذ والأبواب، القذرة المتهالكة والمتآكلة.. فقد كان يبدو أشبه بمخزن لمصبغة موبوءة بالجرذان، تسرح وتمرح فيها الفئران، كالذي عمل فيها الكاتب تشارلز ديكنز في صباه - هذا ما قرأته مرة بالصدفة عن حياة ذلك الكاتب - نشأتْ وكبرتْ في نفس البيت الذي وصفته مذ قليل، ولم أفهم في الحياة شيئًا، ولم أرَ فيها سوى أعمال أمي الجليلة في نظر الناس، والتي أمقتها جدًا، بل أكرهها أكثر من كرهي للدراسة!!، وهكذا غادرتُ المدرسة مبكرًا، ثم عملتُ بأعمال حرة متنوعة كثيرة كرجل أعمال غير ناجح، وآخرها عندما التحقتُ في سلك الشرطة... تعثرتُ بالترقيات كثيرًا، حتى كدتُ في مرة أن أقدم على الانتحار، لولا صورة ابني المريض التي راودتني في تلك اللحظة.. تزوجتُ من امرأة تشبهني كثيرًا... في تبرمي، وسوء طالعي، وحتى أصابتني بداء الحذر والخوف اللذين يلمعان في عينيي، وكأنهما متأصلان بي منذ ولادتي إلا من شيئين: لها وجه مخيف ومهيب، وعندما تتحدث تخرج الكلمات من فمها سريعة كالطلقة، فتمتعتُ بلباقة قلَّ مثيلها، لقد كانتْ مذهلة، لها قدرة على إنجاز مائة كلمة في الدقيقة!!، وهذا ما أردتُ أن أتعلمه منها لسنوات طوال دون فائدة تذكر، وحتى هذه اللحظة التي أروي فيها... ما فعلته بأمي.

رزقتُ بطفل نحيف، شاحب، مريض دائمًا، وكأن صحته تعكس سوء تغذيته!!..وكم حاولنا معالجته ومن قِبل أفضل أطباء العراق

دون جدوى.. لم أكن أسمح لأمي بملامسة ابني لا من قريب أو بعيد؛ لمعرفتي المسبقة بكذب كلامها، وفقر دليلها، وعدم نقاء سريرتها، ومن هنا جاء كرهي لأعمالها، لقد كانتْ تخدعهم جميعًا، وتأخذ مالهم دون وجه حق، وهم يسعون إليها زاحفين، يقبلون يديها متلهفين، ويرددون اسمها على شفاههم فرحين، متفائلين: العرافة غازية، بادعة السر والسحر، صاحبة الحظ المعين... حتى عمَّتْ سمعتها الناصرية كلها- كما قلتْ.

بعد عناء وسنوات من الانتظار والتجلد والصبر والشقاء، ارتقيتُ ضابطًا.. فلم يكن لي من همٍّ إلا إلقاء القبض على تلك العرافة، وبأيِّ وسيلة كانتْ، وعن قناعة وجدتها راسخة في عقلي، كالوشم على الزند... تدهورتْ صحة ابني كثيرًا، وبدأنا نعد له الأيام لفراقنا والذهاب حيث اللا عودة، نحو عالم لا نعلم عن ماهيته سوى اسمه(الآخرة) تلك التي سمعنا عنها الأقاويل... أدخلتُ العرافة السجن بنزاهة وتجرد، فشعرتُ بانشراح وارتياح، وأنا أُلقي عليها نظرة لا مبالية، فأذللتها، كما كانتْ تخجلني وتعذبني وتؤرقني الأيام بنهارها ولياليها، رغم أنها كانتْ أمي.. بدأتْ زوجتي التي تشبهني بملامح وجهها المخيف المهيب، وهي تدفن رأسها بين يديها، تثير شجوني وبهمة وجدتها مثبطة، ربما محاولة منها لإيقاظ العطف القابع والنائم في داخلي... حين كانتْ تردد على مسامعي بكلماتها النارية السريعة وبصيحة تتسم بالاحتجاج: لعنة الله على وقاحتي وصراحتي يا زوجي العزيز، ثم بلهجة مراضاة مواسية وكأنها تعلن عن توبتها، تابعتْ: أرجوك حمدان، أتوسل إليك، لنجرب فك

لغز العرافة، وذلك أن تعرض ابنك عليها، حتى وإن استدعى الأمر زيارتها في سجنها!!، ثم أضافتْ متنازلة متنهدة: ستكون السماء غير مبتهجة لو فقدنا ابننا هكذا دون أن نحاول المستحيل لإنقاذه (شعرتْ حينها بأنها أصبحتْ شخصًا مغلوبًا على أمره)... قابلتُ كلامها بأنين صامت، ساخر يتسم باليأس.. أطبقتُ بحذر أطراف شفتي محتارًا مشككًا، وقلتُ بعد أن واتتني الجرأة موافقًا بحركة من رأسي وبلهجة كئيبة مداريًا فيها ما يغلي بداخلي من تأنيب وتذمر وسخط، وبنفس مقطوع: سيكون لكِ ما أردتِ، ثم تطلعتُ إليها متقهقرًا، متخاذلًا، منزعجًا، وأنا أبتسم لها بعدم ارتياح متبرمًا، متضايقًا بشكل مؤثر وبنفاذ صبر يتصف في آنٍ واحد بالضعف والتحدي: غدًا سأجعل ابننا بين أيدي العرافة، ولنرَ!!



المؤلف في سطور

• كاتب وقاص عراقي، من مواليد بغداد ١٩٦٥م.

• هاجر مع زوجته إلى ألمانيا عام ١٩٩٠م.

• أسس مجلة ناطقة باللغة العربية بعنوان (ميمرا الكلمة) في ميونخ عام ١٩٩٩م، وترّأس تحريرها.

• نشر مجموعة كبيرة من القصص القصيرة والحكايات والمقالات في مواقع ومجلات عربية عديدة منها: مجلة آفاق مندائية، مجلة العهد، مجلة أقلام الثقافية، مجلة أصوات الشمال، الناس، أدب، شبكة حنين، وطيور دجلة، وغيرها الكثير.

• له محاولات عديدة في الرسم.

• أقام أثناء دراسته في الجامعة ثلاثة معارض رسم تشكيلي.

• الإصدرات :

- نتاج السنين : مجموعة قصصية. مطبعة فاكَنر، ميونخ ٢٠٠٥م

- الشك وأشياء أخرى : مسرحية. مطبعة فاكَنر، ميونخ ٢٠٠٧م

- الدين والنبي في التاريخ : دراسة. مطبعة فاكَنر، ميونخ ٢٠١٠م

- الموتى لا يتكلمون : مجموعة قصصية

شمس للنشر والإعلام، القاهرة ٢٠١٤م

- الهروب إلى الجحيم : مجموعة قصصية

شمس للنشر والإعلام، القاهرة ٢٠١٤م

- ملح العيون : مجموعة قصصية (تحت الطبع).

• البريد الإلكتروني: haitham65@hotmail.de

الفهـرس



(+2) 01288890065 /(+2) 02 27270004

www.shams-group.net